رشيد العبيدي
الأستاذ بجامعة بغداد

دراسات في النقد الأدبي

الجزء الثاني

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الطبعة الاولى

مطبعة المعارف ـ بغداد
١٩٦٨ ـ ١٩٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله القائل لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم فاذا ظن انه قد علم فقد جهل ، وعلى آله الابرار وأصحابه الاخيار •

أما بعد فهذا الجزء الثاني من كتاب دراسات في النقد الادبي حاولت فيه اليسر والسهولة ، لعلمي ان الموضوعات المطروقة يجب ان تقصر على مفهوم عنوان البحث لا زائدة عليه ولا ناقصة عنه •

لقد تضمن هذا الكتاب أول ما تضمن البحث في الادب والنقد ولم يخل بذكر آراء كبار الادباء والنقاد المتقدمين والمحدثين ليعلم القارىء مراحل التطور وايصال الماضي بالحاضر وليدرك المدى الثقافي الذي يحتاجه الناقد الادبي • ثم تحدث الكتاب عن أثر العاطفة والخيال والاسلوب والذوق في تحسين الكلام • وعما قاله علماء البيان في موضوع الرسالة والمقامة والمقالة والقصة العربية القديمة والحديثة ثم تناول فصلا خاصا بالشعر مبينا حدوده وضروبه كالشعر الغزلي بقسميه العذري والصناعي • ثم الشعر القصصي أو الملحمي ثم الشعر التمثيلي وموسيقى الشعر •

ولقد تحدث عن النثر الفني بقسميه الكتابي والخطابي • ثم النثر المرسل والنثر المسجوع مع نماذج تمثل كل نوع من النثر كما تحدث عن الكتب النقدية القديمة • مثل كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر • وكتاب نقد النثر المنسوب اليه خطأ • وكتاب الموازنة للامدي • وكتاب الوساطة لعلي بن عبدالعزيز الجرجاني • وكتابي أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبد القاهر

الجرجاني • ورسالة الغفران وكتاب عبث الوليد للمعرى • وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي وكتاب المثل السائر لابن الاثير •

هذه هي الكتب النقدية القديمة التى تناولها الكتاب • أما الكتب النقدية الحديثة فهى : (١) كتاب تاريخ النقد الادبى عند العرب للمرحوم الاستاذ طه ابراهيم • (٢) كتاب النقد الادبي للمرحوم الاستاذ أحمد أمين • (٣) كتاب اصول النقد الادبي للاستاذ أحمد الشايب • (٤) كتاب اسس النقد الادبي عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوى • (٥) كتاب النقد المنهجي عند العرب للمرحوم محمد مندور •

ولزيادة الفائدة من هذا الكتاب فقد وضعت فى آخره بحثا جعلته بمثابة عرض تاريخي لاهم المصادر المدونة الخاصة بالادب والنقد منذ نشأتها حتى عصرنا الحاضر • ومما تقدم سوف يتأكد للقارى الكريم أن هذا الكتاب الذى بين يديه قد جمع بين دفتيه كتبا كثيرة هن امهات الكتب فى النقد والادب • وانه سوف يوفر له الوقت الذى هو بأمس الحاجة اليه فيغنيه عن تحرى بعض الكتب التى تكاد تكون فى حكم المفقودة • ذلك التحرى الذى لا طائل تحته ولا يزيد عن كونه مضيعة للوقت • ولعلي لم أكن مبالغا اذا قلت : ان هذا الكتاب سيسد فراغا فيما نحن بسبيله من الابحاث النقدية التى يحتاجها المتتبع للدراسات النقدية •

هذا واني لا أحب أن أقول اني تعبت فى العثور على بعض المصادر المطلوبة دراستها • لان التعب ـ ما الذه وما أحلاه ـ فى سبيل اللذة العملية والخدمة الوطنية ، بل ربما كان ذلك لي راحة وسعادة • وأخيرا أتوسل الى الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه وسببا لمرضاته ووسيلة للانتفاع به فهو ربي وبه استعين •

رشيد العبيدي
استاذ النقد الادبى فى كلية التربية
قسم الآداب

الفصل الاول

الادب والنقد

لفظتان موجزتان ولكنهما مشتملتان على أوسع المعانى وأدق الافكار • ولقد تحدث عنهما عباقرة الادباء وكبار النقاد فأطنبوا فيهما وأسهبوا فجعلوا الادب هو الحياة بجميع أحداثها وأطوارها وجعلوا النقد هو المهذب لها الصاقل لفنونها والدال على جمالها •

لقد أصاب فن الادب فى عصرنا هذا نجاحا كبيرا ولا سيما فى القصة والشعر والمسرحية لما لهذه الفنون من الاتصال المباشر والملابسات الشديدة في حياة الناس على اختلاف أجناسهم وأزمنتهم وأمكنتهم ، ذلك لان الادب ميراث مشترك بين الجميع ولهذا السبب تعددت تعاريفه وتوسعت أبحاثه وصار الشغل الشاغل فى دنيا الفنون •

فمنهم من قال : الادب تعبير عن الذات الانسانية التى تعيش مع الجماعة فى واقعها الحقيقى • وبدون هذا الواقع الاجتماعى تنعدم كل رغبة فى التعبير فهو حاجة اجتماعية قبل أن يكون متعة عابرة •

ومنهم من قال : الادب هو تلك الثمرة الفكرية التى ابتدعها عقل الاديب وصقلها طبعه ولوتنها عواطفه فصاغها قطعة شعرية أو رسالة نثرية أو مقالة اجتماعية أو قصة مسرحية صورت آمال الناس وآلامهم •

وقال المرحوم محمد مندور : « ان المقصود بالادب[1] أن يكون في

---

(١) مجلة المعرفة السورية فى عددها الممتاز وفى سنتها الثالثة شباط سنة ١٩٦٥ ص (٢٣٢) •

خدمة الشعب وان يستمد موضوعاته ومضامينه من معارك الشعب الحارة أى من الاوراق الخضراء لا الاوراق الصفراء • وان يكون أدبا هادفا أى ادبا قائدا يسعى الى تطوير حياتنا الشعبية دائما الى الامام والانتصاف للشعب من الذل والفقر والجهل • وذلك بالكشف الدائم عن منابع الشر التى ترسبت فى حياة شعوبنا العربية من عهود الظلام ، كما يبحث عن مواضع الثقة والامل فى حياة أكثر عدلا واسعادا لشعوبنا العربية المتطلعة •

ومنهم من قال : الادب هو الصورة المثالية للحياة الانسانية على اختلاف الزمان والمكان فليس له ماض وحاضر ومستقبل انه نبضة من نبضات العقل والروح ، فهو مرآة تتجلى فيها أحداث الحياة ، بل هو الصورة المثالية لها ، يحب رؤيتها جميع الناس ، وأنه الصورة المحافظة على جمالها أبد الدهر تحمل للانسانية المتحضرة ممكنات لا تنفد فى اثارة الاحساس بالجمال الفني والخلقي •

وقالوا : ان للادب صورتين أدب المعرفة وأدب القوة ، ووظيفة أدب المعرفة أن يمدنا بالمعلومات • وغاية أدب القوة تحريك العواطف واثارة المشاعر وتوجيهها نحو الافضل ، فهو على العموم هذا النتاج الفكري المتمثل في الاقوال الحكيمة والتعابير البليغة مما تبدعه قرائح الكتاب والخطباء والشعراء وتتهذب به الانسانية على مدى الزمان واختلاف المكان•

ومن اعلى مظاهر الادب العربي هى تلك المعاني التى جاء بها القرآن الكريم ونطق بها نبينا العظيم (ص) وأخذ الادباء يترسمون الفاظها ومضامينها فى خطبهم ورسائلهم وأشعارهم وما استحدثوه من الانواع الادبية كالمقالة والقصة والمسرحية وما يتبع ذلك من فنون الادب •

النقد الادبي

النقد الادبي هو دراسة التجارب والنظريات الادبية التى يتوصل بها الباحثون الى فهم النصوص فيكشف عن بواعثها ونتائجها وما تتركه في حياة

الناس من أثر فينظر النقد الى مفردات النص هل هي فصيحة جامعة لاسباب الحسن والجمال ، وينظر الى تراكيبه هل هي بليغة مؤثرة ذات معاني تعبّر عن اوجه النشاط العقلى والروحي وتكفل للمجتمع الانساني السعادة والرقي • ؟

هذا وان للنقد أهدافا بعيدة المدى ، ومن أهدافه البحث في عموم الكائنات والتميز بين اشكالها ومحتواها واصدار الحكم عليها بصلاحها او فسادها بخلودها او اندثارها او اجراء مقارنة شاملة بين مختلف التجارب الادبية ثم تفضيل بعضها على بعض بما تضمنته من قيم تعبيرية واجتماعية ونفسية ووجدانية وعقلية • وغير ذلك مما يتصل بحياة الناس من عادات وتقاليد وعقائد ورغبات فى شتى المجالات •

وقد عرفه بعضهم بانه ثمرة التفكير فى الآثار الادبية لتقويمها ببيان زيفها من صحيحها وتفسير نواحيها الفنية ثم الحكم عليها •

وغالبا ما يكون النقد لاحقا للانتاج الادبي لانه تقويم لشيء سبق وجوده ولكن الواقع يدل على أن أقدم صورة للنقد تمثل فى نقد الاديب لما ينتجه فلا ينظم شاعر أو ينثر كاتب دون أن يتبع بعض القواعد او المبادىء يعتمد عليها في بناء قصيدته أوقصته وهو في عمله هذا يبذل جهد الناقد• وقد اصبح هذا النوع من النقد اكثر حيوية واعظم قيمة واوضح اثرا في النقد الحديث(٢) •

الناقــد الادبي

الناقد انسان نضج عقله وتهذب ذوقه وحسن طبعه واحاط بعلوم اللغة فقهها ونحوها وصرفها وبلاغتها وتاريخ آدابها ، ثم انه اذا نطق أصاب واذا حكم عدل واذا تولى أمراً أجزأ فيه وجاءك منه بالخير اليقين فلا يمارى ولا يداجي • له حلم واناة لا يصبر على باطل ولا يغضب الا

---

(٢) المدخل الى النقد الادبي الحديث ص (١٠) •

للحق يستطيع أن يتغلغل فى أعماق التجارب الادبية التى يتعرض لنقدها وتفسيرها ، كما انه يستطيع أن يتجرد من سلطان هواه ويصدر حكما مبنيا على قواعد أكثر علمية والصق بالناحية الموضوعية . رائده اظهار الحق وبلوغ الكمال عن طريق التجرد والحياد التام . (والناقد الحق يجب أن يكون ذهنه متنبها ومرنا ، حاد النظرة سريع الاستجابة ، قوى الفهم وفوق ذلك يجب أن يكون كما قال ارنولد قادرا على أن يرى الشيء كما هو فى الحقيقة ، وألا يزيغ فى ضباب من ميوله الخاصة وأفكاره السابقة . ومعنى ذلك انه يجب أن يكون خاليا تماما ومتجردا عن ميل الاذواق الفردية وميل العقيدة والطائفة والحزب والطبقة والامة)[٣] .

من هنا نعلم ان الناقد انسان مصلح وهادى الى الخير باسلوب لا يشم منه رائحة التهكم والسخرية بشخصية المنقود في تبيان الاخطاء نعم انه يوجه الى الخير باسلوب مقنع يرضى به كل من يقرأ نقده وارشاده .

وقد ينزل الناقد نفسه منزلة المستفهم المتطلع الى معرفة الحقيقة دون أن يشعر المنقود بأنه ناقد له ، متعال عليه . وانه فوق ذلك يلزمه أن يلم بتراث امته ولغته فى مختلف موضوعاتها وعهودها وأقطارها حتى يعرف الادباء السابقين واللاحقين ، ويميز بين المبدعين الذين تواردت فى خواطرهم المعانى بدون قصد وبين السارقين الذين أخذ بعضهم من بعض عن قصد ، ويكون رائده فى كل ذلك الخير المحض للناس أجمعين . كما يلزمه حين يقارن بين النصوص الادبية أن يكون مثقفا ثقافة واسعة سواء أكانت هذه السعة في حدود لغته أم كانت خارج نطاق لغته . الامر الذى يدعوه الى اتقان بعض اللغات الحية ، ليعلم ما اشتملت عليه تلك اللغات من اصول

---

(٣) كتاب النقد الادبي ، لاحمد أمين ، الجزء الاول ص ١٩٧ .

البحث وطرق الاستنتاج ومحاسن المعاني وأساليب التعبير •

ذكر ابن سلام فى كتابه « طبقات الشعراء » كثيرا من الشروط التي يجب أن تتوفر فى النقد والناقد : قال :

« قال قائل لخلف اذا سمعت انا بالشعر واستحسنته فما ابالي ما قلت فيه أنت وأصحابك ، فقال له اذا أخذت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف انه ردىء هل ينفعك استحسانك له » • فابن سلام يرى ان للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلوم والصناعات ، منها ما تثقفه اليد ومنها ما يثقفه اللسان • ومن ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة أو وزن دون المعاينة ممن يبصره • ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا حسن ولا صفة ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها وستوقها ومفرغها • ومنه البصر بغريب النخل والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده وتشابه لونه ومسه وزرعه حتى يضاف كل صنف منها الى بلده الذى خرج منه •

وكذلك بصر الرقيق ، فتوصف الجارية فيقال ناصعة اللون جيدة الشطب نقية الثغر حسنة العين والانف جيدة النهود ظريفة اللسان واردة الشعر فتكون بهذه الصفة بمائتي دينار وتكون اخرى بألف دينار وأكثر لا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة ، ثم يقول : ان كثرة المدارسة لتعدى على العلم •

حاجة الناقد الادبي الى ثقافة تاريخية في عادات الامم وتقاليدها

علمنا من خلال دراستنا ان مهمة النقد الادبى مهمة حيوية وشاقة لم تقف بالناقد عند حدود تمييز الكلام الجيد من الكلام الردىء شكلا ومضمونا ، بل عليه أن يدخل في جو التجربة وكأنه عاش مع صاحبها الذى أبدعها فيدرس بيئته ونشأته وحياته الخاصة والعامة والمراحل التي هيأته

ودعته أن يقول ما قال ويلم بجميع البواعث سواءأكانت تلك البواعث مادية أو معنوية • وقد لا تقتصر دراسة الناقد على نتاج المنقود بل تتجاوز ذلك الى دراسة الذين انجبوه والسلالة التى انحدر عنها وما نفثت فيه من قوى ذهنية وارادية ووجدانية كما عمل العقاد فى كتابه ابن الرومى •

ثم ان وجوه النقد كثيرة ذات مجالات واسعة وعميقة • ومن تلك المجالات الكثيرة ، تفسير الكلام المراد نقده وبيان ما انطوى عليه من أفكار واسرار تتصل بحياة قائله وموقفه الراهن من نفسه ، ومن الناس الذين عاش بينهم ، بما لهم من عادات وتقاليد اصيلة فيهم أو مقتبسة من غيرهم • ذلك ان من الشعر شعرا يحتاج تفسيره الى معرفة تلك العادات والتقاليد فان لم يفسر على ضوئها ذهب العلم بحقيقته واضطربت فيه الظنون والافهام • خذ مثلا قول امرىء القيس فى معلقته :

وما ذرفت عيناك الا لتضربي بسهميك في اعشار قلب مقتل

فان ظاهر معنى هذا البيت يدل على ان امرأ القيس يريد أن يقول لحبيته وابنة عمه انك لم تبكي لانك مظلومة وانما بكيت لتحطمي قلبي بدموع عينيك اللتين هما كسهمين اخترقا قلب محبك جميعه •

ان تفسير هذا البيت بهذه الصورة هو أيسر تفسير له • ولكن المطلع على تاريخ العرب والعارف لعاداتهم وتقاليدهم يستطيع تفسير البيت المذكور بأعمق وأدق مما فسرناه به •

ذلك ان من عادات العرب حين يجرون عملية القسمة انهم يجعلون الشىء المراد قسمته عشرة انصباء ثم يجال عليها بالسهام التي هى الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى ويجعلون للفذ نصيبا واحدا اذا فاز وللتوأم نصيبين وللرقيب ثلاثة انصباء وللحلس أربعة

---

(٤) كتاب طبقات الشعر ص ٧ من الطبعة القديمة •

وللنافس خمسة وللمسبل ستة وللمعلى سبعة • فقوله بسهميك يريد المعلى الذى له سبعة انصباء والرقيب الذى له ثلاثة انصباء فهو بهذا كأنه شبه عينيها بالسهمين اللذين أصابا جميع قلبه •

ومما يدعم هذا الرأى ويوجب على الناقد معرفة تقاليد وأساطير القوم الذين يراد نقد أدبهم قول أبي العلاء المعري •

طربن لضوء البارق المتعالي ... ببغداد وهناً مالهن ومالي
سمت نحوه الابصار حتى كأنها ... بناريه من هنا وثم صوالي
اذا طال عنها سرها لورؤوسها ... تمد اليه فى رؤوس عوالي
اذا لاح ايماض سترت وجوهها ... كأنى عمرو والمطى سعالى

ومجمل القول في ذلك انه جاء في أساطير العرب اسم الغول والسعلاة وهى انثى الغيلان•••اذ كانوا يزعمون انهم يتزوجون من اناثها لما يجدون فيها من متعة وسعادة • غير ان دوام عشرتها مقرون بمكوثها فى البيت وعدم رؤيتها للبرق فان خرجت وتعرضت لرؤيته تركت زوجها واسرتها وطارت نحو البرق ولم تعد الى بيت الزوجية •

ومن قصصهم فى ذلك انهم زعموا ان عمرو بن يربوع التميمي كان قد تزوج من سعلاة وكان بها من أسعد الرجال • وكان كلما لاح برق ضمها اليه وأخفى رأسها بردائه • غير أنها فى وقت ما لاح لها البرق وغفل عنها عمرو فطارت نحو البرق وذهبت الى غير رجعة •

ولتوضيح ذلك يجمل بنا شرح الابيات التى أوردناها حتى نكون على بينة من صحة ما ذكرناه •

ففي البيت الاول ان أحمد بن عبدالله المعري مكث ببغداد مدة ثم اشتاق الى وطنه الشام فأخذ يستفهم عن حاله وحال ابله متعجبا من برح الاشتياق فيقول ما الذى أصابنا عند رؤيتنا هذا البارق المتعالى الذى لاح

لي ولابلي من ناحية الشام حتى طربت ابلي معي كل هذا الطرب ؟

وفي البيت الثانى يقول ان البارق لما أخذ يبرق من ناحية الشام سما اليه بصرى كما سمت اليه أبصار الابل شوقا الى الوطن حتى كأن هذه الابصار تصطلي بنار البارق حين تراه وترمقه •

وفي البيت الثالث يقول اذا بعد البارق عن ابلنا تمنت تلك الابل لو تقطع رؤوسها وترفع على أسنة الرماح العالية حتى تراه وتمتع أبصارها به من شدة اشتياقها اليه لانه يومض من جانب وطنها الحبيب •

وأما البيت الرابع وهو بيت القصيد فى الاشارة الى تلك الاسطورة فمعناه ان ابل المعرى لشدة حنينها الى وطنها كانت تهيج كلما اومض البرق لها من نحو أرض الوطن • لذلك كان يستر وجوهها • وانه ليفعل ذلك حتى لا تهيج لرؤيته فتتركه وحيدا • فمثله فى هذا الصنيع مع ابله كمثل عمرو التميمي مع سعلاته التي كان يستر وجهها كلما لاح البرق لهـــا فيعتريها ما يعتري تلك السعلاة •

من هنا نعلم ما يلزم للناقد الادبي من سعة الاطلاع وعمق الثقافـة والاحاطة التامة بتاريخ الامة التي ينتمي اليها صاحب التجربـة الادبيـة المراد نقدها وتبيان قيمتها •

الفصل الثاني

عناصر الادب

١ - العواطف الادبية :

العاطفة انفعال شديد ينزع بصاحبه الى ميل نحو أمر من الامور ملك عليه منافذ حواسه فلا يستطيع الانفلات منه ولا التخلي عنه •

وقد يتخذ هذا الانفعال طريقا الى عقل الانسان يسول له أن ميله هذا نحو ذلك الشيء انما هو عقلي ومنطقي •

والعاطفة قد تنشأ عن حنان بين الولد ووالديه وقد تنشأ عن مودة بين الفرد وأبناء وطنه أو بينه وبين أبناء جنسه وقد تنشأ عن علاقة الحب بين الزوج وزوجه وهى أعظم انفعال فينا يستولي على مشاعرنا ويرتفع بنا الى أسمى درجات الخيال •

وقد يتأله الحب عند بعض الناس كحب الصوفية مثل حب ابن الفارض ورابعة العدوية حتى يصبح مجرد عشق للجمال المطلق الذى يسمو على النزوع الجنسى ويعلو على الشهوات الجسدية • كقول أحدهم :

يهش قلبي اذا ما لحت ضاحكة   وينتشي كانتشاء العشب بالمطر
لا ابتغي الوصل كي اجني لبانته   تأله الحب فى قلبي وفى فكرى

والعاطفة الادبية شحنة من الافكار تحتدم فى نفس الاديب لا يهدأ حتى يفرغها في قوالب من الالفاظ ويجلوها بشكل قصيدة أو رسالة أو خطبة أو مقالة أو قصة أو مسرحية أو في غير هذه الاشكال من فنون الكلام مما يختاره ويرضاه وتتجلى فيه القوة والجدة والايحاء •

والعاطفة عنصر مهم فى التجارب الادبية توهج بها الالفاظ وتتجسد

بها المعاني ويجد الانسان من تأثيرها في نفسه نشوة تغريه بالاستزادة من معين تلك التجارب •

ولقد كان ادباء العرب الاقدمون يحسون بفعل العاطفة وتأثيرها على النفوس ولكنهم لم يسموها بهذا الاسم بل سموها بأثارها الصادرة عنها •

وللعواطف الادبية دواع كثيرة ومجالات واسعة وان العاطفة تتفاوت رقيا وانحطاطا بحسب تلك الدواعي • فان كان الداعي لها شريف المقصد نبيل المأرب شرفت تلك العاطفة وارتقت وان كان الداعي لها خسيس الغرض وضيع المقصد انحطت تلك العاطفة وهبطت قيمتها بنسبة وضاعتها •

واذا احتوت القطعة الادبية على جمال الالفاظ وصدق الكلام وشرف الهدف طال عمر تلك القطعة ومنحتها تلك الاطالة صفة البقاء والخلود بمقدار ما يفيد الناس منها وبمقدار ما يتأثرون بها •

ذكرت ان العاطفة انفعال • والانفعال مصدره القلب الذى هو مجمع الاضداد فيه الرضا والغضب فيه الكره والحب فيه الرجاء واليأس فيه القوة والضعف فيه الشجاعة والجبن فيه الكرم والبخل وفيه ميول اخرى يطول تعدادها واحصاؤها •

من هنا نعلم ان العاطفة لا تختص بواحدة من تلكم الصفات غير انها قد تكون فى شئون الحب والبغض أقوى منها فى غيرها • وليس معنى ذلك ان قوة التجربة الادبية وقف على هذين الموضوعين وانما هي توجد فى أنواع اخرى أيضا على قدر احساس الاديب بالموضوع الذى تناوله • كالشكوى والعتاب والاعتذار وما الى ذلك مما يرتقي الى مستوى الانفعالات الوجدانية والحوافز العاطفية الاخرى •

ذكروا ان النضر بن الحارث كان شديد العداوة لله وللرسول فأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه • ولما أسر يوم بدر أمر علياً رضي الله

بنه بقتله فقتله . وبعد قتله عرضت اخته قتيلة بنت الحارث للنبي فأنشدته عتابها . فقالت :

يا راكبا ان الأثيل مظنة　　من صبح غادية وأنت موفق
أبلغ بها ميتا بأن تحية　　ما ان تزال بها النجائب تعنق
مني اليه وعبرة مسفوحة　　جادت بواكفها واخرى تخنق
هل يسمعن النضر ان ناديته　　ان كان يسمع ميت لا ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه　　لله أرحام هناك تشقق
قسرا يقاد الى المنية متعبا　　رسف المقيد وهو عان موثق
أمحمد ها أنت صنو كريمة　　في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما　　منّ الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنظر أقرب من قتلت قرابة　　وأحقهم ان كان عتق يعتق

هذه القصيدة وان كان موضوعها عتابا غير انها تدفق عاطفة وتتفجر بكاء لان عتابها مشوب بلوعة الاخت الثكلى التي فدحتها المصيبة ولبسها الحزن والهم . وهكذا تكون العواطف زاخرة جياشة فى القطعة الادبية حين يكون شعور صاحبها متقدا واحساسه بها قويا . ومن الشعر العاطفى قول الصمة بن عبدالله بن طفيل يحن الى وطنه ويتشوق الى أحبته ويبكي على حاله :

حننت الى ريا ونفسك باعدت　　مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسن ان تأتي الامر طائعا　　وتجزع ان داعى الصبابة اسمعا
قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى　　وقلّ لنجد عندنا أن يودعا
بنفسي تلك الارض ما أطيب الربا　　وما أحسن المصطاف والمتربعا
وليست عشيات الحمى برواجع　　عليك ولكن خل عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر أعرض دوننا　　وحالت بنات الشوق يحنن نزعا

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا
وأذكر أيام الحمى ثم انثني على كبدي من خشية أن تصدعا

وكقول شمس الدين وهو من الشعراء المعاصرين فى قصيدته موكب الجمال التى يقول فيها :

في مغاني الهوى نسيت وجودى وتلاشت مشاعرى فى شرودى
ايه يا عمر كيف تمضي هباءا أين ذاتي وأين رجع نشيدى
هذه الارض كلها صبوات وظلال تكاثفت في صعيدي
وحفيف الاوهام يزعج وعيي نافذ الصوت في فؤادى الوئيد
وعزيز عليّ أحسب حياً وانا الميت في حنايا لحودى

وأوجز بعض النقاد هذه العواطف الادبية فى أربعة فقال : الرغبة والرهبة والطرب والغضب ورأوا ان أغراض الشعر تصدر عنها • فمع الرغبة يكون المدح والشكر ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف • ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب • ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع(١) •

وقال دعبل الخزاعي فى كتاب له فى الشعر (من أراد المديح فبالرغبة ومن أراد الهجاء فبالبغضاء • ومن أراد التشبيب فبالشوق والعشق• ومن أراد المعاتبة فبالاستبطاء(٢) •

٢ ـ الخيال :

الخيال للادب كالجناح للطائر فاذا دخل عنصر الخيال فى تركيب الكلام صار الكلام رائقا مؤثرا كما ان الطائر اذا رفرف بجناحيه

---

(١) اسس النقد الادبي عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوي نقلا عن العمدة •
(٢) العمدة جـ ١ ص ٧٩ •

ارتقى الى أجواء عالية • وهكذا الشاعر اذا جمّل شعره برداء من التشبيه والاستعارة والبسه غلالة من المجاز والكناية وجعل معانيه ذات قيم انسانية زاخرة بالعواطف المتزنة الراقية كان جديرا بالاعجاب والاكبار وكان خليقا بأن يكون أدبا رفيعا موسوما بسمة الجمال •

عذبة أنت كالطفولة كالاحلام ... كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء ... كالورد كابتسام الوليد
كلما ابصرتك عيناى تمشين ... بخطو موقع كالنشيد
خفق القلب للحياة ورق الزهـ ... ـر في حقل عمرى المجرود
وانتشت روحي الكئيبة بالحب ... وغنت كالبلبل الغريد
خطوات سكرانة بالاناشيد ... وصوت كرجع ناى بعيد
كل شيء موقع فيك حتى ... لفتة الجيد واهتزاز النهود(٣)

ان كل لفظة من الفاظ هذه القطعة يشتمل على خيال بديع فضلا عن التشبيهات والاستعارات المبثوثة في تراكيبها • ففي كلمات الطفولة واللحن والصباح والسماء الضحوك والليلة القمراء والورد وخفقان القلب وانتشاء الروح والخطوات السكرانة وترجيع الناى ولفتة الجيد واهتزاز النهود فى كل ذلك معان لو انعمنا النظر فيها ونظرنا اليها بمنظار العاطفة والجمال لوجدنا أنفسنا فى غمرة من الاحلام الجميلة • خذ مثلا كلمة الطفولة وحدها وتمعن فيما توحيه اليك من البراءة وما تحسه في قلبك من الحنان لهذا المخلوق الجميل فستجد نفسك في عالم زاخر بالذكريات العذبة والاماني المعسولة في عالم محاط بهالة من نور البراءة المتمثلة فى تلك الطفولة •

وقد يكون الخيال متمثلا فى خلق قصة ذات حوادث وشخصيات

---

(٣) من قصيدة للشابي تحت عنوان (صلوات فى هيكل الحب) •

ومناظر ينشئها الاديب ويصورها من بنات أفكاره وخواطره دون أن يكون لها ظل من الحقيقة فى دنيا الواقع فيبث فيها أمانيه وأحلامه وجميع تصوراته الدائرة فى خلده مما لا يقوى على تحقيقه فى واقع الحياة •

وقد أنشأ العرب قصصا على السنة الحيوان والنبات والجماد مما يدل على قدرتهم فى الابداع فى أى مجال كان •

الاسلوب

هو الطريقة التى يعرض فيها الاديب أفكاره ومعانيه كتابة أو خطابة• ويقسم الاسلوب مبدئيا الى ثلاثة أقسام : علمي وأدبي وخطابي •

أما الاسلوب العلمي فهوأهدأ الاساليب وأكثرها احتياجا الىالمنطق السليم والفكر المستقيم وأبعدها عن الخيال الشعرى لانه يخاطب ويناجي الفكر ويشرح الحقائق العلمية التي لا تخلو من غموض وخفاء وأظهر ميزاته سهولة العبارة وقوة الحجة ووضوح المعنى وتقريره فى الافهام من أقرب وجوه الكلام •

أما الاسلوب الادبي فهو هذا الذى تظهر به المعاني جلية قوية جميلة مؤثرة به تعرف شخصية الاديب وخصائصه الفنية بما ينفثه فيه من روعة التعبير وجمال التصوير ودقة التفكير وبما يبثه فيه من حرارة العاطفة وبديع الخيال • ولامر ما قالوا الاسلوب هو الاديب والاديب هو الاسلوب •

ولقد تعرض لتعريف الاسلوب الادبي جمهرة كبيرة من الفنانين والادباء • وها أنا ادون بعضها لما فيها من نفع وفائدة قالوا :

الاسلوب هو النظام الذى يتبعه الاديب فى اختيار الكلمات وتأليفها على نسق خاص •

وقالوا : الاسلوب هو الطريقة اللفظية التى يعرض الاديب فيها صور شعوره وأحاسيس نفسه •

وقالوا : هو تلك المعاني الشعورية التي يخرجها الاديب فى عبارات ملائمة لها •

وقالوا : الاسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير •

وقال المرحوم علي الجارم : الاسلوب هو المعنى المصوغ فى الفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفعل فى نفس سامعيه •

وجاء فى كتاب فنون الادب من سلسلة الفكر الحديث : الاسلوب هو الطريقة الخاصة فى اخراج المعانى • ثم جاء فى الكتاب نفسه ان الجيد من الاساليب هو ذلك الذى يصور خلجات نفس الاديب ويكون له أعمق الأثر فى نفس قارئيه وسامعيه •

وأعود فأقول : ان الاساليب كثيرة متشعبة لا تكاد تحصى لكثرة المبدعين الممتازين بقوة اسلوبهم وبراعتهم فى التعبير • فهي اذن تصميم ذهنى يفرغه الاديب في قوالب من الالفاظ تجمل به ويجمل بها ويكون لها التأثير القوى فى نفوس القارئين والسامعين •

ولا يخفى ان الاساليب تختلف باختلاف الانواع الادبية فللقصة اسلوب وللمقالة اسلوب وللمسرحية اسلوب وللرسالة اسلوب ولكل نوع من أنواع الشعر اسلوب • وكذلك تختلف بالنسبة للاغراض الادبية فللمدح اسلوب وللهجاء اسلوب وللغزل اسلوب وللرثاء اسلوب وللوصف اسلوب فلا يصح استعمال اسلوب المدح فى الهجاء ولا اسلوب الغزل فى الرثاء فلكل موضوع الفاظه ومناهجه ولكل مقام مقالته وعبارته • من هنا نعلم ان الاسلوب يقتحم جميع هذه الانواع والاغراض وانه يتحكم فيها من جهة ويخدمها من جهة اخرى •

الـــذوق

الذوق لغة هو الحاسة التى نميز بها خواص الاجسام الطبيعية بواسطة الجهاز الحسي فى الفم . ومركزه اللسان . فبالذوق ندرك طعم الحلاوة والمرارة والحموضة وما يتراوح بين هذه الطعـوم من مذاق[٥] والذوق بعامة يظهر فى مجالات كثـيرة ... يظهر فى رعايتك لنفسك وأهلك ، ويظهر فى تصرفك مع جيرتك وصحبتك ، ويظهر مع من تنادمهم وتسهر معهم فى جمعيتك وناديك ، ويظهر مع من تعاملهم فى شـرائك وبيعـك ويظهر في مجالستك مع أساتذتك وأبناء صفك .

واذا ارتقى ذوق الانسان وعرف ماله من حقوق وما عليه من واجبات نال حظا كبـيرا من سمـو المنزلة وسـمو الذات وصـار أهـلا للتقدير والاحترام .

الـذوق الادبي

وأما معنى الذوق فى الادب والفن فهو حاسة معنوية يصدر عنهـا انبساط النفس أو انقباضها لدى النظر فى أثر من آثار العاطفة أو الفكر . أو هو كما يقول البلاغيون حصول ملكة البلاغة للسان . فيقال مثلا هو حسن الذوق للشعر فهامة له خبير بنقده .

ولقد تكون هذه الحاسة البيانية في الانسان الذ ىينشأ بين فصحـاء اللغة ويأخذ عنهم علومها وادبها ونقدها رواية ودراية وحفظا منذ طفولته حتى يتخرج فيها شاعرا أو كاتبا أو خطيبا .

وقد تكون أحكام حاسة الذوق غير صائبة في بعض الاحيان . وذلك حين تتأثر بتأثيرات نفسية وعضوية تفسد على صاحبهـا صدق النظـر في التجارب الادبية .

---

(٥) المعجم الوسيط ج ١ ص ٣١٨ .

ومن هنا جاز للبعض أن يقول بعدم الاعتماد الكلي على أحكام الذوق .

أما اذا ثبت على وجه التحقيق سلامة تلك الحاسة واكتمال مادة العلم والادب في نفس صاحبها فان الذوق حينئذ يصبح عنصرا هاما ومرجعا معتبرا تعرض عليه الاحكام النقدية في اية تجربة ادبية .

يرى الدكتور مندور أن الذوق وان يكن من أعمق ملكاتنا البشرية في ادراك مواضع الجمال والقبح الا انه لا يمكن أن يصبح وسيلة مشروعة للمعرفة التى تصح لدى الغير الا اذا علل بأسباب عقلية وفنية ونفسية تستطيع أن توحي بمثل ما تحس به . والا أصبح ما نقوله ادعاء كاذبا ان لم يكن نصبا(٦) .

وعلى ذلك يكون الذوق الجدير بالاعتبار هو ذلك الذوق المثقف الذى هذبته التجارب العلمية والادبية والمؤيد بالاستعداد الفطرى والموهبة اللدنية .

رأي عبدالقاهر الجرجاني وابن خلدون فى الذوق

الذوق عند عبدالقاهر استعداد خاص يهيء صاحبه لتقدير الجمال وفهم أسرار الحسن ... فالجرجاني يجعل هذا الاستعداد الخاص شرطا أساسيا لتذوق الجمال فى الشؤون الادبية(٧) كما أنه لم يغفل ثقافة الناقد الادبي ثم لا يكون الناقد ناقدا حتى يكون محيطا بجميع أسباب العلم والمعرفة مدركا لكل ما يقتضيه فن القول من مظاهر الحسن والجمال .

أما ابن خلدون فقد قال ان الذوق معناه حصول ملكة البلاغة للسان ... ويرى ان هذه الملكة لا تحصل الا اذا استقرت ورسخت فى

---

(٦) ملخص عن مقدمة كتاب فى الميزان الجديد .
(٧) دلائل الاعجاز ص ٢٢٥ .

محالها • حينئذ تظهر كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل •

من هنا نعلم ان ابن خلدون لا يقول بالاستعداد الفطرى ويرى ان الملكات انما تنشأ من المخالطة والممارسة •• ويقول فى ذلك : ان كثيرا من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات يظن ان الصواب للعرب فى لغتهم اعرابا وبلاغة أمر طبيعي والحقيقة ليست كذلك ••• وانما هي ملكة لسانية فى نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت فى بادي الرأي كأنها جبلة وطبع •

وحجة ابن خلدون فى ذلك ان صاحب هذه الملكة لو رام حيدا عن هذا السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه على ذلك لسانه • واذا عرض عليه الكلام حائدا عن اسلوب العرب وبلاغتهم فى نظم كلامهم عرض عنه ومجّه ذوقه على اعتبار انه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم •

ثم يقول ابن خلدون ان اسم الذوق الذى اصطلح عليه أهل صناعة البيان انما هو موضوع لادراك الطعوم • لكن لما كان محل هذه الملكة فى اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لادراك الطعوم استعير له اسمه فسموه الذوق على سبيل الاستعارة ••

ثم قال فان عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسي والزمخشرى وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاما مع حصول هذه الملكة فاعلم ان هؤلاء الذين تسمع عنهم انما كانوا عجما في نسبهم فقط • وأما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن الذين تعلمها منهم • فاستولوا بذلك من الكلام على غاية ما وراءها غاية •

ثم قال ما معناه لو أن واحدا من غير العرب رسخت فيه ملكة مخالفة لملكة اللسان العربي ثم أقبل على ممارسة كلام العرب وأشعارهم بالمدارسة والحفظ فهل تحصل له ملكة اللسان العربي ؟ ان ابن خلدون ينفي ذلك

ويرى ان الملكة اذا سبقتها ملكة اخرى في المحل فلا تحصل له تلك الملكة الطارئة الا ناقصة مخدوشة[8] .

ومن جميل ما يروى في أمر الذوق مقالة قالها الاستاذ حمزة فتح الله في كتابه المواهب[9] : قال انه متى تقاربت المعاني في بيتين أو أبيات أو جملتين أو جمل عسر التعبير عن علة كون هذا أجود من ذلك وكان المعول عليه في التفضيل انما هو الذوق البحت والسليقة السليمة بل قد يوجد من الكلام في غير المقارنة ما يبلغ في حسن اللفظ والمعنى مبلغا يأخذ بمجامع القلوب فان حاولت التعبير عن صفة ذلك الحسن استعصت عليك العبارة وضاق عنها نطاق الامكان حتى قالوا : ان ذلك كالحسن في وجوه الملاح يعرف ولا يوصف الا ترى انه قد يكون فرسـان سليمـان من كل عيب وموجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه الا أهـل الخبرة والدربـة الطويلة وكذلك الجاريتان البارعتان في الجمال المتقاربتان في الوصف السليمتان من كل عيب قد يفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل بينهما فضلا كبيرا فاذا قيل له أو للنخاس انى لك هذا التفضيل ؟ لم يقدر على عبارة توضح الفرق بينهما وانما يعرفه كل واحد منهما بسليقته وكثرة دربته وطول ملابسته .

فكذلك الشعر قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود ان كان معناهما واحدا أو أيهما أجود في معناه ان كان معناهما مختلفين .

حكى اسحاق الموصلي قال : قال لي المعتصم : اخبرني عن معرفة النغم وبينهما لي فقلت: ان من الاشياء أشياءا تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة.

---

(٨) المقدمة ص ٣٢٢ طبعة بولاق .

(٩) المواهب الفتحية ج ٣٢ (١٢٢) .

وقال اسحاق أيضا سألني محمد الامين عن شعرين متقاربين وقال اختر أحدهما فاخترت • قال من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان فقلت لو تفاوتا لامكنني التبين ، ولكنهما تقاربا وفضلت هذا بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان •

لقد بان من عموم ما ذكرت ان هناك استعدادا فطريا يساعد صاحبه على ادراك مواطن الجمال بقوة خفية ولباقة فائقة لا تتأتيان الا لعبقرى عظيم له حاسة فنية يعرف بها دقائق الحسن واسراره مما هو أدق من فتنة الخدود وسحر العيون وأعمق من رشاقة القد ونصاعة الجبين •

وجمال البيان كجمال الفتيات الحسان لا يدركه الا صاحب الحاسة الفنية الخبير بالشئون الادبية يدركه بفطرته وحاسته ويعجز عن وصفه وتصويره • ولامر ما قالوا « شيئان لا نهاية لهما البيان والجمال » كم من الناس من يدرك صورة الهول الذى صورته الآية الكريمة (أو كظلمات فى بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض) أو يدرك صورة تلك الغادة الحسناء التى صورها خيال الشاعر مصطفى صادق الرافعي حين يقول :

تقاسمت الحسن الالهى واتنثنى ... يقاسمها والامر بينهما إمر
فللشمس منها طلعة الحسن مشرقا ... وفيها من الشمس التوقد والجمر
وللظبي منها مقلتاها وجيدها ... وفيها من الظبي التلفت والذعر

نعم لا يدرك أسرار سحر البيان الا الموهوبون من الكتاب والشعراء •

الفصل الثالث

المعاني والالفاظ

أركان الكلام اثنان معان والفاظ • فالمعاني هي تلك الافكار التي تضمنها الالفاظ والتي هى مدار حاجات الناس جميعا • فبالمعاني يحقق الافراد أغراضهم ومقاصدهم وبقوتها تمايز عقولهم ومنازلهم فى مدارج الكمال • ومن عرف دقة المعاني وعمقها وأحسن ترتيبها على وجوهها المنطقية بلغ الذروة فى البلاغة وفصل الخطاب • فكم من مغمور برز فى مجتمعه وتقدم على أقرانه بما أتى به من معنى دقيق ولفظ رشيق وتركيب أنيق وكثير ما هم • الا ترى الذين يطلقون الفاظهم دون أن تكون لهم فى أنفسهم فكرة معينة واضحة تأتي تلك الالفاظ باردة جامدة لا روح فيها ولا تأثير لها ؟ بلى ان المعانى اذا كانت جديدة عميقة لعبت بالعواطف وسحرت العقول •

من ذلك قول بعضهم :

ثقلت زجاجات أتتنا فرغا ... حتى اذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت ... وكذا الجسوم تخف بالارواح

وكقول سلم الخاسر :

فأنت كالدهر مبثوثا حبائله ... والدهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ملكت عنان الريح اصرفه ... فى كل ناحية ما فاتك الطلب

وكقول أحدهم :

والله لو وجدوا للبدر تسمية ... لاختير اسمك يا من تعشق المقل

كلا كما الحسن فتانا بصورته وزدت انك أنت الحب والغزل

وكقول الآخر اجتمع فيه دقة المعنى ولطف الخيال :

أشفقت انتئد الدموع جروحها ان اظهرت فسكبتها في خاطري

ولعلماء البيان آراء مختلفة فى قيم المعانى والالفاظ فى الشعر خاصة ، فذهب بعضهم الى ترجيح قيمة المعنى على اللفظ بينما البعض يرجح قيمة اللفظ على المعنى . وممن قال ان العبرة بالمعانى لا بالالفاظ الشيخ عبدالقاهر الجرجانى فى كتابه أسرار البلاغة حيث يقول (ان محاسن الكلام ترجع الى المعانى واذا استجدنا شعرا ووصفنا الفاظه بالحلاوة والرشاقة وغيرها من الاوصاف فانها لا تنبىء عن أحوال ترجع الى جرس الحروف والى ظاهر الوضع اللغوى بل الى أمر يقع من المرء فى فؤاده وفضل يقتدحه المرء من زناده . وأما استحسان اللفظ من غير شرك المعانى فيه فلا يكاد يعدو نمطا واحدا وهو أن يكون اللفظ مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ويتداولونه في ازمانهم ولا يكون وحشيا غريبا أو عاميا سخيفا) .

وكذلك ذهب هذا المذهب فى ترجيح قيمة المعانى على قيمة الالفاظ ضياء الدين بن الاثير فى الجزء الاول من كتابه المثل السائر حين أخذ في الاطراء على جلالة المعاني فى قول الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجـة ومسح بالاركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننـا وسـالت بأعناق المطى الاباطح

فقال ان في قول الشاعر كل حاجـة مما يستفيد منـه أهل النسيب والرقة والاهواء والمقة مالا يستفيده غيرهم ولا يشاركهم فيه من ليس منهم. الا ترىان حوائج منى كثيرة فمنها التلاقي والتشاكي ومنها التخلي للاجتماع الى غـير ذلك ممـا هـو تـال ومعقـود الكـون بـه فـكـأن الشاعر صانع فى هذا الموضع الذى أومأ له وعقـد غرضه عليـه بقوله فى

آخر البيت (ومسح بالاركان من هو ماسح) أى انما كانت حوائجنا التي قضيناها وأرابنا التي بلغناها من هذا النحو الذى هو مسح بالاركان وما هو لاحق به وجار في القربة من الله مجراه • أى لم تتعد هذا القدر المذكور الى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجارى مجرى التصريح • وأما البيت الثانى فان فيه « أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا » وفى هذا ما تذكره لتعجب به وبمن عجب منه ووضع من معناه وذلك انه لو قال أخذنا في أحاديثنا أو نحو ذلك لكان فيه ما يكبره أهل النسيب فانه قد شاع عنهم واتسع فى محاوراتهم علو قدر الحديث بين الالفين والجذل بجمع شمل المتواصلين • الا ترى الى قول بعضهم :

وحدثتني يا سعد عنها فزدتني جنونا فزدني من حديثك يا سعد

وقول الآخر :

وحديثها السحر الحلال لو انه لم يجن قتل المسلم المتحرز

فاذا كان قدر الحديث عندهم على ما نرى فكيف به اذا قيده بقوله (أخذنا بأطراف الاحاديث) فان فى ذلك وحيا خفيا ورمزا حلوا الا ترى انه قد يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة من التعريض والتلويح والايحاء دون التصريح • وذلك أحلى وأطيب وأغزل وأنسب من أن يكون كشفا ومصارحة وجهرا وان كان الامر كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم وأشد تقدما فى نفوسهم من لفظهما وان عذب ولذ مستمعه فى قول الشاعر : (وسالت بأعناق المطى الاباطح)
من لطافة المعنى وحسنه ما لاخفاء فيه • وسأنبه على ذلك فأقول : ان هؤلاء لما تحدثوا وهم سائرون على المطايا شغلتهم لذة الحديث عن امساك الازمة فاسترخت عن أيديهم وكذلك شأن من يشره وتغلبه الشهوة فى أمر من الامور ولما كان الامر كذلك وارتخت الازمة عن الايدى أسرعت المطايا المسير فشبهت أعناقها بمرور السيل على وجه الارض فى سرعته •

وهذا موضع كريم حسن لا مزيد على حسنه • والذى لا ينعم نظره فيه لا يعلم ما اشتمل عليه من المعنى • فالعرب انما تحسن الفاظها وتزخرفها عناية منها بالمعاني التي تحتها فالالفاظ اذاً خدم المعاني والمخدوم لا شك أشرف من الخادم •

أما الذين قالوا ان العبرة بالالفاظ فمنهم أبو هلال العسكرى اذ قال « وليس الشأن فى اعداد المعاني لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والبدوي • وانما هو جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من اود النظم والتأليف • وليس يطلب من المعنى الا ان يكون صوابا ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفنا من نعوته التي تقدمت » وقال في موضع آخر « الكلام اذا كان لفظه عذبا وسلسا سهلا ومعناه وسطا دخل فى جملة الجيد وجرى مع الرائع النادر » • وهذا الرأي مستمد من قول الجاحظ حين يقول (وانما الشأن فى اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وجودة السبك وانما الشعر صياغة وضرب من التصوير •

وكذلك ذهب الى هذا المنحى ابن خلدون اذ قال فى مقدمته « اعلم ان صناعة الكلام نظما ونثرا انما هي في الالفاظ لا في المعاني وانما المعاني تبع لها وهي أصل • والمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج الى صناعة • وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة وهو بمثابة القالب للمعاني فكما ان الاواني التى يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والزخرف والماء واحد في نفسه • وتختلف الجودة في الاواني المملوءة بالماء لا باختلاف الماء ، كذلك جودة اللغة وبلاغتها فى الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام فى تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في

نفسها[1] . انتهى .

والصواب عندى ان المعاني والالفاظ كجناحي الطائر لا يطير الا بسلامتهما فاذا هيض أحد جناحيه ظل يتخبط ولصق بالتراب .

ولقد كنت قد ذكرت في كتابي (الادب ومذاهب النقد فيه) رأيا للمرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي وضح فيه العلاقة القوية بين المعاني والالفاظ فبلغ به غاية الصواب اذ قال :

لم أر فيما رأيت من الآراء في قديم الادب وحديثه أغرب من اولئك الذين يفرقون فى أحكامهم بين اللفظ والمعنى ويصفون كلا منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر فيقولون ما أجمل اسلوب هذه القصيدة لولا ان معانيها ساقطة مرذولة . أو ما أبدع هذه القطعة لولا ان اسلوبها قبيح مضطرب . كأنما يخيل اليهم أن اللفظ وعاء وان المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء فتارة يكون خمرا وتارة يكون خلا ويكون حينا صافيا واخرى كدرا والوعاء باق على صورته لا يتغير . وما علموا أنهما متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها والخمر بنشوتها فكما لا يجوز أن نقول ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها ولا ما أعذب الخمر وأمر نشوتها كذلك لا يجوز أن تصف اللفظ بالجمال والمعنى بالقبح أو نعكس ذلك .

فليعلم الناشىء المتأدب انه ليس للفظ كيان مستقل ولا حيز خاص فجماله جمال معناه وقبحه قبحه وان القطع الادبية الشعرية أو النثرية التي تصف اسلوبها بالجمال انما تصف بذلك معانيها وأغراضها . وان الذين يزعمون من الشعراء والكتاب ان اساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معان شريفة عالية كاذبون بزعمهم أو واهمون . لا يضطرب اللفظ الا لان معناه مضطرب فى نفس صاحبه ولا يغمض الا لان معناه

---

(١) صفحة (٣٣٠) الطبعة الاولى فى المطبعة الخيرية بالقاهرة .

غامض فى نفسه • ومحال ان يعجز الفاهم عن الافهام ولا المتأثر عن التأثير ولا المقتنع عن الاقناع •

وما البيان الا المرآة التي ترتسم فيها صورة النفس فحيث تكون جميلة فهو جميل أو قبيحة فهو قبيح أو مضيئة فهو مضيء أو مظلمة فهو مظلم •

فاذا استطعنا ان نتصور مرآة تكذب فى تمثيل الصورة الماثلة أمامها استطعنا أن نتصور بيانا يختلف فى وصفه عن وصف نفس صاحبه(٢) •

---

(٢) كتاب الادب ومذاهب النقد فيه صفحة ٣٥ •

الفصل الرابع

الاجناس الادبية

الاجناس الادبية : هي تلك الفنون التي استحدثها الادباء وصوروا بها ما جادت به قرائحهم من بدائع المعاني ومحاسن الالفاظ وفنون الاساليب كالخطبة والرسالة والمقامة والمقالة والقصة والمسرحية وما يمكن أن تبدعه عواطف الادباء ومستلزمات التطور •

الخطبـــة

الخطبة فن من فنون الكلام نشأت منذ فجر الحياة الاجتماعية • غير انها نشأت بشكل يتناسب مع تفكير تلك الجماعات البدائية ويتلاءم مع حاجاتهم الزمنية ، ثم أخذت تتطور وتتهذب شيئا فشيئا بحسب تقدم الناس في مضمار الرقي •

ان الظاهر من تتبعات الباحثين في الشؤون الخطابية ان الخطبة أخذت شكلها الموضوعي زمن أثينا غير أن هذا الشكل لم يأخذ نصيبه من النضج الا بعد أن الف ارسطو كتابه « فن الخطابة » الذى اعتبره المعنيون بالخطابة كتابا اصيلا • اذ قالوا عنه ان اصالته ثابتة له شكلا ومضمونا ••• ولا ينبغي أن نفهم بأن الاصالة ابتكار واختراع محض ، وانما للاصالة العلمية معنى آخر غير معنى الاختراع • ولا يقدح فيها ان يسبق المؤلف الى موضوعه اذا كان المؤلف المتأخر قد عرض لآراء من تقدموه وألح عليها بالنقـــد والنقض ••• وهكذا كان ارسطو فقد سبقه افلاطون في الكلام عن الخطابة • وسبقه السوفسطائيون الى موضوعها علميا وعمليا وسبقه خطباء من غير السوفسطائيين حيث دونوا ملاحظاتهم على خطبهم واتخذوا من هذه

الملاحظ قواعد ومقاييس ساروا عليها[1] ٠

وهكذا ظل فن الخطابة موضوع اعجاب الناس ومحل تقديرهم وطريقا الى اكتساب المجد وذيوع الصيت حتى تهافت على تعلمها كل من يريد علواً في الحياة الاجتماعية والسياسية والادبية وغيرها من مظاهر الحياة العامة ٠

ولم يقف شأن الخطابة في اليونانية بل تعداها الى البلاد الرومانية فانشأت فيها مدارس اهتمت بفن الخطابة اهتماما كبيرا ، وكان ممن اشتهر بالخطابة من الرومان الخطيب المفوه شيشرون ٠ وكان انجيل هاتيك المدارس هو كتاب ارسطو « فن الخطابة » هذا من ناحية الخطابة تاريخيا ٠

أما من ناحية اهتمام الناس بها وتأثيرها على نفوسهم فهي تعتبر أمرا مشتركا بين جميع الامم على اختلاف أجناسها ولغاتها وأهدافها ٠

وانا لا اجافي الحق اذا قلت ان امتنا العربية لها القدح المعلى فى شؤون الخطابة ولا سيما بعد ظهور الاسلام ٠ ذلك لان الدعوة الاسلامية هي الدعوة الحقة التي يستطيع الخطيب أن يقول فيها ما وسعه القول من المحامد والمكارم والمثل العليا ٠ ولا يقول الا حقا ولا يدعى الا صدقا ٠ ذلك ان الاسلام هو الشريعة الوحيدة التى يرتفع بها صوت الحق وتصان بها كرامة الانسان ويتقدم بها الرقي الخلقي حتى يبلغ ما شاء له الله أن يبلغه من مراتب الكمال ٠

ولهذا فاني موقن بأن الخطابة الحقة هى التى نشأت فى جزيرة العرب واتسع مداها ابان ظهور الاسلام ٠ نظرة الى معجزة الفتح العربي الاسلامي تجد ان الخطابة كانت من أكبر العوامل في انتشار الدعوة الاسلامية واتساع رقعة الفتوحات العربية ٠٠٠ لان نصف قرن فى تاريخ

---

(١) فى صدر ترجمة كتاب الخطابة لارسطو للدكتور ابراهيم سلامة ٠

نهضات الشعوب لا يعتبر شيئا كثيرا بالنسبة للتطورات العظيمة فى تغيير العقائد واصول الاجتماع ... من هنا كانت الخطابة أقوى قوة بيد القادة والزعماء ينشرون بها مبادئهم ومناهج أعمالهم وأعظم وسيلة للاقناع والتأثير فهي كبرى مزايا الهداة والمصلحين ومنبر الولاة والحكام ومرتقى العلماء والمعلمين ثم هي زينة فى المحافل وسلاح فى الحروب واداة للسلام ، بها تفض الخصومات وبها تحل الازمات وبها ترجع الامور الى مجاريها الاعتيادية .

هل الخطابة علم أو فن ؟

قلت ان الخطابة فن ... والفن تطبيق عملي للنظريات العلمية بالوسائل التى تحققها ... وأهم نظريات الخطابة هى تلك التي تجعل الخطبة ناجحة فى تحقيق أهدافها ... ولا تكون كذلك ما لم تكن الخطبة مشتملة على فصاحة مفرداتها وبلاغة تراكيبها وجمال صورها . ومتضمنة أعلى المبادىء الي تهفو اليها الاسماع وتلهج بها الافئدة وتحقق للناس أغراضهم الحيوية المتصلة بصميم حياتهم الفردية والاجتماعية مما تقتضيه أحداثهم الراهنة وتشير اليه قضايا الساعة .

من هذا المنطلق كان لزاما على الخطيب أن يكون ملما بجميع المقاييس العلمية والفنية والذوقية مدركا لكل مظهر من مظاهر الجمال ذواقة للصور الادبية الرائعة التى تجسد المعاني المثالية للحياة الانسانية .

اذا المرء لم تبدهك بالحزم والحجا   قريحته لم تغن عنه تجاربه

كما كان لزاما عليه أن يكون رابط الجأش ساكن الجوارح مسيطرا على التعبير لا يكلم البلغاء بكلام السوقة وان يكون لفظه مونقاً ومعناه نيرا . ومدار الامر على افهام كل قوم بقدر طاقتهم والحديث معهم بما يناسب أقدارهم . وان يكون مؤمنا بالافكار التي يريد نشرها فى الناس لان فاقد

الشيء لا يعطيه•ومعنى ذلك ان الانسان الذى لا يؤمن بما يقول لا يستطيع نقل أفكاره الى غيره فعامل التجاوب بين الخطيب والسامع انما هو تجاوب روحي قبل أن يكون تجاوبا عن طريق الالفاظ • فالفكرة الصادرة من قلب صاحبها المؤمن بها هي التي لها التأثير الاول ، ولألفاظها التأثير الثاني • ان حروف اللغة التي نسجت منها آيات القرآن الكريم والتي صيغت منها أحاديث النبي هي نفس الحروف التى نخطب بها ونكتب •• ولكن أين يقع كلامنا من كلام الله وما محل أحاديثنا من محل أحاديثه صلوات الله وسلامه عليه •

خطبة له عليه الصلاة والسلام

أيها الناس ان لكم معالم • فانتهوا الى معالمكم • وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم • فان العبد بين مخافتين بين عاجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل به وبين آجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت ، فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار •

الرسـالـة

ومن الاجناس الادبية الرسالة وهي : كلام بين اثنين أو أكثر مشتمل على قليل من المسائل الخاصة بين المتراسلين ••• وتكون عادة في موضوع واحد يهم المرسل والمرسل اليه فيما يدور حول شئونهم الخاصة أو العامة •

وقد تطلق الرسالة على بحث مبتكر يقدمه طالب العلم لنيل شهادة عالية كشهادة الماجستير أو الدكتوراه مثلاً •

وكذلك تطلق الرسالة على شريعة من الشرائع السماوية التي أوحى

الله بها سبحانه وتعالى الى الناس كافة عن طريق أنبيائه ورسله لتطوير حياتهم وانتقالهم من عهد الى عهد آخر اشمل منه وأكمل .

وكان المتراسلون من العرب في العهد الجاهلي وصدر الاسلام يبدأون رسائلهم بداية بسيطة خالية من الفاظ التعظيم وفخامة الالقاب ، فالعربي في الجاهلية يبدأها باسمك اللهم ثم يكتب من فلان الى فلان ويمضي الى غرضه حتى يتمه ... وكان النبي (ص) يفتتح كتبه باسم الله الرحمن الرحيم . ثم يكتب من محمد رسول الله الى فلان السلام عليك أو السلام على من اتبع الهدى ثم يحمد الله ويثني عليه ثم يمضي الى مقصوده . وكذلك الصحابة فقد كتب عمر رضى الله عنه الى الامصار فقال بسم الله الرحمن الرحيم من عمر أمير المؤمنين الى ولاة الامصار . اني لم أعزل خالدا عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت ان يوكلوا اليه ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا ان الله هو الصانع وان لا يكونوا بعرض فتنة . والسلام[٢] .

وفي أواخر الدولة الاموية أخذت الرسائل اسلوبا آخر فيها ميل شديد الى تنميق اللفظ وزخرفة القول والعناية باقتضاء المقام على يد عبدالحميد بن يحيى الكاتب .

استمع الى رسالة كتبها الى أهله وهو منهزم مع مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الاموية حيث يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فان الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور . فمن ساعده الحظ فيها سكن اليها ومن عضته بنابها ذمها ساخطا عليها وشكا مستزيدا لها . وقد كانت اذاقتنا أفاويق استحليناها ثم جمحت بنا نافرة ورمحتنا مولية فملح عذبها وخشن لينها فأبعدتنا عن الاوطان

---

(٢) جمهرة رسائل العرب جـ١ ص ١٥٧ .

وفرقتنا عن الاخوان فالدار نازحة والطير بارحة وقد كتبت والايام تزيدنا منكم بعدا واليكم وجدا فان تتم البلية الى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا وان يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم نرجع اليكم بذل الاسار والذل شر جار نسأل الله الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة فى دار امنة تجمع سلامة الابدان والاديان فانه رب العالمين وأرحم الراحمين .

وهكذا كلما أمعنا في رسائل البلغاء في القرنين الثاني والثالث وجدنا رسائلهم ريقة الاسلوب بليغة التراكيب قوية الصنعة ووجدنا السلاسة في ألفاظها جارية والرشاقة في معانيها قشيبة ووجدنا الجمال في تصويرها رائعا أخاذا . ومن هذه الرسائل رسالة الحسن بن سهل الى محمد بن سماعة القاضي يلتمسه التعرف الى رجل كامل الصفات يستطيع النهوض في شؤون ديوان الدولة .

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد : فاني احتجت لبعض اموري الى رجل جامع لخصال الخير ذى عفة ونزاهة طعمة قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب ليس بظنين في رأيه ولا بمطعون في حسبه ، ان اؤتمن على الاسرار قام بها وان قلد مهما من الامور أجزأ فيه له سن مع أدب ولسان تقعده الرزانة ويسكنه الحلم قد فر عن ذكاء وفطنة وعض على قارحة من الكمال تكفيه اللحظة وترشده السكتة قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها وقام في امورهم وحمد فيها . له اناة الوزراء وصولة الامراء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء وجواب الحكماء لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه دلائل الفضل عليه لائحة وامارات العلم له شاهدة مضطلعا بما

(٣) جمهرة رسائل العرب جـ٢ ص ٥٧٠ .

استنهض مستقبلا بما حمّل وقد آثرتك بطلبه وحبوتك بارتياده ثقة بفضل اختيارك ومعرفة بحسن تأتيك •

المقـــامـــة

المقامة في أصل اللغة المجلس الذى يقوم الناس فيه ثم استعملها الادباء فيما يحتفل به من الخطب الادبية والمواعظ الدينية والملح الفكاهية والنوادر التاريخية والخواطر الوجدانية لغرض اظهار ثروتهم اللغوية وبراعتهم البلاغية •

وكأنهم أرادوا فى هذه التسمية ذلك الكلام الذى كان يلقى فى هاتيك المجالس والمحافل فسموا الكلام باسم المكان على سبيل المجاز المرسل للعلاقة المحلية ثم خصوها بالقصص التي يتحدثون بها في تلك المقامات والاندية عن السنة قوم يسمونهم الرواة يعرضون فيها أخبارهم النادرة ومقاصدهم العجيبة •

وكان من أشهر هذه المقامات :

أولا ـ مقامات أبي الفضل أحمد بن الحسين الملقب ببديع الزمان الهمذاني فريد دهره وغرة عصره المتوفى سنة ٣٩٨هـ وقد اتخذ لمقاماته شخصيتين خياليتين أحدهما عيسى بن هشام وثانيهما أبو الفتح الاسكندري• وعدد المطبوع من تلك المقامات خمسون مقامة وقد زعم بعضهم ان عددها في الاصل (٤٠٠) مقامة •

وقد أثنى عليها أبو اسحاق الحصري في كتابه زهر الآداب حين عرض لكلام بديع الزمان فقال انه غض المكاسر أنيق الجواهر يكاد الهواء يسرقه لطفا والهوى يعشقه ظرفا في معان تضحك الحزين وتحرك الرصين يتطلع منها الى كل طريفة ويوقف منها على كل لطيفة •

ثانيا ـ مقامات العالم الجليل أبي محمد القاسم بن علي الحريري البصري ولد سنة ٤٤٦هـ وهو عربي صميم كانت اسرته تسكن قرية يقال لها مسنان من قرى البصرة وتوفي سنة ٥١٦هـ وهو كالبديع الهمذاني اتخذ لمقاماته شخصيتين خياليتين أيضا وهما الحارث بن همام وأبو زيد السروجي وعدد مقاماته المطبوعة خمس وعشرون مقامة • ويعتبر الحريرى نفسه تأدبا ووفاء منه تلميذا للبديع الهمذاني • اليس هو القائل في مقاماته (ان البديع رحمه الله سباق غايات وصاحب آيات والمتصدى بعده لانشاء مقامة ولو اوتي بلاغة قدامة لا يغترف الا من فضائله ولا يسرى ذلك المسرى الا بدلالته ولله در القائل •

ولو قبل مبكاها بكيت صبابة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

المقالة

المقالة فن من فنون الادب تقوم على نمط من التفكير الشعبي في كل ما يتصل بحياة الناس من أحداث وتطورات باسلوب بسيط يستطيع أن يكتب فيه كثير من مثقفي الشعب لانطلاقه من بعض المستلزمات الفنية الواجب اتباعها في المسرحية والقصة والمقامة مما يحتاج الى دراية أوسع وأعمق واسلوب أرقى وأدق • ثم ان المقالة في الغالب الاعم تعالج موضوعا واحدا وتنهيه بدون غموض واطالة بحيث يستطيع قراءته عامة الشعب ممن يعرفون مبادىء القراءة والكتابة ومطالعة الصحف المحلية •

ولقد عرف الدكتور جونسن المقالة في طورها الاول فقال : ان المقالة نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام هي قطعة لا تجرى على نسق معلوم ولم يتم هضمها فى نفس كاتبها وليس الانشاء المنظم من المقالة في شيء •

وكذلك عرفها موري في قاموسه فقال : المقالة قطعة انشائية ذات طول معتدل تدور حول موضوع معين أو حول جزء من الموضوع ثم قال : وكانت المقالة في الاصل تعني موضوعا يحتاج الى مزيد من التهذيب • ولكنها أصبحت الآن تطلق على أية قطعة انشائية يتردد اسلوبها بين الايجاز والاسهاب ضمن مجال موضوعها المحدود • أما ادموند جونس فقد عرفها في بحثه المنشور في دائرة المعارف البريطانية فقال المقالة كفن من فنون الادب وهي قطعة انشائية ذات طول معتدل تكتب نثرا وتلم بالمظاهر الخارجية للموضوع سهلة سريعة ولا تعنى الا بالناحية التي تمس الكاتب عن قرب(٤) •

علمنا مما تقدم ان المقالة كسائر الفنون الادبية مرت في أطوار مختلفة وكانت تمارس أفكارا ساذجة في الفاظ بسيطة محدودة تناسب وطفولة العقلية العامة لتلك المجتمعات البدائية •

ولابد انها كانت في بداية نشأتها جملا متقطعة وعبارات قصيرة كالذي نراه في كتابة التمائم والاساطير وكلام القدماء من الكهنة والرهبان • وما كانوا يكتبونه على صفحات المسلات وجدران الكهوف • ثم أخذت تنمو وتتكامل شيئا فشيئا على مرور الايام والاحقاب حتى أصبحت بشكلها الذي هي عليه الآن •

القصـــة

القصة حكاية عن حوادث ماضية وفي شؤون فردية أو اجتماعية يعالج بها أصحابها جانبا من جوانب الحياة • وقد تطول تلك القصة وتقصر بحسب حوادثها قلة وكثرة وبحسب ما تتناوله من الاغراض والمقاصد • وهي عادة تهدف الى توجيه الناس نحو غاية معينة وخطة مرسومة تفتح لهم

(٤) كتاب فن المقالة ص ٩٤ دار بيروت للطباعة والنشر •

آفاقا واسعة تنجلي في تلك الآفاق صور الماضي والحاضر فيأخذون منها العظة والعبرة ويستنتجون منها أفضل ما تكون عليه حياتهم في المستقبل •

وأعلى أنواع القصة هو ذلك النوع الذى يصور معاني العظمة ويكشف عن أسرار النفس البشرية وما فيها من غرائز ونوازع روحية وجسدية مما يهدى الى رفعة الحياة ورقيها • ولهذا الامر نفسه اتفق الباحثون في شؤون القصة على أن الفن القصصي الصحيح هو هذا الذى يعرض المثل العليا في صورة الواقع الممكن ويحقق للناس حياة أرغد عيشا وأنبل قصدا وأرقى عقلا وأحسن خلقا •

وللباحثين في شؤون القصة تعاريف كثيرة فمنهم من يعرفها بأنها تعبير عن الحياة بتفصيلاتها وجزئياتها كما تمر في الزمن ممثلة فيالحوادث الخارجية والمشاعر الداخلية تبدأ وتنتهي فى حدود زمنية معينة وتتناول حادثة أو طائفة من الحوادث بين دفتي تلك الحدود • ثم هي اختيار وتنسيق لا مجرد تسجيل لخط سير الزمن(٥) •

أما موضوع القصة فهو الحياة بكل ما يتضمنه معنى الحياة من خير وشر وسعادة وشقاء واستقامة وخداع وعدل وظلم وكرم وبخل واقدام واحجام وتضحية وانانية وعزيمة وحيرة وبلادة وغيرة وصيانة ونزوع الى الكمال •

ان هذه الاضداد الماثلة على صفحات الحياة والتي هي موضوع القصة ليس الشر فيها شرا محضا ولا الخير فيها خيرا محضا وانما هما في حقيقة أمرهما مظهر من مظاهر طبيعة هذه الحياة التي يحياها الناس فوق سطح هذه الارض ثم هما مطلب من مطاليب تنازع البقاء وبقاء الاصلح •

ومن هنا جاز للقاص أن يتناول جميع هذه الاضداد وينشىء منها

---

(٥) النقد الادبي اصوله ومناهجه لسيد قطب ص ٨٤ •

قصته ابتغاء أن تكون درسا للذين يقرأونها في كتاب أو يشاهدونها ممثلة فوق خشبة المسرح •

وتمييز قصة عن قصة بما اشتملت عليه من أفعال خطيرة وحوادث حيوية لها مساس مباشر في حياة الافراد والجماعات والامم وبما اتخذته لنفسها من الاساليب المؤثرة في النفوس والداعية بجرأة الى التطور السريع نحو الامثل والافضل •

هذا بالاضافة الى ضرورة جعل أحداث القصة متسلسلة بحيث تكون القوة فيها منبثة وموزعة على جميعها حتى لا يتسرب السأم والملل الى نفوس القارئين والمشاهدين •

والقصة الفنية(٦) هي تلك التي لا تقتصر على الجانب الواعي من حياتنا اليومية واللون البادى من مجتمعنا الظاهر بل تتغلغل فيما وراء الوعي وتنفذ الى باطن الحياة والمجتمع • حتى تتجلى له تلك الطوايا التي اليها مرجع الحفز والتوجيه •

والقصاص الفنان هو الذى يبصرنا بالحقيقة الخافية والباعث المكنون فيرينا من أنفسنا ما نسر ويصارحنا من أمرنا بما نكتم فان لم يفعل ذلك فهو أقرب الى أن يكون صاحب عظات طنانة تهتز لها المنابر والمنصات فيصفق لها السامعون ما شاؤا أن يصفقوا وقلوبهم جميعا في شغل بما يضطرم فيها من أشتات الغرائز ومن مختلف العقد النفسية والملابسات المتشابكة تسير بهم على حكمها في طوع أو على كره •

القصة فى أدب العـــرب

ولامتنا العربية القدح المعلى في تنشئة القصة وتاريخنا (قديما وحديثا) حافل بالقصص العجيبة ذات الموضوعات المختلفة والاهداف النبيلة

---

(٦) كتاب الادب الهادف للاستاذ محمود تيمور •

والاساليب المتنوعة والاخيلة البديعة ، ولقد قص علينا القرآن الكريم بعض هذا القصص الجدير بالمعرفة في ابان الدعوة الاسلامية وصد عن البعض الآخر لان القرآن كتاب هداية ودين فاقتصر على ما اقتصر من القصص لامر هو أجدى على الناس وعلى الحياة وأحق بالذكر من غيره والله سبحانه وتعالى أعلم بما يقصه على الناس وما يكتمه عنهم لامـور تتعلق بصالـح الناس وتطور الحياة .

قال تعالى « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هـذا القرآن وان كنت من قبل لمن الغافلين » .

وقال تعالى : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما ؟ قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب اني لما أنزلت الي من خير فقير . فجاءته احداهما تمشي على استحياء قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا . فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت احداهما يا أبتي استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين . قال اني اريد أن انكحك احدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما اريد أن أشق عليك ستجدني ان شاء الله من الصالحين . قال ذلك بيني وبينك أيمـا الاجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل » .

ذكرت هذه القصة القرآنية لا لتكون نموذجا لنوع من أنواع القصص ولكن أردت الاستدلال بها على ان العرب كانت قد عرفت القصة قبل عصر القرآن بزمن بعيد ولو لم يعرفها العرب لما خاطبهـم الله باسـلوب قصصي . فورودها فى القرآن الكريم برهان ساطع على شـيوع القصـة منذ قرون سحيقة فى التاريخ العربي ناهيـك عن أخبار لقمـان الحكيم وعبدالله بن

جدعان وقصص أيام العرب وأهل الكهف كلها شواهد ناطقة على وجـود القصة عند العرب الاولين • بل ربما كان العرب أسبق الامم في ابتـداع القصة حتى صارت عندهم كميراث طبيعي يرويها جيل عن جيل • وما ميلنا الشديد للقصة فى العصر الحاضر الا تعبير عما ورثناه وأعجبنا به واندمج فى طبيعتنا الادبية •

ولو أبقت الايام ما فقدناه من تراثنا القصصى خلال هجوم الجيوش البربرية من الشرق على أيدى المغول ومن الغرب على أيدى الصليبيين لرأينا ما يبهر العقول ويحير الالباب • ومع ذلك فلو أحصينا البقية الباقية الموجودة عندنا وفى مكتبات أوربا واطلعنا عليه لاطلعنا على قصص هو تاج على هـام الحضارة وغرة فى جبين الدهر •

روى ان عمر بن الخطاب قد اذن لقاص أن يقص على الناس يوما فى الاسبوع وقد أذن عثمان بن عفان أن يقص يومين فى الاسـبوع • وكان علي بن أبي طالب يجيز للحسن البصرى أن يقص دائمـا فى المسجـد • وكذلك رتب معاوية أن يقـرأوا له القصص كل ليلـة وأمـر بأن يرافـق القصاصون الجيوش فى المغازى والفتوحات(٧) •

وما بالنا نذهب بعيدا وبين أيدينا كتب زاخرة بالقصص غنية بأنواعه وفنونه مثل كليلة ودمنة والف ليلة وليلة ومقامات البديع الهمذاني وابى القاسم الحريرى ورسالة الغفران للمعرى • والتوابع والزوابع لابن شهيد الاندلسي ومحاكمة الجن لاخوان الصفا وحى بن يقظان لابن طفيل وقصص الامثال العربية اذ لكل مثل قصة ، وقصص كتاب البخلاء للجاحظ وقصـة التربيع والتدوير للجاحظ أيضا وما ورد في كتب المؤرخين كالطبري وابن الاثير والمسعودى وفى كتب الادب كالبيان والتبيين والعقد الفريد والاغاني

---

(٧) كتاب الادب الهادف للاستاذ محمود تيمور •

وعيون الاخبار والشعر والشعراء وما الى ذلك مما يطول ذكره نعجز عن تعداده ٠

القصة العربية الحديثة

القصة بهذا الطول والسعة وبهذا العمق والدقة فن حديث النشأة جديد الصفة اقتضته سنة التطور ودعت اليه ملابسات الحياة التي مر بها الانسان الحديث ٠ ان النفس البشرية قديما مهما اوتيت من قوة التعبير وبراعة التصوير فانها لم تكن لتحتمل هذه الاطالة فى الكلام ولم تألف هذا الاستغراق والتفلسف فى شؤون الحياة ٠ أما الآن وقد بلغت من الرقي ما بلغت فتوسعت الحضارة والمدنية وتنوعت العلوم والفنون وتناولت البحث فى تحليل العواطف والغرائز وسمت بالعقول الى أرقى المستويات فكان من الطبيعي أن تتقدم القصة الى هذه المرحلة وتكتسب هذه الشهرة المحمودة بين سائر الفنون الادبية ٠ ويرتفع شأنها على شأن القصة القديمة ارتفاعا كبيرا اذ كانت القصة القديمة محدودة الغرض بسيطة العرض تتناول ظواهر الامور وبسائطها فتصل الى ما تريد بأقصر الطرق وأيسر الاساليب فهي وليدة مراحل متعاقبة فى خلال القرن الماضي من الترجمة فالمحاكاة فالابتداع مما جاء به البعث الجديد الذي تمخضت عنه صلات الشرق بالغرب حين أخذت امة العرب تصطنع مظاهر الحضارة فى شتى أسباب المعاش وفى مختلف ألوان الثقافات ٠ وكانت مهمة القصة تنتهي بانتهاء بيان القصد وجلاء الغرض دون تعمق فى فلسفة البواعث الغريزية ودون تحليل للنزوات النفسية فلا يكلف القاص نفسه فى البحث عن العلل ودواعيها ولا يفتش عن الاسباب ونتائجها ولا يفلسف ما يترتب على ذلك من الاضطراب فى العلاقات الشخصية والاساءة الى صميم الحياة الاجتماعية ٠

وقد يطلق المعنيون بهذه الشؤون على القصة الطويلة اسم الرواية ٠ أما اذا مثلت على

خشبة المسرح أو عرضت على شاشة الخيالة (السينما) فانهم يسمونها مسرحية . ولقد سئل الاستاذ نجيب محفوظ عن التفريق بين الرواية والقصة الطويلة قال : « الرواية تتميز بتعدد الشخصيات وتكامل الاحداث وبالتفاصيل النفسية والمادية . وأما الاقصوصة الطويلة فقد تغلب عليها ميزات الاقصوصة من التركيز ووحدة الموقف أو التعبير وغلبة الشخصية الواحدة .

المسرحية

المسرحية رواية يحكيها ويمثلها أشخاص فوق خشبة المسرح يقصون بحوارهم وحركاتهم مضمون الرواية متقصين أرواح أبطالها سالكين مسالك شخصياتها فى انفعالاتهم وأصواتهم والبستهم وجميع تصرفاتهم حتى يحسب الناظر اليهم كأنهم هم الذين مارسوا حوادثها واكتووا بنارها .

ومبدعو المسرحيات في أغلب الاحوال يتحرون الحوادث المثيرة للخواطر والمستفزة للنفوس ذات العواطف المتأججة والمواقف الخطيرة . ويحاولون أن يبعثوا فيها صراعا نفسيا عنيفا حول فكرة هامة ومثل أعلى تأخذ بأيدى الناس الى حياة أفضل وعيش أرغد .

والعناصر الاساسية التي تبني عليها المسرحية حوار وحركة ومكان يسمى المسرح .

أما الحوار والحركة فقد ينشآن بين عدة أشخاص رجالا ونساء وأطفالا يشتركون كلهم حينا وبعضهم أحيانا فى اصطناع حوادث وقعت بين جماعة . وقد تكون تلك الحوادث مأساة أو ملهاة وفق ما تقضيه مجريات حوادث الرواية .

أما المكان الذى تقع فيه تلك الحوادث فقد تتنوع مناظره فوق خشبة المسرح ويجعلونها كأنها طبيعية . وكذلك ملابس الممثلين فانها هى الاخرى

تتنوع بحسب ما تستلزمه مواقف الرواية المسرحية • لذلك يرى أصحاب الفن التمثيلي ان فنهم أشد تعقيدا من الفنون التي تشترك معها في بعض عناصرها الاساسية • ويجزمون بأن سبب هذا التعقيد ناشيء من أن التمثيل يحتاج الى تدريب الممثلين تدريبا مضنيا ويحتاج الى مران طويل ودربة فنية واسعة • ثم انه يحتاج الى أدوات عديدة ومناظر كثيرة والى أنوار خافتة واخرى ساطعة والى عناصر بشرية ذات ثقافات مختلفة حتى تبرز المسرحية مكيفة بشكل يكون أكثر انسجاما مع واقع الحياة وأشبه ما يكون بحوادث الناس •

نوع المسرحية وموضوعها

كان نوع المسرحية في أول نشأتها فرديا لا جمعيا يقف أحدهم على المسرح يتغنى ببعض الاغاني والاناشيد الجالبة للفرح والسرور والتي كثيرا ما كانت تأخذ طابعا دينيا فيه تضرع ودعاء واطراء وثناء على الآلهة التي تجلب اليمن والبركة والسعادة وتنقذهم من المحل والقحط والخصومات • وكانوا في هذا النوع من المسرحيات يدخلون الشيء الكثير من الخرافات والاساطير بحيث يصورون تلك الالهة بصورة الابطال والافذاذ فتنزل على الارض وتعمل كما يعمل سائر الناس • وقد كان الممثل أحيانا يوجه نقده الى واحد من أفراد المجتمع يصفه بالعار ويقذفه بالبذيء من القول ويمثله بأنواع من الحركات الممقوتة والمثيرة للضحك والسخرية • وبعد مراحل تاريخية ازداد عدد الممثلين من واحد الى اثنين أو ثلاثة أو أكثر يتحاورون بينهم ويقومون ببعض الافعال التي ترفع من شأن الفرد أو تحط من قدره •

أين ومتى نشأت المسرحية ؟

يكاد الباحثون في الشؤون المسرحية يجمعون على انها نشأت في اليونان ثم تسربت الى الرومان منذ القرن العاشر قبل الميلاد يوم كان الناس يحيون حياة تغلب فيها

الميثولوجيا ويكثرون من تعداد الآلهة وأسمائها فيسمونها باله الخصب واله الحب واله الجمال واله الحرب واله السلم وما الى ذلك مما يبدعه الخيال الديني فى نفوس الناس •

صفة المأساة الاغريقية

ولقد وصف الاستاذ أحمد أمين فى الجزء الاول من كتابه النقد الادبي المأساة الاغريقية فقال : من المستحيل أن نفهم الميزات التكوينية ، أو نقدر التأثير الجمالى للمأساة الاغريقية بدون معرفة المسرح الاثيني • فالنظارة كان عددهم عظيما يزيد على عشرين الف نفس • وكانت خشبة المسرح ضيقة ، والممثلون يلبسون ملابس ثقيلة تقليدية فيضعون فوق وجوههم دائما أقنعة مرسوما عليها ملامح أعظم وأعرض من ملامح الرجل العادى • ويضعون بأرجلهم نعالا غليظة محشوة لها كعوب عالية لكي يظهروا فى هيئات البطولة • وهذه الحقائق الثلاثة التي اذا أخذت معا شرحت المبادىء البارزة المتعددة للدرامة القديمة • وبخاصة خلوها من كل شىء يقارب الحركة الحرة السريعة أو الشخصية الفردية البارزة للممثل أو الصفة الواقعية • وكل هذا نجده في القصص التمثيلية الحديثة •• فضيق خشبة المسرح حال دون مناظر الجماعات ودون كل منظر يقتضى الاتساع والبعد •••• وابتعاد الممثلين عن النظارة جعل من المستحيل وضوح الايماءات والاشارات المفصلة الدقيقة • ولما كان الالقاء السريع والنبرات المنخفضة والنغمات المتبادلة امور تضيع فى هذا المسرح العظيم فى الهواء الطلق ••• لذلك كانت اللغة المستعملة لغة بلاغية وليست لغة الحديث الواقعي • فكانت نوعا ملائما لالقاء الكلام كمحفوظات • وهذا يشرح ما تتميز به المحاورة الاغريقية من جمود وتحدد يختلفان عن هذه الحيل الماهرة فى استعمال الكلمات والالفاظ في اسلوب شكسبير وغيره من أساتذة الدرامة الانجليزية • وملابس الممثلين الثقيلة المرهقة كانت ترغمهم على ان يتحركوا فى خطوات محددة بطيئة ،

وعلى أن يتجنبوا كل حركة قوية مجهدة • بينما استعمال القناع حال دون كل محاولة لتغيير سحنات الوجه دليلا على العواطف المتبدلة فظلت الملامح واحدة جامدة وأصبح الاشخاص أشخاصا نموذجيين للجنس أكثر منهم شخصيات فردية • كل هذه الحقائق تكفي لتوضيح لماذا كانت ظروف العرض في المسرح الاغريقي غير ملائمة لعرض أعمال العنف والانفعال ولعرض المعارك والمبارزات والحروب وجرائم القتل وأمثال هذه المناظر •

وهكذا نفهم كيف أن كثيرا من الميزات الغربية للمأساة الاغريقية كانت نتائج مباشرة وضرورية لهذه الظروف الخاصة من العرض العام ، وذلك مثل بساطتها المتناهية والقالب البلاغي الذى كان لمحاورتها والذى كون شخصياتها شخصيات نموذجية تقليدية ، وليست فردية مستقلة وجعلها خالية من الحركة والسرعة • ولنذكر حقيقة اخرى ليس أشد غرابة على القارىء للدرامة الكلاسيكية من وجود الكورس الذين هم جماعة من المغنين والراقصين يمثلون الشهود للرواية التمثيلية لا يتغيرون ولا ينتقلون من مكانهم ولا يغيبون ، ويعقبون على كل منظر ومرحلة بتعليقهم وشرحم ونقدهم بواسطة الغناء والرقص •

وقد سبب وجودهم الدائم أمام الممثلين هذه النتيجة الخطيرة • وهي انه لما كان من المفروض ان الدراما تؤدى من أولها الى ختامها أمام الكورس كان من الواجب على المؤلف أن يجعل قصته تحدث كلها فى مكان واحد وتحدث كلها في يوم واحد • ومن هنا نشأت وحدات الزمن والمكان وكانت قواعد مقررة للتكوين الدرامى •

التطور المسرحي

ظل المسرح اليوناني نموذجا حيا للمسارح التي انشأت فى العصور المتعاقبة فقد قلد الرومانيون المسرح اليوناني تقليدا كبيرا • وبمرور الزمن أدخلوا عليه تحسينات اقتضاها التطور الزمني والعلوم الحديثة ••

وحين نشأ المسرح الروماني بمعناه الفني حوالي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد كانت موضوعاته ومناظره وملابسه أفريقية . وممن برعوا في الملهاة من الرومانيين (بلوتوس) . وكان ذا اصالة في تصوير شخصيات ملاهيه وعواطفهم في حوار وطرائف لاذعة عميقة .

وفي العصور الوسطى نشأت المسرحيات كذلك نشأة دينية . فكانت موضوعاتها مأخوذة من الانجيل تحكي ميلاد السيد المسيح أو صلبه أو حكايات القديسين أو خروج آدم من الجنة أو قتل قابيل هابيل وفي عصر النهضة رجع الاوربيون عامة الى مسرحيات اليونانيين واللاتينيين في الموضوعات والافكار والنواحي الفنية جميعا . وعن حركة النقد العامة فى عصر النهضة نشأت القواعد الكلاسيكية مجملة في مؤلفات الايطاليين الذين شرحوا كتاب فن الشعر لارسطو ، وقد حاكى الكلاسيكيون الاوربيون جميعا مسرحيات الادب اليونانى والرومانى . ولكن من خلال نقد ارسطو مع تأويله بما يتفق وقواعد العقلية الكلاسيكية ومع اضفاء الطابع الارستقراطي المحافظ على المسرحيات بما يتفق وروح عصرهم ... وفى الكلاسيكية قضى على الجوقة نهائيا المسماة (بالكورس) .

وقامت الرومانتيكية على انقاض الكلاسيكية في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر . وقد خالفت الكلاسيكية في كثير من القواعد الفنية الخاصة بالمسرحية ، فلم تتقيد بضرورة توافر خمسة فصول لكل مسرحية وقضت على وحدة الزمان والمكان من الوحدات الثلاثة التي راعاها الكلاسيكيون .

وحرص الرومانتيكيون كذلك على عرض الاحداث على المسرح بدلا من حكاية كثير منها كما كان عند الكلاسيكيين . ولم يراعوا الفصل بين الاجناس المسرحية كما كان يفعل الكلاسيكيون بل خلطوا المأساة بالملهاة ليؤلفو (الدراما) الرومانتيكية . والى جانب هذه النواحي الفنية

العامة تغير موضوع المسرحيات ومضمونها ، فصارت شخصياتها شعبية وقضاياها اجتماعية أو نفسية انسانية عامة . بعد ان كانت المأساة مقصورة على الابطال الالهيين فى المسرح اليوناني وعلى النبلاء والارستقراطيين في الكلاسيكية . وصارت هذه الاعتبارات الفنية والاجتماعية عامة فى الاداب الاوربية منذ الرومانتيكيين . وبعد الرومانتيكيين تغير طابع المسرحيات الفني والاجتماعي تبعا للمذاهب التي تلت الرومانتيكية من واقعية ورمزية ووجودية وواقعية واشتراكية .

المسرحية فى أدبنا العربي

لم يعرف الادب العربي القديم المسرحيات ولا فن التمثيل كما هو في العصر الحديث أو قريب منه . اذ ظل محصورا فى نطاق الشعر الغنائي وأدب الرسائل والخطب . وعلى الرغم من معرفة العرب آثار اليونان الفكرية وعلى الرغم من ترجمتهم ارسطو فانهم لم يحاولوا احتذاء اليونان فى التمثيل ولا ترجمة شيء من مسرحياتهم .

حقا لقد وجد فى الادب العربي عنصر حوار اتخذ عمادا لحكايات قصصية . وأظهر ما يكون ذلك فى فن المقامة ، ولكنه لم يقم أساسا لفن تمثيلي ، بل ان النقد العربي القديم لم يعن بهذا الجنس الادبي لانصرافه الى الاهتمام بالشعر الغنائي وما يتصل به .

وقد وجدت فى الادب الشعبي العربي عناصر تمثيل بدائية فيما يسمى « خيال الظل » الذى يعرف بمصر باسم البابات وفي تركيا والعراق باسم قره‌كوز وقد يكون لمثل تلك المناظر الشعبية أثر فى تهيئة الاذهان للاقبال على المسرحيات أو على دور الخيالة . وحقا كان لموضوعاتها طابع اجتماعي فى نقد العادات والتقاليد وفي روح السخرية والفكاهة على ما سادها من استهتار وفساد على رغم بساطتها وسذاجتها .

ومما لا شك فيه ان المسرحيات العربية وجدت فى نشأتها ونهضتها دعامة من مسرحيات الغرب • وكان السبق الاول فى ميدان المسرح العربي لسوريا الكبرى التي كانت تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين فى حوالي منتصف القرن التاسع عشر • وكان أول من بدأ المسرحيات العربية فيها هو مارون النقاش • وقد كانت ثقافته ايطالية فرنسية تركية الى جانب ثقافته العربية • وقد أخذ عن الايطاليين فن الاخراج • ولكنه اعتمد فى موضوع مسرحياته على الثقافة الفرنسية وفى عام ١٨٤٨ عرض فى بيته فى بيروت وبمساعدة آخرين من أهله ترجمة لمسرحية موليير التي عنوانها البخيل بعد أن أضفى عليها صبغة عربية في أسماء الاشخاص والاماكن • وجعل مناظرها غنائية تمثل على أنغام الموسيقى •

والمسرحية الثانية له هي ملهاة (أبو الحسن المغفل) وهي مأخوذة من الف ليلة وليلة • وهي أول مسرحية عربية أصيلة • والمسرحية الثالثة والاخيرة له هى ترجمة مسرحية تارتوف لموليير أيضا وقد صنع فى تعريبها ما صنع بمسرحية البخيل •

وفى الربع الاخير من القرن التاسع عشر أتت الى مصر جماعة تمثيل سورى على رأسها سليم النقاش ابن أخ مارون النقاش ، ومن هذه الجماعة أديب اسحاق ويوسف الخياط وقد قدم هؤلاء مسرحيات فى القاهرة أو الاسكندرية أكثرها مترجم عن الفرنسية الكلاسيكية مثل مسرحية اندرماك وفيدر للشاعر الفرنسي راسين ومسرحية هوراس للشاعر كورني ومسرحية زنوبيا للشاعر الفرنسي دونياك • ومسرحية ابنة النعمان والاكاسرة ليوسف الحائك السوري • واستمرت المسرحيات مع اضفاء الطابع الغنائي عليها ومع تغيير أسمائها بما يتفق والذوق العربي • وظلت الحال كذلك حتى ظهرت مسرحية مصرع كيلوباترا لشوقي عام ١٩٢٧ فكانت بدء المسرح الصحيح

فى لغتها الفصيحة وفى كثير من الجوانب الفنية التي توافرت فيها بالقياس الى ما سبقها من مسرحيات عربية • ومسرحية مجنون ليلى لشوقي أيضا وكذلك مسرحياته الاخرى • ومسرحية أهل الكهف ومسرحيـة نهـر الجنـون لتوفيق الحكيم ومسرحية حفلة شـاي لمحمود تيمور ، ومسرحية مفـرق الطرق وهي مسرحية رمزية لبشر فارس •

الفصل الخامس

الشعر

من مبادىء مقتضيات الامانة العلمية ان الانسان اذا حاول اتقان عمله وأراد خدمة المعرفة عليه قبل كل شيء أن يتعرف الى النتائج التي توصل اليها من سبقه الى معرفة ما أراد لذلك رأيت ان أستعرض آراء الذين سبقوني في البحث عن معنى الشعر من القدماء والمحدثين عسى أن ندرك الغاية التي استهدفناها فى هذا الفصل .

سأل بعض هواة الشعر أعرابيا عن الشعر فقال له :

« ان الشعر شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على السنتنا »

من تعريف الاعرابي للشعر نرى أنه هو هذا الكلام الذى تمتلي به نفس الشاعر حتى يضيق به صدره وينطلق به لسانه بداهة شاء ذلك أم لم يشأ دون تعمل وتكلف تلبية لداع قوى من دواعي الانفعال ايجابا وسلبا .

وقال عنه أهل زماننا هذا :

« الشعر مرآة من الشعور تنعكس فيها صورة الطبيعة بواسطة الالفاظ انعكاسا يؤثر فى النفوس انقباضا وانبساطا .

حقا ان الشعر مرآة من الشعور تنعكس فيها صورة الطبيعة لان مبدعه وهو الشاعر العبقرى لا يستطيع أن يمالىء الناس اذا كانوا على خطأ ولا يستطيع أن يغمط الحق ولو كان سيف الباطل مصلتا فوق رأسه اذ كيف يزيغ عن الحق ويركن الى الباطل وهو أجمل مظهر لعظمة الطبيعة.

لعمرك ان الحر لا يتقيد الا فليقل ما شاء في المفند

اذا انا قصدت القصيد فليس لي به غير تبيان الحقيقة مقصد
تعودت تصريحي بكل حقيقة وللمرء من دنياه ما يتعود
اذا رمت نصحا جئت بالنصح واضحا
وما كان من شأني الكلام المعقد

هكذا يرى معروف الرصافي ان الشعراء الاحرار ليس لهم في دنياهم غير التعبير عن حقائقها •

الشعر عند العرب

الشعر عند العرب مصدر الهام ومناط حكمة ودليل المعية وتاريخ امة • يمتاز في تأليفه بألفاظ موحية ووزن موسيقي ونغم جميل •

ثم هو ديوان علومهم وسجل مآثرهم ومجلى عقولهم ومرتع عواطفهم• فمن لم يعرف شعر العرب جهل قدرهم وفاته الشيء الكثير من معرفة طراز حياتهم • لذلك كله كانت القبيلة العربية اذا نبغ فيها شاعر أتتها القبائل مهنئة وأتتها النساء يلعبن بالمزاهر • وشرع الناس يتباشرون بالخيرات ويتبادلون بالمسرات • لان الشاعر يحمي أعراضهم ويثير نخوتهم ويخلد مآثرهم ويحدوهم نحو المكارم والمحامد وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج بسبب ان الغلام والشاعر والفرس قوة للعشيرة تدفع عنهم الاعداء وتجلب لهم الاصدقاء ثم هم اداة للفخر والنصر والاعتزاز •

قال ابن رشيق في العمدة : (كان الكلام كله منثورا فأحتاجت العرب الى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الانجاد وسمحائها الاجواد لتهز نفوسها الى الكرم وتدل أبناءها الى حسن الشيم فتوهموا أعاريض فعملوها موازين للكلام • فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لانهم شعروا به وفطنوا اليه من تلقاء أنفسهم •

وهكذا مارس العرب الشعر منذ فجر تاريخهم الذى أدركوا فيه حقائق الحياة حتى شغفوا به وعكفوا عليه فعرفوا سحره وتأثيره ولمسوا فوائده ومنافعه واتقنوا اصوله وقواعده وجرى عليه شعراء العربية فى مختلف عصورهم الادبية .

ومما لا ريب فيه ان من أبرز صفات الشعر العربي الاصيل أن يكون له بحر وقافية يلتزمان فى جميع القصيدة فضلا عن التزام الشاعر بوحدة البيت وانسجامه مع أبيات القصيدة ثم لابد من جريانها على قواعد اللغة العربية نحوا وصرفا وبلاغة .

جاء في الصفحة السابعة عشرة من كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر المولود فى طليعة النصف الثاني من القرن الثالث والمتوفى سنة ٣١٠هـ .

« ان الشعر لفظ موزون مقفى يدل على معنى » .

وجاء فى كتاب عيار الشعر لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوى المتوفى فى نصف القرن الرابع من الهجرة قال حين تحدث عن الشعر وأدواته : (الشعر كلام منظوم بائن عن المنثور) وله أدوات يجب اعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه . فمن تعصت عليه اداة من ادواته لم يكمل له ما يتكلفه منه وبان الخلل فيما ينظم ولحقته العيوب من كل جهة . فمنها التوسع فى علم اللغة والبراعة فى فهم الاعراب والوقوف على مذاهب العرب فى تأسيس الشعر والتصرف فى معانيه فى كل فن قالته العرب فيه ... الى أن يقول ، حتى يكون كالسبيكة المفرغة والوشي المنمنم والعقد النظيم ، وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه وتكون قواعد للبناء يتركب عليها ويعلو فوقها فيكون ما قبلها مسوقا اليها ولا تكون مسوقة اليه فتقلق فى مواضعها ولا توافق ما يتصل بها .

وهذا صاحب كتاب البديع فى نقد الشعر اسامة بن منقذ المولود فى

بداية النصف الاول من القرن الخامس للهجرة جمع فى كتابه من شعر العرب ما جمع فلم نجد فيما جمعه شعراغير موزون ولا خاليا من قافية.

ذكر ابن خلدون وهو من العلماء الذين يعتد بآرائهم قال فى مقدمته : ان الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والاوصاف المفصل باجزاء متفقة فى الوزن والروي مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده . الجاري على أساليب العرب المعروفة .

هؤلاء علماء كبار تباعدت ديارهم وتباينت أزمانهم واختلفت دراساتهم . ذكرتهم لانهم يعلمون عن جوهر الشعر العربي الاصيل أكثر مما نعلمه بحكم تقدمهم علينا فى الزمن وقربهم من شعراء العرب الفصحاء استنطقتهم عن ماهيته وطبيعته فافصحوا جميعا . بان الشعر العربي الاصيل هو هذا الكلام الموزون المقفى قصدا المعبر عن المعاني الخالدة والاخيلة البديعة الذى عرفته العرب منذ عصر المعلقات حتى يومنا هذا باسلوبه الجميل والفاظه المختارة الملحنة .

من هنا نعلم ان الوزن والقافية ركنان أساسيان مقصودان فيه . فاذا خلا الكلام منهما وأراد الناس تسميته بالشعر كانت هذه التسمية مجازية وليست حقيقية . وقد يقال ما قيمة الشعر اذا كان كالمرآة تنعكس فيها صورة الطبيعة . واذا كان الامر كذلك فقد يكون وجود الشعر حينئذ عبثا لان فى صورة الطبيعة ما يغني عن الشعر . اني لاذكر ان الاستاذ توفيق الحكيم تعرض لمثل هذه المشكلة حين قال الشعر انعكاس الحياة على نفس الشاعر . ولكن الاستاذ الحكيم عقد مقارنة جميلة بين الشاعر والقمر وقال : الشاعر مثل القمر لا يعطينا الشمس فى أشعتها المحرقة ووهجها الذى يعمي البصر ولكنه يتلقى بعض أشعتها ويصفيها خلال نفسه ويعرضها علينا بعد ذلك ضوءا جميلا منظما مهذبا ترتاح له العين ويسبح فيه الذهن ويأنس له القلب .

من أجل ذلك كان الشعر غير دقيق في تصوير الحياة كما ان القمر غير دقيق في نقل أشعة الشمس الينا • كلاهما يعطينا شيئا ممزوجا بطبيعته مخلوطا بخصائصه • فالسؤال الذي يلقى على الشعر هو السؤال عينه الذي يطرح على القمر •

فلو سألنا القمر ما الذي تقصد من اعطائنا هذا الضوء المهذب الجميل ؟ فيجيب القمر :

لست أقصد بهذا الضوء أن اريكم واقع الاشياء فانكم ترون هذا الواقع مثلا واضحا في وهج النهار ولكن اريد ان ادثر عليكم هذه الاشياء في رداء جديد من نور وظلال لاوقظ فيكم روح الوجود وجوهر الكائنات واثير في أذهانكم عوالم اخرى أجمل من الواقع • وأجعلكم ترون في ضوئي شيئا آخر غير الذي ترونه في ضوء الشمس فتحيون بذلك حياتين فيزداد وجودكم بذلك اتساعا •

ولو سألنا الشعر ما الذي تقصد اليه من اعطائنا هذا اللون من الكلام الجميل ؟ فيجيب الشعر بمثل ذلك قائلا :

انا أيضا لست أقصد ان أريكم واقع الاشياء في حقيقتها المادية فهذا من شأن العلم وما يجري مجرى العلم من تاريخ وبحوث وتحقيق واحصاء وتسجيل ولكن اريد بضوئي أن أطرق أبواب تفكيركم ومشاعركم وانمي فيكم ملكة التخيل والتأمل ••• وأجعلكم أنا أيضا تحيون حياتين حياة الواقع الارضي وحياة الفكر العلوي • لا تنتظروا من عدستي ان تلتقط ظاهر الحياة فان الكاميرا والمصور والصحفي سيكون لهم غدا في ذلك فن دقيق رائع ولكن عدستي هي التي تلتقط وتسجل حياة القلب •

واخيرا يجيب القمر قائلا :

عدستي انا ايضا ليست مثل عدسة الشمس فهي لا تلقي اشعة كاشفة ولكنها تلقي اشعة موحية • اشعة الشمس تقول للناس ابصروا وفكروا •

وأشعتي تقول للناس اشعروا وفكروا • انتهى •

وعلى هذا يكون الشاعر بيننا اجمل واعظم مظهر من مظاهر الطبيعة يمدنا بشتى الاحاسيس ويوحي الينا بمختلف الافكار ويرسم لنا ابدع الصور ويجعلنا نحيا حياة جديدة غير الحياة التى نحياها في دنيا الواقع • ولعل قائلا آخر يقول :

وماذا نستفيد من هؤلاء الشعراء اذ كانوا ينتقلون بنا من حياتنا الواقعية ويجعلوننا نسبح فى أجواء الخيال الذى لا يغني من الحقيقة شيئا •

أقول : هكذا قضت سنة الله • قضت ان ينتزع الناس رقيهم من عالم الغيب والخيال وان يكون الابداع بادىء ذى بدء فكرة عائمة فى اخيلة الملهمين من الكتاب والشعراء ثم يتلقفها العقل فيصنع منها آياته ومعجزاته • وهل الطائرة الا نموذج صنع على غرار بساط سليمان وهل الغواصة الا نموذج صنع على شكل حوت النبي ذى النون • وهل القنابل بجميع انواعها الا نموذج للحجارة التي جيء بها من سجيل وهل التلفزيون الا صورة طبق الاصل للعمل الذى قام به ذلك الذى عنده علم من الكتاب وجاء بعرش الملكة بلقيس(١) •

ولقد اتفقت آراء النقاد المحدثين على ان الشعر لا بد ان تتوفر فيه ثلاثة اركان :

اولها ــ ان معانيه تنصب فى صور خيالية تثير خيال القارىء والسامع •

ثانيها ــ ان تتوفر فى الفاظه صفة التجانس بين اللفظ والمعنى بأن يكون اللفظ رقيقا في موضع الرقة عنيفا في موضع القوة والعنف وان لا يكون مبتذلا او كثير الشيوع لا يرتاح اليه الذوق الشعرى •

---

(١) كتاب الادب ومذاهب النقد فيه للمؤلف ص ٤٠ •

ثالثها ـ الوزن الشعري وهو خضوع الكلام في ترتيب مقاطعه الى نظام خاص .

ونحن نقفي على ما اجمله الدكتور طبانة فنقول ان الشعر في كل الاحوال التي مررنا بها انه كلام ملحن ممتع متميز عن غيره بالوزن والقافية ومشحون بمعان انسانية خالدة تتفتح بها العقول والقلوب ويرى الناس من خلالها سبل المجد والنبل والحرية . وانه يؤثر في النفس ويربي الذوق ويعبر عن روح الامة التي نشأ فيها .

أرى الشعر يحيي الناس والمجد بالذي
تبقيه أرواح له عطرات
وما المجد لولا الشعر الا معاهد
وما الناس الا أعظم نخرات

ضروب الشعر

تعددت آراء ادباء العرب في ضروب الشعر :

فمنهم من نظر اليه من الناحية التاريخية فقسمه الى شعر جاهلي وشعر اسلامي وشعر عباسي وشعر حديث . ومنهم من توسع في هذا التقسيم وقسمه الى سبعة أقسام شعر جاهلي وشعر عصر القرآن وشعر أموي والشعر العباسي الاول والشعر العباسي الثاني وشعر الفترة المظلمة والشعر المعاصر .

ومنهم من نظر اليه من الناحية الموضوعية فقال :

شعر المديح والهجاء والغزل والحماسة والوصف والشكوى والعتاب والاعتذار والحكمة وما الى ذلك من بواعث الانفعالات والعواطف .

وقد يقسمون الشعر الغزلي الى أقسام شعر غزلي عذري وهو ما صدر عن حب بريء صادق وعواطف جياشة متأججة . حب يملك قلب صاحبه فيطهره

من كل شهوة غير شرعية تلوث سمعة الحبيب وتدنس كرامة المحب .

واني لارضى مـن بثينـة بالـذي
لـو أبصره الـواشي لقـرت بلابلـه
بـلا وبـالا اسـتطيع وبالمنـى
وبالامـل المرجـو قـد خاب آملـه
وبالنظـرة العجلى وبالحـول تنقضي
أواخـره لا نلتقـي واوائلـه

هذا هو الشعر العذري يتدفق رقة وعفة وخيالا وجمالا .

وهناك شعر صناعي يتوخى الفنية ولا يهمه الصدق في الحب لـذلك لا تجد فيه حرارة المحب الصادق ولا شعور المحب الولهان . كل همه أن يصف مغامراته الغزلية ويظهر بمظهـر الـذين سـاهم الحسن واستعبدهم الجمـال :

من رسـولي الى الثـريا فاني ضقت ذرعا بهجرهـا والكتـاب
سـلبتني مجاجـة المسك عقلـي فسلوها مـاذا أحـل اغتصابي
وهي مكنونـة تحـير منهـا في اديم الخـدين مـاء الشباب
ابرزوهـا مثـل المهاة تهـادى بـين خمس كـواعب اتـراب
ثم قالـوا تحبهـا قلت بهـرا عدد القطـر والحصى والتـراب
أزهقت أم نوفـل اذ دعتهـا مهجتي ما لقـاتلي مـن متـاب
حين قالت لهـا أجيبي فقـالت من دعـاني قالت أبـو الخطـاب
فاستجابت عنـد الدعـاء كما نـ ـبى رجـال يرجون حسن الثواب

وقد قسم بعضهم الشعر الى ثلاثة أقسام متأثرا بتقسيم الغربيين له .

أولا ـ الشعر الغنائي :

وهو الشعر الذى ينبع من وجدان الشاعر مما تضطرب به نفسه مـن

دواعي الحب والبغض والفرح والحزن والغضب والاعجاب والشكوى والاعتذار وهو أصدق تعبير من كل شعر لانبثاقه من أعماق نفس صاحبه .

واحبس عنك النفس والنفس صبة ... بذكراك والممشى اليك قريب
مخافة ان يسعى الوشاة بظنة ... واحرسكم ان يستريب مريب
اما والذى يبلو السرائر كلها ... ويعلم ما تبدى به ويغيب
لقد كنت ممن تصطفي النفس خلة ... لها دون خلان الصفاء حجوب

وكقول تلك العربية الثكلى التي فقدت وليها وهي أحوج ما تكون اليه :

قد كنت لي جبلا الوذ بظله ... واليوم تسلمني لاجرد ضاحي
قد كنت ذات حمية ما عشت لي ... امشي البراز وكنت انت جناحي
واليوم أخضع للذليل واتقى ... ظلمي وأدفع ظالمي بالراح

ثانيا ـ الشعر القصصي أو الملحمي :

وهو هذا الذى يسجل فيه الشاعر تاريخ امته وأعز امانيها فى الحياة بشكل قصة طويلة تنتظم وقائعها الحربية ومفاخرها القومية اذ يتحدث الشاعر عن بطولاتها ومزاياها وتفوقها على سائر الامم فيصف شجاعتها ومحامدها كالصدق والكرم والوفاء والعفة والنجدة وحفظ الجوار . ويتحدث عن عاداتها وتقاليدها وما الى ذلك مما يتعلق باحوال الامة واصول الاجتماع باسلوب خارق لما جرت به الاعراف والعادات . من كل ما يبعث فى الامة الاعتزاز والزهو بالنفس . وقد تبلغ القصيدة الواحدة آلافاً من الابيات وجاء فى كتاب فن الشعر الملحمي (٢) انه حكاية شعب في نضاله البطولى ، وفى تقدمه عبر الحياة المتطورة وانه تاريخ

---

(٢) صفحة ٨ منشورات دار الشرق الجديد .

لامجاده وسجل لوقائعه الكبرى ومآثره بين الشعوب • فهو يعنى بالانسان كجماعة لا كفرد ، ويهتم بالعمل الكلى على نقيض ما يفعل الشعر الغنائي•

ومن هذا النوع من الشعر ملحمة الالياذة • وهي منظومة واحدة نظمها هوميروس في حروب طروادة • وقال عنها معربها الاستاذ سليمان البستاني :

انها غنية بالعلوم حافلة بكل المعاني الحضرية وليس هذا الغني هو سبب خلودها وانما ذلك قائم على كون هوميروس نقر على اوتار الافئدة فاثارها ونفخ في (أَبْوُقِ) الارواح فاطارها ومزج الحقيقة بالخيال فتآلفا وتحالفا وسبر اعمال النفس في سذاجتها وتحرى الفطرة ببساطتها وهاج العواطف والمشاعر وتكلم بجلاء لا تشوبه مسحة التكلف فاوجز واسهب ومثل وفصل بحسب مقتضى الحال بكل عقيدة واخلاص •

وسبب تسميتها بالملحمة لانها تصف التحام القتال او ان هذه التسمية مأخوذة من لحم الامر بمعنى أحكمه او من الحم الشعر اذا حاكه ونسجه •

ومن الشعر القصصي (الانيادة) وهي ملحمة لاتينية نظمها الشاعر فرجيل أكبر شعراء الرومان قلد بها الياذة هوميروس اليونانية • وبطل الانيادة انياس أحد حلفاء الطرواد رحل فى جماعة من قومه يرتاد ارضا حتى بلغ قرطاجنة ثم ايطاليا حيث أكرمه الملك لاتينوس وزوجه ابنته ثم استخلفه على الملك • ومنه المهابهاراته وهي ملحمة هندية نظمها فياسة أحد كهان الهندوس باللسان السنسكريتي قبل الميلاد بقرون يصف بها الحروب التي نشبت بين بندهو وبني كرو وهي تبلغ مائتي ألف بيت •

ومنه الشاهنامه وهي ملحمة فارسية نظمها الحسن بن اسحاق الفردوسي المتوفي سنة ٤١١ هـ فى تاريخ الاكاسرة وأخبارهم وصف بها الحرب التي اشتعلت بين أهل ايران وأهل طوران وقد نقلها الى العربية نثرا الفتح بن علي

البنداري الاصبهاني وقدمها لخزانة أحد الملوك الايوبيين ولا تزال نسختها في احدى مكتبات اوربا وجاء في مقدمة الشاهنامة بقلم الاستاذ عبدالوهاب عزام ان الشاعر الدقيقي هو الذى بدأ بنظم الشاهنامة ومات قبل ان يتمها ثم أكملها الفردوسي ، وقيل غير ذلك •

ثالثا ــ الشعر التمثيلي :

الشعر التمثيلي ضرب من الشعر قائم على حوار بين عدة أشخاص يمثلون قصة واحدة واقعية او خيالية سواء أكانت حوادث تلك القصة قديمة أو حديثة •

وهذه القصة على العموم ترمي الى تحقيق غرض معين من أغراض الحياة • وقد يكون هذا الغرض سياسيا او اجتماعيا او حربيا أو غراميا أو غير ذلك من الاحداث العامة او الخاصة •

ان كل فرد من أفراد الهيأة التمثيلية يمثل جانبا من جوانب تلك القصة وهو ملزم بان يتقمص روح ذلك الشخص الذى يمثله بكامل حركاته وسكناته ومما يجري في نفسه من هواجس وعواطف تبعا لما يقتضيه الموقف •

فمنهم من يقوم بدور الشجاع البطل والقائد المحنك ومنهم من يقوم بدور الخائف الرعديد والحائر الذليل ومنهم من يقوم بدور الكريم المعطاء أو الجبس البخيل ومنهم من يمثل الجد والحزم والحكمة أو يمثل الهزل والغفلة والحماقة ومنهم من يقوم بدور المحب الذى أضناه الحب ونهكه الغرام ، وهكذا حتى تكتمل عناصر القصة بالشكل الذى أراده الشاعر لها •

ان هذا النوع من الشعر بحوادثه المتسلسلة وفصوله المتعددة وكثرة الاشخاص الممثلين لمضمون القصة حديث النشأة لم يكن لشعراء العرب سابق معرفة به وانما اقتبسوه من ادباء الغرب • وكان رائد الاقتباس أمير الشعراء أحمد شوقي فقد أعجبه هذا اللون من الشعر ايام دراسته في باريس فراعه

ان يكون الشعر العربي خاليا منه فعقد العزم على أن يملأ المسرح العربي. ويغنيه بفن عبقري عظيم فألف عدة روايات تمثيلية منها مجنون ليلى ومصرع كيلوباتره وقمبيز وعنترة وأميرة الاندلس وعلي بك الكبير والست هدى ... الخ .. وقد اعتبر الادباء عمله هذا اتماما لما نقص فى شعر العرب ومفخرة من مفاخرنا الادبية التى اضطلع بها شاعر العرب والاسلام ونهض باعبائها خير نهوض فجزاه الله خيرا .

جاء فى كتاب قواعد النقد الادبي تأليف لاسل ابر كرمبي صفحة ١٠١ : ان من أهم الفروق الواضحة بين شعر الملاحم والشعر التمثيلي ، ان الملحمة أكثر طولا من الشعر التمثيلي وليس فيها ما يستدعي التحديد بينما الرواية التمثيلية لابد ان تلقى كاملة فى تمثيلية واحدة تتم حوادثها فى أربع وعشرين ساعة على أكبر تقدير .

الشعر الطبقي

ولقد نظر بعض المتقدمين من علماء الشعر الى الناحية النقدية المتصلة بمضامين الشعر وأشكاله من حيث جودته ورداءتة وقوته وركاكته . فقسم الشعر وأصحاب الشعر الى طبقات كما فعل ابو عبدالله محمد بن سلام الجمحي البصري المتوفى سنة (٢٣٢) فى كتابه طبقات الشعراء الجاهلين والاسلامين اذ رتبهم على عشر طبقات كل طبقة تجمع أربعة من فحول الشعراء وجعل فى الطليعة الاولى امرأ القيس بن حجر ونابغة بني ذبيان زياد بن معاوية وزهير بن ابي سلمى والاعشى ميمون بن قيس .

ثم قال ان الذين قدموا امرأ القيس على غيره من الشعراء لا لسبب انه قال ما لم يقولوا ولكنه سبق العرب على أشياء ابتدعها فاستحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء منها استيقاف صحبه والبكاء فى الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ وتشبيهه النسا بالظباء والخيل بالعقبان وقيد الاوابد كما جاء فى معلقته .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وقوفا بها صحبي عليّ مطيهم يقولون لا تهلك أسىً وتجمل
وقد اغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الاوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وان كنت قد أزمعت هجري فأجملي
أغرك مني ان حبك قاتلي وانك مهما تأمري القلب يفعل
وما ذرفت عيناك الا لتضربي بسهميك فى اعشار قلب مقتل
تصد وتبدى عن أسيل وتتقي بناظرة من وحش وجرة مطفل
وتضحي فتيت المسك فوق فراشها نؤم الضحى لم تنتطق عن تفضل

وقال من احتج للنابغة بأنه كان أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتا ثم ان شعره ليس فيه تكلف • وسموه بالنابغة لنبوغه بالشعر بعد ما اكتهل واحتنك •

يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال أى شعرائكم يقول :

ولست بمستبق أخا لا تلمّه على شعث أى الرجال المهذب

قالوا النابغة ، قال هو أشعرهم •

حقا ان للنابغة ديباجة مشرقة وكلاما رقيقا خاليا من التكلف وحسبنا دليلا قصيدته التي يعتذر بها الى النعمان والتي منها :

أتاني أبيت اللعن انك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع
أتاك امرؤ مستبطن لي بغضة له من عدو مثل ذلك شافع
أتاك بقول هلهل النسج كاذب ولم يأت بالحق الذى هو ناصع
أتاك بقول لم أكن لاقوله ولو كبلت فى ساعدى الجوامع

* * *

أما الذين احتجوا لزهير بن أبي سلمى فقد رووا ان ابن عباس رضي الله عنه قال :

قال لي عمر أنشدني لاشعر شعرائكم قلت من هو يا أمير المؤمنين قال زهير وكان كذلك قال كان لا يعاضل[٣] بين الكلام ولا يتبع حوشيه ولا يمدح الرجل الا بما فيه •

وقال أهل النظر كان زهير أحكمهم شعرا وأبعدهم من سخف وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق وأشدهم مبالغة فى المدح •

* * *

وأما أصحاب الاعشى الذين يحتجون له فانهم يقولون عنه انه أكثرهم عروضا وأذهبهم فى فنون الشعر وأكثرهم طويلة جيدة وأكثرهم مدحا وهجاء ونظرا وصفة •

قيل لخلف من أشعر الناس قال ما ينتهي هذا الى واحد يجتمع عليه كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب الناس وأجمل الناس ، قيل له فأيهم أعجب اليك يا أبا محرز؟ قال الاعشى •

وقال عنه أبو عمرو بن العلاء ان مثل الاعشى مثل البازى يضرب كبير الطير وصغيره انه يصيد ما بين الكركي الى العندليب • وقال عبدالملك بن مروان لمؤدب ولده : أدبهم بشعر الاعشى فانه ـ قاتله الله ـ ما أصْلَبَ صخره وأعذب بحره • وهكذا كان الاعشى مجيدا فى جميع أغراض الشعر باسلوب محبب الى القلوب محبب الى السمع محبب الى الذوق كأنه عاش فى قصور الخلفاء •

ترضيك من دل ومن	حسن مخالطه غراره
بيضاء ضحوتها وصفر	اء العشية كالعراره
وسبتك حين تبسمت	بين الاريكة والستاره

---

(٣) المعاضلة تراكم الالفاظ بعضها مع بعض • وهناك معاضلة فى المعاني أيضا وهي استغلاقها وغموضها •
يمدح الرجل الا بما فيه •

بقوامها الحسن الذي جمع المدادة والجهاره
وبجيد مغزلة الى وجه تزينه النضاره
ومها يرف غروبه يشفي المتيم ذا الحراره
كذرى منور اقحوا ن قد تسامق في قراره
وغدائر سود على كفل تزينه الوثاره
وارتك كفافي الخضا ب ومعصما ملء السواره
واذا تنازعك الحديث ثنت وفي النفس ازوراره

ذكروا ان مروان بن أبي حفصةأتى حلقة يونس بن حبيب النحوى المتوفى سنة ١٨٢هـ وعمره نحو مائة سنة فقال : أصلحك الله اني أرى أقواما يقولون الشعر لان يكشف أحدهم عن سوأته ليمشى فى الطريق أحسن به من أن يظهر مثل ذلك • وقد قلت شعرا أعرضه عليك فان كان جيدا أظهرته وان كان رديئا سترته • وأنشده :

طرقتك زائرةٌ فحيِّ خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب الى الصبا فأمالها

وفي هذه القصيدة يقول يمدح المهدي أميرالمؤمنين ويعرّض بأعدائه •

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الانفال آخر آية بتراثهم فاردتمو ابطالها

يريد قوله تعالى : « والو الارحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله ان الله بكل شىء عليم » • قالوا : فقال له يونس : يا هذا اذهب فأظهر هذا الشعر فأنت والله أشعر من الاعشى يريد قصيدته (رحلت سمية غدوة اجمالها) • فقال له مروان سؤتني وسررتني • سررتني لارتضائك الشعر وسؤتني لتقديمك اياى على الاعشى وأنت تعلم مكانه • فقال له يونس ان

الاعشى قال :

فرميتُ غفلة عينه عن شاته — فأصبت حبة قلبها وطحالها

والطحال لا يدخل في شيء الا أفسده • وأنت لم تقل ذلك وهذا نقد رجل عالم بمواقع الالفاظ ، فان كلمة الطحال هنا بشعة ساقطة وهي أشبه بمن يريد ان يعظمك ويحلف بك فيقول وحق يافوخك مكان رأسك •

قال صاحب الموشح وهم يذكرون القلب والفؤاد والكبد عند ذكر الهوى والشوق والمحبة وما يجده المغرم في هذه الاعضاء من الحرارة والكرب •

وعلى هذا النمط من اسلوب البحث واصول النقد يسير ابن سلام في طبقات فحول الشعراء حتى اذا أتى الى صفحة ٣٢ من كتابه المطبوع على نسخة خطية أوربية فوجئنا بسقوط عنوان الطبقة الثانية ووجدنا الكلام ينتقل ويدور حول اسلام كعب بن زهير ومدحته للنبي صلى الله عليه وسلم وللمهاجرين رضي الله عنهم تلك المدحة المشهورة في قصيدته التي يقول فيها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول — متيم اثرها لم يفد مكبول

حتى ينتهي الى قوله :

وقال كل خليل كنت آمله — لا الفينك اني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم — فكل ما وعد الرحمن مقبول
كل ابن انثى وان طالت سلامته — يوما على آلة حدباء محمول
نبئت ان رسول الله أوعدني — والعفو عند رسول الله مأمول
ان الرسول لنور يستضاء به — مهند من سيوف الله مسلول

فحينئذ كساه النبي صلى الله عليه وسلم بردة ثم اشتراها معاوية من آل كعب بن زهير بمال كثير • وكان الخلفاء يلبسونها في العيدين • ثم ينتقل

الى البحث عن الحطيئة فيصفه بأنه متين الشعر شرود القافية وانه كان راوية لزهير وآل زهير ثم يتحدث عنه انه قال لكعب قد علمت روايتي شعركم أهل البيت وانقطاعي اليكم وقد ذهب الفحول غيري وغيرك فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك وتضعني موضعا فان الناس لاشعاركم أروى واليها أسرع فقال كعب :

فمن للقوافي شأنها من يحوكها ... اذا ما ثوى كعب وفوز جرول
كفيتك لا تلقى من الناس واحدا ... تنخل منها مثل ما يتنخل
يثقفها حتى تلين متونها ... فيقصر عنها كل ما يتمثل

وبعد كلام ليس ذا قيمة كبيرة يقص قصة الحطيئة مع الزبرقان ومجملها ان الزبرقان استعدى عمر بن الخطاب على الحطيئة لهجوه له فأقدمه عمر وقال للزبرقان ماذا قال لك فقال : قال لي :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي

فقال عمر لحسان : ما تقول ؟ اهجاه ؟ وعمر يعلم من ذلك ما يعلمه حسان ولكنه أراد القاء الحجة على الحطيئة اذ ان كلمة الطاعم الكاسي معناها المطعوم المكسي بدلالة الحال الناشئة من امتهان الحطيئة للزبرقان . هذا من جهة . ومن جهة اخرى ان الرجل العظيم لا يوصف بترك المكارم ولا يوصف بالقعود في الدار لان تلك صفات العاجز الضعيف . لذلك قال حسان ان الحطيئة ذرق عليه . وبناء على هذه الشهادة الصادرة من حكم مختص ألقاه عمر في حفرة اتخذها محبسا ولما ضاقت الحال بالحطيئة قال أبياتا في حق عمر وهذه هي :

ماذا تقول لافراخ بذي مرخ ... حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله يا عمر
ما آثروك بها اذ قدموك لها ... لكن لانفسهم كانت بك الأثر

أنت الامين الذى من بعد صاحبه   القي اليك مقاليد النهى البشر

وهكذا مضى ابن سلام يختار لكل طبقة جماعة من الشعراء حتى استوفى الطبقات العشر وكان يبحث عنهم بحثا يتردد بين التاريخ والنقد . لذا رأيت الاكتفاء بما ذكرته من كتاب الطبقات فهو يغني عن الاسترسال فيما لا طائل تحته . هذا ويمكن الرجوع الى الكتاب نفسه .

موسيقى الشعر

الموسيقى هي تلك الالحان العذبة المنبعثة عن الالآت الوترية والهوائية وغيرها من آلات الانس والطرب .

وأما موسيقى الشعر فقد يراد بها ذلك الانسجام التام بين المعاني والالفاظ وذلك الرنين المستحدث من توافق القوافي والاوزان مما يرقق الحس ويلطف النفس بحيث اذا قرأت الشعر أو سمعته تشعر بأنك فى نعيم من اللذة أو فى جحيم من الالم .

وما سبب التزام الشعراء بالتصريع والقافية والروى فى الشعر الا لاستحداث التقطيع الصوتي فى كل بيت من الشعر .

كقول حطان بن المعلى :

انزلني الدهر على حكمه   من شامخ عال الى خفض
وغالني الدهر بوفر الغنى   فليس لي مال سوى عرضى
أبكاني الدهر ويا ربما   أضحكن الدهر بما يرضى
لولا بنيات كزغب القطا   رددن من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع   في الارض ذات الطول والعرض
وانما أولادنا بيننا   أكبادنا تمشي على الارض
لو هبت الريح على بعضهم   لامتنعت عيني عن الغمض

وكقول أبي نواس في قصيدته المشهورة :

حامل الهوى تعب ... يستخفه الطرب
ان بكى فحق له ... ليس ما به لعب
كلما انقضى سبب ... منك عاد لي سبب
تعجبين من سقمي ... صحتي هي العجب
تضحكين لاهية ... والمحب ينتحب

ذكرت قطعتين شعريتين اختلفتا وزنا وقافية ورويا لتعلم اختلاف القيم الصوتية وذبذبتها الموسيقية • ولتحس ما تفعله موسيقى الشعر في اثارة العواطف وما تبعثه فى الابدان من حركات وسكنات • وما الرقص بأنواعه المختلفة قديما وحديثا الا مظهر من مظاهر الانفعال المادى والمعنوى •

يقول الاستاذ لامبورن فى أسباب تأثير موسيقى الشعر فى كتابه اسس النقد ان هذه الموسيقى يشخصها جانبان مهمان وهما اختيار الكلمات وترتيبها من جهة ثم المشاكلة بين أصوات هذه الكلمات والمعاني التي تدل عليها من جهة اخرى حتى تحدث هذا المظهر العجيب • يقول بعض الادباء العباسيين : ان المعنى اذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا ومنحه المتكلم قولا متعشقا صار فى قلبك أحلى ولصدرك أملى[٤] •

أوزان الشعر وقوافيه

أما أوزان الشعر العربي فهي تلك البحور الستة عشر التي تنبه لها أحد عباقرة العرب الخليل بن أحمد الفراهيدي فى القرن الثاني للهجرة• استقراها من شعرهم ووضعها فى الحان وترانيم سماها بحور الشعر وجعل

---

(٤) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٥٣ للدكتور شوقى ضيف •

للشعر ألفاظ وتراكيب تختلف عن الفاظ وتراكيب سائر الكلام وان كانت الحروف واحدة والاشتقاق واحدا أيضا •

وسبب هذا الاختلاف ناشيء من أن الشعراء الحقيقيين يهمهم قبل كل شيء أن يكون كلامهم ترجمانا عما فى نفوسهم من صدق الشعور وعمق التفكير وصدق الاحساس وحرارة العاطفة ، وهذه الاحوال مجتمعة هي التي تلهم الشعراء انماطا من المفردات والتراكيب التي لم تكن لتتنزل على غيرهم من الناس • لذلك قال الذين يقرأون الشعر أو يسمعونه ان لغة الشعر تختلف عن لغة غيره من الكلام •

يضاف الى ذلك ان موضوعات الشعر موضوعات عاطفية تنبع من القلب وتفيض من الشعور والمعاني التي يكون هذا منبعها لا معدى لها أن تخترع لنفسها ضربا من الالفاظ التي تناسبها وتمثلها وتكون خير رسول لها • وعلى ذلك نستطيع أن نقول أن لغة الشعر هي لغة القلب والخيال ، لغة الحب والجمال ، فمن أهم صفات الشعر أن يمتاز بالفاظه وتراكيبه ويفوق تعبيره كل تعبير شعري • فهو اللغة التي نعبر بها عن جمال الاشياء البديعة والمعاني الاخاذة ••• ثم ان هناك شيئا آخر يضفي على لغة الشعر لونا من الجمال الساحر يهز كياننا هزا وينقلنا من واقعنا الى واقع جميل ويجعلنا فى غمرة من الاحلام العذبة • ذلك هو العامل الموسيقي المتمثل فى القيم الصوتية التي تلهب العواطف والمشاعر وتبعث فى أسماع القراء والسامعين سيالا من الانغام والالحان تجعلهم يتلهفون للمزيد مما يقرأون ويسمعون•

ومما يصح التمثيل به على تبيان هذا الغرض قصيدة لشاعر كبير اصيب فجأة بمرض فى عقله على اثر حادث سياسى جعل سلواه الوحيدة قرض الشعر ، يقوله متى ثاب اليه رشده فيأتي فيه بالبديع المطرب • وفي قصيدته التالية ضرب من الايقاع الموسيقي الذى يجعل للشعر نمطا خاصا يُميزه على غيره من انماط الكلام قال الشاعر :

لكل بحر وزنه وتفاعيله وهى متحركات وسكنات موزعات فى أسباب وأوتاد وفواصل • وقال : ان السبب سببان خفيف وثقيل • فالسبب الخفيف حرفان متحرك فساكن مثل (من وعن) وما أشبههما والسبب الثقيل حرفان متحركان مثل (بِكَ ، ولكَ) وما أشبههما • والوتد وتدان مجموع ومفروق فالوتد المجموع ثلاثة أحرف متحركان فساكن مثل (على ، والى) وما أشبههما • والوتد المفروق أحرف متحركان يتوسطهما ساكن مثل (أين ، وكيف) وما أشبههما وانما قيل للسبب سبب لانه مضطرب فيثبت مرة ويسقط اخرى • وقيل للوتد وتد لانه يثبت فلا يسقط • والفاصلة قسمان صغرى وكبرى • فالصغرى ثلاثة أحرف متحركات يليها ساكن مثل (سكنوا ، مدنن) والكبرى أربعة أحرف متحركات يليها ساكن مثل (قتلهم ملكنا) وجمعوا الاسباب والاوتاد والفواصل فى قولهم (لم أر على ظهر جبلن سمكتن) •

وأما التفاعيل فهي تلك الاجزاء التي تتولد من ائتلاف الاسباب والاوتاد والفواصل ••• وعددها عشرة :

فعولن مفاعيلن مفاعلتن فاع لاتن فاعلن فاعلاتن مستفعلن متفاعلن مفعولات مستفع لن •

ومما يدعو الى الاعجاب بنباهة شعراء العرب انهم فطنوا الى ناحية فنية دقيقة تدل على براعتهم واصالة طبعهم في هذا الفن ولطف شعورهم فيه • اذ جعلوا لكل غرض من أغراض الشعر وزنا ليكون التناسب تاما بين المعنى والنغم فكانوا يختارون لكل معنى لحنا ولكل موضوع رنينا يناسبه لان تأثير الالحان على النفس أشد وعلوقها بالقلب أسرع •

* * *

دعاني أجرع الغمّا فجفني بالأسى نمّا
وخلاني اصيحا بي وسهم الغدر قد أصمى
فلم أبصر أخا يرجى ولا خالا ولا عمّا
وراح الحظ عن شكوا ى في اذن له صمّا
وجد الدهر في قهرى يحث الهمة الشمّا
رأيت الناس تخشاني كأني وابيء الحمّى
فلا أدري أحيا بـ ـتّ أم ميتا قضى ظلما
يمينا حار عقلي في حياة تشبه الحلما
ارى فيها من الاضدا د ما يستوقف الفهما
فبى كالضرب آلاما وما من ضارب هما
وكالنيران تشوى الرو ح ثم اللحم والعظما
اشك اليوم بي حتى وجودى خلته وهما
مقود غير مختار كأني آلة صما
فذا حظي من الدنيا فدعني لا تزد غما[٥]

جاء في كتاب النقد الادبي لكرمبى حين تكلم عن لغة الشعر فقال :

« ان لغة الشعر هي اللغة التي يستطيع بها المؤلف ان يوصل تجاربه الخاصة بمنتهى القوة النافذة وبغاية الدقة والوضوح مع تصوير دقيق للتفاصيل الخفية ، فهي اللغة فى أسمى منازلها وفي كامل قوتها • وهي اللغة التي يتم فيها الانسجام فى صحة التعبير وجمال التصوير وقوة الايحاء والتوصيل »[٦] •

لعمرك ان الشعر صمصام حكمة وان النهى معدودة من قيونه
وللشعر عين لو نظرت بنورها الى الغيب لاستشففت ما فى بطونه

---

(٥) كتاب مختارات الزهور ص ١٤٢ والقصيدة للشاعر تامربك ملاط •
(٦) استاذ الادب الانجليزى بجامعة لندن ص ٤٥ • باختصار •

الفصل السادس

النثر الفني

النثر الفني كلام فصيح الالفاظ بليغ التراكيب حسن البيان والاساليب. صادر عن عقل وروية عليه مدار دواوين الدولة في رسائلها وعهودها ووصاياها وتعليقاتها فيه تتجلى الحياة العقلية للامة وفيه ترتفع مكانتها بين الامم .

وهو كالشعر يثير المشاعر ويحرك العواطف ويدعو الى الاعجاب. غير انه لا يلحقه وزن ولا يتعلق بتقفية . وبالنظر لما انيط به من مهام فقد رجحه بعضهم على الشعر ومنهم القلقشندي فانه يرى ان النثر الفني أرفع درجة وأعلى رتبة وأشرف مقاما وأحسن نظاما . ومنهم الثعالبي في كتاب نثر النظم فانه يبنى حكمه على ان طبقات الكتاب كانت ولا تزال مرتفعة عن طبقات الشعراء ، فيقول ان الكتاب وهم السنة الملوك انما يتراسلون في جباية خراج او سد ثغر او عمارة بلاد او اصلاح فساد او تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو دعاء الى فتنه أو نهي عن فرقة او تهنئة بعطية أو تعزية في رزية أو ما شاكلها من جلائل الخطوب ومعاظم الشؤون التي يحتاجون فيها الى ان يكونوا ذوى آداب كثيرة ومعارف مفتنة .

وقد نقد هذا الرأى الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني في الجزء الاول ص ١٩ قال ان كلام الثعالبي حق من جانب وخطأ من جانب آخر ، هو حق من حيث تنويهه بفضل النثر في المصالح المعاشية والسياسية

---

(١) النثر الفني للدكتور زكي مبارك ص ٢٧ ج ١ .

والادارية لان النثر هو الاداة الصالحة للتفاهم فى شؤون الحرب والسلم والتجارة والصناعة والزراعة وما الى ذلك من شؤون العمران ولكنه خطأ من حيث يعطى للنثر جوانب هي أقرب للشعر منها الى النثر ، فالدعاء الى الالفة والنهي عن الفرقة والتهاني بالعطايا والتعازى في الرزايا من الموضوعات التي كان الشعر فيها اصلح اداة من النثر واقدر على تسجيل العواطف والاحاسيس وامتلاك النفوس والقلوب •

ان اجراء التفاضل بين الشعر والنثر اجراء لا أجد له مبررا ، اذ ان لكل واحد منهما وجهة تختلف عن الاخرى فلا داعي للمقارنة بينهما ولكل مجاله وحوافزه ودواعيه• فالشعر منبعه القلب والوجدان مع البداهة• والنثر مصدره العقل والروية مع التأمل • والشعر كمال اللغة البشرية وفيض العبقرية (انه انجذاب ابدى لمعانقة الكون باسره هو ابتسامة الطفل ودمعة الثكلى وتورد وجنة العذراء والرعشة امام سلطان الحب والجمال ، هو صرخة البائس وعُجب القوى ونجدة الضعيف بينما النثر اداة للتفاهم فى اسلوب خاص وأداة للروابط العامة بين الناس انه يسوي العلاقات الدولية ويبحث فى الشؤون العلمية والمعاشية به يترافع المتخاصمون وبه يقضي الحكام العادلون •

وعلى العموم ان الشعر بفضل الحانه وموسيقاه ومعانيه وأخيلته أقرب الى النفس وأعلق بالذاكرة واسير على الالسنة انه سلوة الحزين ورسول المحبين ولامر ما قال نبينا العظيم صلى الله عليه وسلم لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين •

هذا أبو السائب المخزومي على شرفه وجلالة قدره وفضله فى الدين والعلم يقول أما والله لو كان الشعر محرما لوردنا الرحبة[٢] كل يوم مرارا •

---

(٢) الرحبة هى الموضع الذى كان تقام فيه الحدود •

يريد انه لا يستطيع الصبر عنه فيحدّ كل يوم مرارا ولا يتركه •

جاء في كتاب العمدة لابن رشيق ان كلام العرب نوعان منظوم ومنثور ولكل منهما ثلاث طبقات جيدة ومتوسطة ورديئة • واذا اتفقت الطبقتان في القدرة وتساوتا في القيمة ولم يكن لاحدهما فضل على الاخرى كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية لان كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة • فالدرّ وبه يُشبّه اللفظ اذا كان منثورا لم يؤمن عليه ولم ينتفع به في الباب الذي له كُسِب ومن أجله انتُخِب • وكذلك اللفظ اذا كان منثورا تبدد في الاسماع • فاذا أخذه سِلْكُ الوزن وعِقد القافية تألفت أشتاته وازدوجت فرائده •

وقد ينقسم النثر الفني الى قسمين :

الاول ـ النثر الفني الكتابي وعماده القلم ومن أعلى نماذجه قديما النثر القرآني ورسائل النبي صلى الله عليه وسلم ورسائل البلغاء من الخلفاء والولاة في ادارة الملك وتوطيد أركان السلطان ومنها الرسائل الدينية والاخوانية وما جرى مجراها من رسائل الشوق والعتاب والشكوى والوصف والاعتذار •

وأمّا النثر الفني الحديث فانه يتمثل في القصة التي أصبحت ميدانا واسعا ومجالا خصبا لتصوير الحياة في مختلف وجوهها في الاجتماع والسياسة والحرب وفي كثير مما يصطرع في النفوس من دواعي الحب والبغض واليأس والرجاء ونوازع القلب والوجدان •

الثاني ـ النثر الفني الخطابي وعماده اللسان ومن نماذجه قديما وحديثا خطب النبي صلى الله عليه وسلم وخطب الصحابة من الخلفاء والولاة والقادة والائمة والزعماء سواء كانوا في ميادين الحروب أم في قاعات المؤتمرات في شتى الموضوعات •

ومن النثر الخطابي الحديث القصص المسرحي فان له من التأثير في

العصر الحاضر ما يجعله يفوق كل أنواع القصص لما يمتزج فيه من حركات الممثلين وسكناتهم وما يرافق ذلك من أضواء وألوان ورسوم فى رحبة المسرح وفى لباس الممثل الخطيب هذا بالاضافة الى ما يؤديه من أسباب المعرفة للذين حرموا من نعمة القراءة والكتابة •

والنثر الفني بقسميه الكتابي والخطابي يقسم الى نثر مرسل ونثر مسجوع اما المرسل فهو كما ذكرته فى صدر هذا البحث كلام بليغ معتمد على العقل والمنطق ووضوح الفكرة وتسلسل العبارة وسطوع الحجة وقوة التأثير دون أن يتقصد تعادل أجزاء الكلام واتفاق الفواصل فى حرف واحد اللهم الا اذا جاء ذلك على رسله وبعفو الخاطر • كما فى هاتين الرسالتين المتبادلتين بين الحجاج وعبدالملك •

كتب الحجاج الى عبدالملك فى شأن عروة بن الزبير وكان عروة عاملا على اليمن ولجأ الى عبدالملك •

بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد فان لوذان المعترضين بك وحلول الجانحين الى المكث بساحتك واستلانتهم دمث أخلاقك وسعة عفوك كالعارض المبرق لاعدائه لا يعدم له شائما رجاء استمالة عفوك • واذا أُدني الناس بالصفح عن الجرائم كان ذلك تمرينا لهم على اضاعة الحقوق مع كل ضال • والناس عبيد العصا هم على الشدة أشد استباقا منهم على اللين • ولنا قبل عروة بن الزبير مال من مال الله وفى استخراجه منه قطع لطمع غيره فليبعث به أمير المؤمنين ان رأى ذلك والسلام •

فكتب اليه عبدالملك :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فان أمير المؤمنين رآك مع ثقته بنصيحتك خابطا فى السياسة

خبط عشواء الليل فان رأيك الذى يسول لك ان الناس عبيد العصا هـو الذى أخرج رجالات العرب الى الوثوب عليك واذا احرجت العامة بعنف السياسة كانوا أوشك وثوبا عليك عند الفرصة ثم لا يلتفتون الى ضلال الداعي ولا هداه اذا رجوا بذلك ادراك الثأر منك . وقد وليت العراق قبلك ساسة وهم يومئذ أحمى أنوفا وأقرب من عمياء الجاهلية وكانوا عليهم أصلح منهم عليك . وللشدة واللين اهلون والافراط فى العفو أفضل من الافـراط فى العقوبة والسلام .

اما النثر المسجوع فهو :

ما توافقت فواصله فى الحرف الاخير .

كقوله تعالى « والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالافق الاعلى ثم دنا فتـدلى فكان قاب قوسـين أو أدنى فأوحي الى عبـده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى افتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذاً قسمة ضيزى » .

وكقوله صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة : أيهـا الناس افشـوا السلام واطعموا الطعام وَصِلوا الارحام وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام .

وكقوله فى بعض أدعيته : اللهم اني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يُسمع ونفس لا تشبع .

وكقول أديب فى وصف الاديب :

فحقيق على الاديب ان يخزن لسانه عن نطقه ولا يرسله فى غير حقه

وأن ينطق بعلم وينصت بحلم ولا يعجل فى الجواب ولا يهجم على الخطاب وان رأى أحدا هو أعلم منه نصت لاستماع الفائدة عنه وتحذر من الزلل والسقط وتحفظ من العيوب والغلط • ولم يتكلم فيما لا يعلم ولم يناظر فيما لا يفهم فانه ربما أخرجه ذلك الى الانقطاع والاضطراب وكان فيه نقصه عند ذوي الالباب •

والنثر المسجوع على أنواع :

منها أن تكون فواصله متساوية لا تزيد احداها على الاخرى ورويها واحد كقوله تعالى : « والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا » • وقوله « فاما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر » •

ومنها ما اتفقت فقراته وزنا واختلفت رويا كقول الامام علي رضي الله عنه :

أغنى الغنى العقل ، وأكبر الفقر الحمق ، وأوحش الوحشة العُجب •

ومنها أن يكون كل فاصلتين أو أكثر على حرف واحد ويسمى المزدوج كقوله صلى الله عليه وسلم للانصار ، انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع • وكقول الجاحظ فى رسالة الى أحد أصحابه : ما ضاء لي نهار ولا دجا ليل مذ فارقتك الا وجدت الشوق اليك قد حز فى كبدي والاسف عليك قد أسقط فى يدي والنزاع نحوك قد خان جلدي فانا بين حشا خافقة ودمعة مهراقة ونفس قد ذبلت بما تكابد وذكرتك وانا على فراش الارتماض ممنوع من لذة الاغتماض •

ومنها ان تكون ألفاظ الجزئين المزدوجين مسجوعة فيكون الكلام سجعا فى سجع كقول أحدهم : حتى عاد تعريضك تصريحا وتمريضك تصحيحا فالتعريض والتمريض سجع والتصريح والتصحيح سجع آخر فهو

سجع في سجع • وقد يتجلى السجع بانواعه وألوانه وفصوله وفنونه في مقامات ابي القاسم بن عثمان الحريري البصري • وها انا أقتبس شيئاً من المقامة الدمياطية واحيل طالب المزيد الى كتاب المقامات نفسه •

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول انت جميع امرك •

اخبر الحارث بن همام قال ظعنت الى دمياط عـام هياط ومياط وانا يومئذ مرموق الرخاء موموق الاخاء اسحب مطـارف الثراء واجتلي معارف السراء فرافقت صحبا قد شـقوا عصا الشقاق وارتضعوا أفاويق الوفاق حتى لاحوا كأسنان المشط في الاستواء وكالنفس الواحـدة في التئام الاهواء ، وكنا مع ذلك نسير النجاء ولا نرحل الا كل هوجاء • واذا نزلنا منزلا او وردنا منهلا اختلسنا اللبث ولم نطل المكث فعنّ لنا اعمال الركاب في ليلة فتية الشباب غدا فيه الاهاب فاسرينا الى ان نضا الليل شبابه وسلّ الصبح خضابه فحين مللنا السُرى وملْنا الى الـكرى صادفنا ارضا مخضلة الربى معتلة الصبا فتخيرناها مناخا للعيش ومحطا للتعريس فلما حلها الخليط وهدأ بها الاطيط والغطيط سمعت صيتا من الرجـال يقول لسميره في الرحال ، كيف حكم سيرتك مع جيلك وجيرتك ؟ فقال ارعى الجار ولو جار وابذل الوصال لمن صال واحتمل الخليط ولو ابدى التخليط واود الحميم ولـو جرعني الحميم وافضل الشفيق عـلى الشقيق وافي للعشير وان لم يكافني بالعشير واستقل الجزيل للنزيل واغمر الزميل بالجميل وانزل سـميرى منزلة اميرى واحـل انيسي محل رئيسي واودع معـارفي عوارفي واولي مُـرافقي مرافقي والين مقالي للقالي واديم تسآلي عن السالي وأرضى من الوفاء باللقاء واقنع من الجزاء بأقل الاجزاء ولا اتظلم حين اظلم ولا انقم ولو لدغني الارقم •

فقال له صاحبه : ويك يا بني انما يضن بالضنين وينافس بالثمين لكن انا لا آتي غير المواتي ولا اسم العاتي بمراعاتي ولا اصافي من يأبى انصافي

ولا اواخي من يلغى الاواخي ولا امالي من يخيب آمالي ولا ابالي بمن صرم حبالي ولا اداري من جهل مقداري ولا اعطي زمامي من يخفر ذمامي ولا ابذل ودادي لاضدادي ولا ادع ايعادي للمعادي ولا اغرس الايادي في ارض الاعادي ولا اسم بمواساتي لمن يفرح بمسآتي ولا ارى التفاتي الى من يشمت بوفاتي ولا اخص بحبائي الا احبائي ولا استطب لدائي غير اودّائي ولا املك خُلتي من لا يسد خَلتي ولا اصفي نيتي لمن يتمنى منيتي ولا اخلص دعائي لمن لا يفعم وعائي ولا افرغ ثنائي على من يفرغ انائي • ومن حكم بأن ابذل وتخزن والين وتخشن واذوب وتجمد واذكو وتخمد لا والله بل تتوازن في المقال وزن المثقال وتتحاذى في الفعال حذو النعال حتى نأمن التغابن ونكفي التضاغن والا فلم اعلك وتعلني واقلك وتستقلني واجترح لك وتجرحني واسرح اليك وتسرحني وكيف يجتلب انصاف بضيم وانّى تشرق شمس مع غيم ومتى أصحب ود بعسف وأي حر رضي بخطة خسف ولله ابوك حيث يقول :

جزيت من اعلق بي وده ... جزاء من يبني علي اسه
وكِلتُ للخِل كما كال لي ... على وفاء الكيل أو بخسه
ولم أخسّره وشر الورى ... مَنْ يومه أخسر من أمسه
وكل من يطلب عندي جنى ... فماله الا جنى غرسه
لا أبتغي الغبن ولا انثني ... بصفقة المغبون في حسه
ولست بالموجب حقاً لمن ... لا يوجب الحق على نفسه
ورب مذاق الهوى خالني ... أصدُقُه الود على لبسه
وما درى من جهله انّني ... أقضي غريمي الدين من جنسه
فاهجرْ من استغباك هجر القلى ... وهبه كالملحود في رمسه
والبس لمن في وصله لُبسة ... لباس من يرغب عن انسه
ولا ترجّ الود ممن يرى ... انك محتاج الى فلسه

ان هذا النوع من النثر المسجوع الذي تضمنته المقامات البديعية والحريرية لم يكن مستساغا فى المجالات العامة وانما كان محصورا فى حدود ضيقة يقصد بها اظهار البراعة الفنية والمباهاة باتساع الثروة اللغوية ليس الا • ولذلك كان أكثر قصصه يدور حول موضوعات غير حيوية وليست ذات قيمة فى ميزان الاحداث الاجتماعية •

الفصل السابع

نماذج من النقد في العصر العباسي

سبق ان ذكرنا ان دراسة النماذج الادبية هي من صميم ابحاث النقد الادبي ، بل هي ثمرته . ذلك لان معرفة هاتيك النماذج تبصّر محبي فن الادب والبيان بمحاسن الكلام ومساوئه وتنمي فيهم ملكة النقد ، وتسدد خطاهم حين يكتبون وحين يشعرون ، ويجعلهم في مأمن من الاخطاء التي وقع فيها بعض الكتاب والشعراء في مختلف العصور .

وقد عرضنا في الجزء الاول من كتابنا هذا طائفة كبيرة من النماذج النقدية التي جرت وقائعها في العصرين الجاهلي والاسلامي .

لذلك كان لزاما علينا ان نفرد لها فصلا خاصا بها نضمنه نماذج اخرى من النقد الادبي جرت ابحاثها في العصر العباسي والعصور التي تليه ، عسى ان تبين الفروق الدالة على تطور الابحاث الادبية والنقدية والمدى الذي بلغه الادباء في مضمار النقد والادب .

روى الرواة ان بشّاراً سمع قول كُثيّر عزّة في لين أعضاء ليلاه .

وقد جعل الاعداء ينتقصوننا ... وتطمع فينا ألسن وعيون
الا انما ليلى عصا خيزرانة ... اذا غمَزوها بالاكف تلين

فنقده بشّار فقال : والله لو زعم انها عصا مخ او عصا زبدة لما كانت الاّ جافية خشنة ، بعد ان جعلها عصا . الا قال كما قلت .

ودعجاء المحاجر من معدّ ... كأنّ حديثها ثمر الجِنان
اذا قامت لمشيتها تثنت ... كأنّ عظامها من خيزران

ولقد نقد أبو العباس ابا تمام فى وصفه الحلم بالرِقّة حيث يقول :

رقيق حواشي الحلم لو أنّ حلمه   بكفيك ما ماريت فى انه بـرد

فانكره وقال : هذا الذى أضحك الناس منذ سمعوه الى هذا الـوقت ولم يزد على استنكاره هذا شيئا •

والخطأ فى هذا ظاهر • اذ لم يُسمَعْ عن شعراء الجاهلية والاسلام انهم وصفوا الحلم بالرقة • وانما سـمع عنهم انهم وصفوا الحلم بالعظمة والرجحان ، والثقل ، والرزانة ، كما قال النابغة :

وأعظـم احـلاماً وأكبـر سـيداً   وأفضـل مشفوعاً اليه وشافعا

وكما قال الاخطل :

شُمس العداوة حتى يُستقاد لهم   وأعظم الناس احلاماً اذا قَدَروا

وكما قال أبو ذؤيب :

وصـبر عـلى حـدث النائبـات   وحلـم رزيـن وقلب ذكـي

وكما قال الفرزدق :

أحلامنـا تـزن الجبـال رزانـة   وتَخالنـا جِنـاً اذا ما نجهـل

وقال أيضا :

انا لتـوزنُ بالجبـال حلومُنا   ويزيد جاهلُنا عـلى الجهـال

* * *

حدث أحمد بن خلاّد ، قال حدثني ابي قال : قلت لبشار يا أبا معاذ : انك لتجيء بالامر المهجِن • قال : وما ذاك قلت : انك تقول :

اذا مـا غضـبنا غضـبة مضريـة   هتكنا حجاب الشمس أو مطرت دما

اذا مـا أعـرنا سـيداً من قبيلـة   ذُرى منبـر صلّى علينـا وسـلّما

ثم تقول :

وربابةُ ربة البيت		تصب الخلّ في الزيت
لها عشر دجاجات		وديك حسن الصوت

فقال بشار : كل شيء في موضعه ، وربابة هذه جارية لي ، وانا لا آكل البيض من السوق ، فربابة هذه لها عشر دجاجات وديك فهي تجمع عليّ هذا البيض وتحضره لي ، فكان هذا من قولي لها أحبّ اليها وأحسن عندها من :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

* * *

قال ابن الاعرابي(١) : قلت لابى برزة الاعرابي أحد بني قيس بن ثعلبة : أيعجبك قول ابى العتاهية :

الا يا عتبة الساعهْ		أموت الساعة الساعهْ

فقال : لا والله ما يعجبني ، ولكن يعجبني قول الآخر :

جاء شقيق عارضاً رمحه		ان بني عمك فيهم رماح
هل أحدث الدهر لنا نكبة		أم هل رقت أمُ شقيق سلاح

أي نفثت عليه كلاماً من السحر ، حتى لا يعمل شيئاً يجرّ بلاءاً

* * *

ولقد نقد ابن الاعرابي اشعار المحدثين بوجه عام فقال : انما اشعار هؤلاء المحدَثين ـ مثل ابي نواس وغيره ـ مثل الريحان يشم يوما ويذوي فيرمَى به . واشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً .

* * *

نقد قدامة بن جعفر قول ابى نواس فى مدح محمد الامين :

---

(١) الموشح ص ٢٦٥ .

يا امــين الله عش أبـــداً　　　دم عـــلى الايـــام والزمـــن

من قصيدة نـذكر بعضها فى هذه المناسـبة لما فيها من صدق العاطفة وبراعة الفن وجمال الاسلوب .

يا كثـير النــوح فى الـدمن　　　لا عليهـا بـل عـلى الســكن
سُـنَّة العشـاق واحــدة　　　فــاذا أحببت فاســتكن
ظـن بي مـن قد كلِفت بـه　　　فهــو يجفـوني عـلى الظِنَن
رشـــأ لــولا ملاحتـــه　　　خلت الدنيــا مــن الفتــن
يا أمــين الله عش ابـــداً　　　دم عــلى الايــام والــزمن
انت تبقـى والفَنــاء لنــا　　　فـــاذا افنيتنـــا فكـــن
تضحـــك الدنيــا الى ملـك　　　قــام بالاحكـــام والسُنن
كيف تسخو النفس عنك وقـد　　　قمت بالغـالي مـن الثمـــن
سـنّ للنـاس النــدى فندوا　　　فكـأن البخــل لـم يكــن

قال قدامة : ان من عيوب المعاني ايقاعُ الممتنع فيها فى حال ما يجوز وقوعه ، ويمكن كونه ... والفرق بين الممتنع والمتناقض : ان المتناقض لا يكون ولا يمكن تصوره فى الوهم ... والممتنع لا يكون ولكن يمكـن تصورُه فى الوهمِ . ومما جاء فى الشعر وقد وضع الممتنع فيمـا يجـوز وقوعه قول ابى نواس .

يا أمــينَ الله عش ابـداً　　　دم على الايام والـزمن

فليس يخلو هذا الشاعر من ان يكون تفاءلَ لهذا الممدوح بقـوله (عش أبداً) امراً او دعاء ، وكلا الامرين مما لا يجوز ومستقبح ، ولعـلّ معترضاً يعترض هذا القول منا فى هذا الموضع ، فيقول : انه مناقضة لمـا استجزناه ورأيناه صوابا من الغلوّ ، ويجعل قول ابي نواس هذا غلوّاً فيلزمنا تجويز الغلو . ونحن نقول : ان هذا وما اشبهه ليس غلوّاً ولا افراطاً ، بل

خروجاً عن حد الممتنع الذى لا يجوز ان يقع ، لان الغلّو انما هو تجاوز فى نعت ما للشىء ان يكون عليه ، وليس خارجاً عن طباعه الى ما لا يجوز أن يقع له ، لان الذى يكون قلنا انه جائز مثل قول النمر بن تولب •

تَظلّ تحفر عنه ان ضربتَ بـه   بُعد الذراعين والساقين والهادي

فليس خارجاً عن طباع السيف ان يقطع الذراعين والساقين والهادي ، وان يؤثر بعد ذلك ، ويغوص فى الارض ، ولكنه مما لا يكاد ان يكون • وكذلك ما قلناه فى ما قال مهلهل :

فلولا الريح اسمع مَنْ بحجر   صليلَ البيض تقرع بالـذكور

فانه ايضاً ليس بخارج عن طباع أهل حجر ان يسمعوا الاصوات من الاماكن البعيدة ، ولا خارج عن الطباع ان تصل ويشتد طنينها بقرع لسيوف اياها ، ولكن يبعد ببعد المسافة بين موضع الرَقة وحجر بُعداً لا يكاد يقع • وليس فى طباع الانسان ان يعيش أبداً ، فانا كنا قد قدمنا ان مخارج الغلو انما هي على (يكاد) وليس فى قول ابى نواس (عش أبداً) موضع يحسن فيه يكاد ، لانه لا يحسن على مذهب الدعاء ان يقال أمين الله يكاد ان يعيش أبـداً •

* * *

ثم قال قدامة • ومن التناقض قول ابى نواس ايضا يصف الخمر

كأنّ بقـايا ما عفـا من حَبابها   تفاريق شَيب فى سواد عِذار

فشبه حَباب الكأس بالشيب ، وذلك قول جائز ، لان الحَباب يشبه الشيب فى البياض وحده لا فى شىء آخر غيره ، ثم قال :

تردت به ثم انفَرى عـن اديمهـا   تفرّي ليل عن بيـاض نهار

فالحَباب الذى جعله فى هذا البيت الثاني كالليل هو الذى فى البيت الاول أبيض كالشيب ، والخمر التي كانت فى البيت الاول كسواد العِذار هي التي صارت فى البيت الثاني كبياض النهـار ، وليس فى هـذا التناقض

منصرف الى جهة من جهات العذر ، لان الابيض والاسود طرفان متضادان ، وكل واحد منهما في غاية البعد عن الآخر . فليس يجوز ان يكون شيء واحد يوصف بانه أسود وأبيض الا كما يوصف الادكن في الالوان بالقياس الى كل واحد من الطرفين اللذين هو واسط بينهما ، فيقال : انه عند الابيض اسود ، وعند الاسود ابيض . وليس فيما قاله ابو نواس حال توجب انصراف ما قاله الى هذه الجهة .

* * *

* قال الاصمعي قرأت على خلف شعر جرير فلما بلغت قوله :

ويـوم كابهـام القطـاة محبب — اليّ هـواه غـالب لي باطلـه
رزقنـا به الصيد الغـرير ولم نكن — كمن نبلـه محـرومة وحبـائله
فيـالك يوما خـيره قبـل شـره — تغيّب واشـيه وأقصـر عاذلـه

فقال ويله وما ينفعه خير يؤول الى شر ؟ فقلت له هكذا قرأته على أبي عمرو فقال لي صدقت وكذا قاله جرير ، وكان قليل التنقيح مشرد الالفـاظ وما كان ابو عمرو ليقرئك الا كما سمع فقلت فكيف كان يجب ان يقـول قال : الاجود له لو قال (فيالك يوما خيره دون شره) فاروه هكذا فقد كانت الرواة قديما تصلح من اشعار القدماء فقلت والله لا أرويه بعد هذا الا هكذا .

* * *

* قال ابو محمد عبدالله بن جعفر بن درستويه قال لي البحتري وقـد اجتمعنا على خلوة عند المبرد وسلكنا مسلكا من المذاكرة ، أشعرت اني سبقت الناس كلهم الى قولي :

شـقائق يحملن النـدى فكـأنه — دموع التصابي فى خدود الخرائد
كأن يـد الفتح بن خـاقان اقبلت — تليها بتلك البـارقات الرواعـد

هكذا أنشد فاستحسن ذلك المبرد استحسانا اسـرف فيـه وقال : ما سمعت مثل هذه الالفاظ الرطبة والعبارة العذبة لاحد تقدمك ولا تأخر

عنك فاعترته اريحية جرّ بها رداء العُجب فكأنه أعجبني ما يعجب الناس من مراجعة القول ، فقلت يا أبا عبادة ألم تسبق لى هذا ؟ وسبقك سعيد بن حميد الكاتب الى البيت الاول بقوله :

عذب الفراق لنا قبيل وداعنا ثم اجترعناه كسم ناقع
وكأنما أثر الدموع بخدها طل تساقط فوق ورد يانع

وشركك فيه صديقنا ابو العباس الناشي بما انشدنيه :

بكت للفراق وقد راعني بكاء الحبيب لبعد الديار
كأن الدموع على خدها بقية طل على جلنار[1]

وما اساء على بن جريج بل أحسن فى زيادته عليها بقوله :

لو كنت يوم الوداع شاهدنا وهنّ يطفين غُلة الوجد
لم تر الا دموع باكية تسفح من مقلة على خد

وسبقك ابو تمام الى معنى البيتين معا :

من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنها عين اليه تحدر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها عذراء تبدو تارة وتخفر
خلق أطل من الربيع كأنه خلق الامام وهديه المنتشر
في الارض من عدل الامام وجوده ومن الربيع الغض سرح يزهر
ينسى الربيع وما يروّض جوده ابدا على مر الليالي يذكر

قال فشق عليه وحل حبوته ونهض فكان آخر عهده بمؤانسته وغلظ ذلك على المبرد وقدح في حالي عنده .

* * *

---

(١) الجلنار : زهر الرمان ــ وهو فارسي معرب .

مجلس من مجاس الادب والنقد فى البصرة

قال بعض الرواة كنا مع ابي نصر راوية الاصمعي فى رياض من المذاكرة نجتني ثمارها ونجتلي انوارها الى ان افضنا فى ذكر ابى سعيد عبدالملك بن قُرَيب الاصمعي فقال: رحم الله الاصمعي انه كان لمعدن حِكَم وبحر علم غير انه لم نر قط مثل اعرابي وقف بنا فسلم فقال ايكم الاصمعي؟ فقال انا ذاك • فقال اتأذنون بالجلوس فأذنا له وعجبنا من حسن ادبه مع جفاء أدب الاعراب • فقال : يا اصمعي انت الذى يزعم هؤلاء النفر انك اثقبهم معرفة بالشعر والعربية وحكايات الاعراب ؟ قال الاصمعي فيهم من هو اعلم مني ومن هو دوني • قال افلا تنشدوننى من بعض شعر أهل الحضر ؟ حتى اقيسه على شعر اصحابنا فانشده شعرا لرجل امتدح به مسلمة بن عبدالملك :

أمسلم انت البحر ان جاء وارد ... وليث اذا ما الحرب طار عقابها
وأنت كسيف الهند واني ان عدت ... حوادث من حرب يعب عبابها
وما خُلقت اكرومة في امرىء له ... ولا غاية الا اليك مآبها
كأنك ديّان عليها موكل ... بها وعلى كفيك يجرى حسابها
اليك رحلنا العيس اذ لم نجد لها ... اخا ثقة يرجى لديه ثوابها

قال فتبسم الاعرابي وهز رأسه فظننا ان ذلك لاستحسانه الشعر ، ثم قال يا اصمعي هذا شعر مهلهل النسج خطؤه اكثر من صوابه يغطي عيوبه حسن الروى ورواية المنشد • تشبهون الملك اذا امتدح بالاسد والاسد ابخر شتيم المنظر وربما طرده شرذمة من امائنا وتلاعب به صبياننا • وتشبهونه بالبحر والبحر صعب على من ركبه مرّ على من شربه • وبالسيف • وربما خان في الحقيقة ونبا عند الضريبة الا انشدتني كما قال صبي من حيّنا ؟ قال الاصمعي وماذا قال صاحبكم؟ فأنشده :

اذا سألت الورى عن كل مكرمة ... لم يعز اكرامها الا الى الهول
فتى جواد اذاب المال نائله ... فالنيل يشكر منه كثرة النيل

المـوت يكـره ان يلقى منيتـــه ... في كـرّه عند لف الخيل بالخيل

لو زاحم الشمس ابقى الشمس كاسفة ... أو زاحم الصم الجاها الى الميـل

أمضى من النجم ان نابتـه نائبـة ... وعند أعدائه اجرى مـن السـيل

لا يستريح الى الدنيـا وزينتهـا ... ولا تـراه اليهـا سـاحب الـذيل

قال أبو نصر فابهتنا والله ما سمعنا من قوله • قال فتأتى الاعرابي ثـم قال للاصمعي الا تنشدني شعرا ترتاح اليه النفس ويسكن اليه القلب فانشده لابن الرقاع العاملي :

وناعمـة تجلـو بعـود اراكـة ... مؤشـرة يسـبي المعانق طيبهـا

كأن بهـا خمـرا بمـاء غمامـة ... اذا ارتشفت بعد الرقاد غروبهـا

أراك الى نجـد تحـن وانمـا ... منى كل نفس حيث كان حبيبهـا

فتبسم الاعرابي وقال يا أصمعي ما هذا بدون الاول ولا فوقه • الا انشدتني كما قلت • قال الاصمعي • وما قلت جعلت فداك ؟ فانشده :

تعلقتهـا بكـرا وعلقت حبهـا ... فقلبي عن كل الورى فارغ بـكر

اذا احتجبت لم يكفك البدُر ضوءها ... وتكفيك ضوء البدر ان حجب البدر

وما الصبر عنها ان صبرت وجدته ... جميلا وهل في مثلها يحسن الصبر

وحسبك من خمر يفوتك ريقهـا ... ووالله ما من ريقها حسبك الخمـر

ولو انّ جلد الذر لامس جلدها ... لكان للمس الذر في جلدها أثر

ولو لم يكن للبدر ضدا جمالهـا ... وتفضله في حسـنها لصفـا البدر

قال ابو نصر : قال لنا الاصمعي : اكتبوا ما سمعتم ولو باطراف المدى في رقاق الاكبـاد

* * *

* قال أحمد بن عبيد بن ناصح قلت لابي تمام وكان يجيء الى المسجد الجامع ينشد أشعاره أخبرني عن قولك :

كأن بني نبهان يوم وفاته نجوم سماء خرّ من بينها البدر

اردت ان تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم ؟ قال لا والله ما أردت الا سوء حالهم لان قمرهم قد ذهب فقلت والله ما تكون الكواكب أحسن ما تكون الا اذا لم يكن البدر معها • الا قلت كما قال ابو يعقوب اسحاق بن حسان الخريمي :

بقية أقمار من العز لو خبت لظلت معد فى الدجى تتسكع
اذا قمر منها تغور أو خبا بدا قمر من جانب الافق يلمع

* * *

* قال محمد بن موسى بن حماد قال كنت عند دعبل بن علي انا والغمراوي فى سنة خمس وثلاثين ومائتين فذكرنا أبا تمام فجعل يثلبه ويزعم انه كان يسرق الشعر ثم قال لغلامه هات تلك المخلاة فجاء بمخلاة فيها دفاتر فجعل يمرها على يده حتى اخرج منها دفترا • فقال اقرأوا هذا فنظرنا فاذا فى الدفتر : قال مكنف ابو سلمى من ولد زهير بن ابي سلمى يرثي ابا العباس ذفافة العبسي بقوله :

أبعد ابي العباس يستعتب الدهر وما بعده للدهر عتبى ولا عذر
ولو عوتب المقدار والدهر بعده لما اعتبا ما اورق السلم النضر
الا أيها الناعي ذفافة ذا الندى تعست وشُلّت من انامك العشر
أتَنْعَى فتى من قيس عيلان صخرة تفلق عنها من جبال العدى الصخر
اذا ما أبو العباس خلّى مكانه فلا حملت انثى ولا مسّها طهر
ولا امطرت أرضا سماء ولا جرت نجوم ولا لذت لشاربها الخمر
كأن بني القعقاع يوم وفاته نجوم سماء خرّ من بينها البدر
توفيت الآمال بعد ذفافة وأصبح فى شغل عن السفر السفر
يُعزّون عن ثاو تُعزى به العلا ويبكي عليه المجد والبأس والشعر
وما كان الا مال من قلّ ماله وذخرا لمن امسى وليس له ذخر

ثم قال سرق أبو تمام أكثر هذه القصيدة فادخلها في شعره • ثم علق على ذلك الشيخ أبو عبدالله المرزباني رحمه الله تعالى فقال يعني قصيدة ابي تمام التي هي على روى هذه الابيات ورثى فيها محمد بن حميد وأولها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

ومنها :

توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر

ومنها :

وما كان الا مال من قل ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر

* * *

قال ابو العيناء : ان اسحاق الموصلي انشد الاصمعي قوله في غضب المأمون عليه :

يا سرحة الماء قد سدت موارده اما اليك طريق غير مسدود

لحائم حام حتى لا حيام به محلاء عن طريق الماء مطرود

فقال الاصمعي أحسنت في الشعر غير ان هذه الحاءات لو اجتمعت في آية الكرسي لعابتها •

* * *

قال علي بن هارون ان علي بن الجهم لما ابتدأ قصيدته التي مدح فيها المتوكل :

الله أكبر والنبي محمد والحق ابلج والخليفة جعفر

فقال مروان بن ابي الجنون :

أراد بن جهم ان يقول قصيدة بمدح أمير المؤمنين فاذنا

فقلت له لا تعجلن باقامة فلست على طهر فقال ولا أنا

* * *

*حكى الزبيدي عن منذر بن سعيد الاندلسي ، قال اتيت أبا جعفر النحاس

فى مجلسه بمصر فالفيته يملي من أخبار الشعراء شعر قيس المجنون :

خليلي هـل بالشام عـين حزينـة   تبكّي عـلى نجـد لعلـي اعينهـا
قد اسـلمها الباكون الا حمـامة   مطوقـة باتت وبـات قرينهـا

فقلت له : ماذا أعزك الله باتا يصنعان ؟ فقال لي وكيف تقول يا اندلسي فقلت بانت وبان قرينها ، فاعجبه ذلك غير انه حقد عليّ وما زال يستثقلني بعد ذلك حتى منعني كتاب العين حينما ذهبت الى الاستنساخ من نسخته .

* * *

قال عمارة : قال لي عبدالله بن السمط : علمت ان المأمون لا يبصر الشعر . فقلت : ومن يبصره ويكون أعلم به منه ؟ . فو الله انك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا الى آخره . قال : أنشدته بيتاً أجدته فلم يتحرك له . فقلت : وما هو ؟ قال :

(أضحى امام الهـدى المأمون مشتغلا   بالدين والناس بالدنيا مشاغيل)

فقلت : ما صنعت شيئاً . وهل زدت على ان جعلته عجوزا فى محرابها فى يدها سبحتها ، فمن القائم بامر الدنيا اذا تشاغل عنها ؟ .

وهو المطوق بها ، هلاّ قلت كما قال جرير فى عبدالعزيز بن الوليد

فلا هـو فى الدنيـا مضيـع نصيبه   ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

* * *

الفصل الثامن

الكتب النقدية منذ أواخر القرن الرابع الهجري

كنا قد عرفنا في الجزء الاول من هذا الكتاب طائفة من علماء البيان العربي ، من رجال المدارس العلمية والادبية في المدينة المنورة ، والبصرة ، والكوفة ، وبغداد ، كعيسى بن عمر الثقفي ، وعمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، والخليل بن احمد الفراهيدي ، وعبدالملك بن قريب الاصمعي ، والكسائي ، والفرّاء ، والمفضل الضبي ، وابي عمرو الشيباني وابن لاعرابي ، وابن السكّيت ، وابي حنيفة الدينوري ، وابي العباس المبرد ، وابن دُرَيد ، والصولي وابي فرج الاصبهاني ، وابي عليّ القالي .

ثم عرفنا علماء آخرين وسعوا دائرة الابحاث النقدية ، والفوا فيها كمحمد بن سلام الجمحي وكتابه طبقات فحول الشعراء في الجاهلية والاسلام ، وعبدالله بن قتيبة الدِينَوَري وكتابه الشعر والشعراء ، وعبدالله بن المعتز وكتابه البديع ، وقدامة بن جعفر وكتابه نقد الشعر .

ولبلوغ الهدف من هذا المؤلف رأينا ان ننتقل الى لون آخر من ألوان النقد الادبي ، ونتوسع فيه بعض التوسع ، ونطّلع على ما هو حَرِيّ بالاطلاع ، وجدير بالمعرفة ، ونتحرّى بعضَ المؤلفات النقدية التي جاءت بعد تلكم المؤلفات السابقة ، ابتغاء ان نعقد الصلة بين علوم السابقين وعلوم اللاحقين ، عسى أن تكون لدينا فكرة صحيحة عن تطور الحياة العقلية والادبية ، منذ تبلورها حتى زماننا هذا .

١ ـ الآمدي وكتابه الموازنة

بين أبى تمام والبحتري

هو ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدي ولد بالبصرة فى بداية القرن الرابع ونشأ فيها كاتبا ثم سافر الى بغداد فتلقى فيها النحو واللغة عن الاخفش والزجاج وابن دريد وابن السراج واشتغل فيها كاتبا لأبي جعفر هارون بن محمد الضبي ثم رجع الىالبصرة وكتب فيها للقاضي ابيجعفر بن عبدالواحد على ديوان الاوقاف وتوفي بالبصرة سنة ٣٧١ • وكان حسن الفهم جيد الدراية والرواية سريع الادراك ، سمع كتاب القوافي لأبي العباس المبرد على نفطويه •

وكان الآمدي شاعرا ايضا فوجه عنايته الى دراسة اشعار المتقدمين ونقدها فألف :

١ ـ كتابه الموازنة بين ابي تمام والبحتري فى عشرة اجزاء •

٢ ـ كتاب المؤتلف والمختلف من اسماء الشعراء والقابهم •

٣ ـ له كتب اخرى لا تحصى ضاع أكثرها •

ان المعلومات التي وصلتنا عن هذا الاديب الكبير قليلة لا تشفي غليلا • ومع ذلك فان الذين درسوه وجدوا انه من النقاد المولعين بدرس الشعر ونقده • وهو بصورة خاصة مولع بدرس البحتري وابي تمام وتعقب ماكتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء ويرى الدكتور المرحوم زكي مبارك فى كتابه النثر الفني ان كتابه (الموازنة بين ابي تمام والبحتري) يضعه فى الصف الاول من الادباء ويقدمه على كثير من الناقدين •

---

(١) معجم الادباء جـ ٨ ص ٧٥ وتاريخ الادب العربى لجرجي زيدان جـ ٢ ص ١٧٦ •

اما كتابه الموازنة ، فقد حقق أصوله وعلق على حواشيه وقدم له العلامة محمد محيى الدين عبد الحميد الاستاذ فى كلية اللغة العربيـة بالجامعـة الازهرية ٠

ومما هـو جـــدير بالملاحظة هي تلك الاشارة التي أوردها الاستاذ محيى الدين فى خلال مقدمته التي يقول فيها (كان فى النية ان احدثك على الاخص عن تحامل الآمدي على ابي تمـام واغضائه الاغضاء البالغ عن البحتري) ٠

تعمدت ذكر هذه العبارة لتكون على بينة من رأي هذا المحقق الجليل فيما سأورده من نقد الآمدي لأبي تمام ٠

جاء في مقدمة الآمدي ان الذى حدا به الى اجراء هذه الموازنة انـه شاهد كثيرا من رواة الاشعار يزعمون ان شعر ابي تمام لا يتعلق بجيـده جيد امثاله[١] ورديئه مطروح مبذول ٠ ولهذا كان شعره مختلفا لا يتشابه كما وجد من يقـول ان شـعر الوليد بن عبيد الله البحتري صحيح السبك حسن الديباجة ليس فيه اسفاف ولا ردىء ولا مطروح ٠ ولهذا صار مستويا يشبه بعضه بعضا ٠ ووجد جمهرة من الناس يفاضلون بينهما لغزارة شعريهما وكثرة جيدهما وبدائعهما ، ولم يتفقوا على ايهما أشعر ، كما لم يتفقوا على أحد ممن وقع التفضيل بينهم من شعراء الجاهلية والاسلام والمتأخرين ٠ وذلك كمن فضل البحترى ونسبه الى حلاوة النفس وحسن التخلص ووضع الكلام فى مواضعه وصحة العبارة وقرب المأتى وانكشاف المعاني وهم الكتاب والاعراب والشعراء المطبوعون وأهـل البلاغة ، ومثل من فضل ابا تمـام

(١) كتاب الموازنة فى الصحيفة الاولى من المقدمة ٠

ونسبه الى غموض المعاني ودقتها وكثرة ما يورده مما يحتاج الى استنباط وشرح واستخراج وهؤلاء أهل المعاني واصحاب الصنعة من الشعراء ممن يميلون الى التدقيق وفلسفي الكلام •••• الى أن يقول : ولست أحب أن اطلق القول بايهما اشعر عندى ••• لتباين الناس في العلم واختلاف مذاهبهم في الشعر ولا ارى لاحد ان يفعل ذلك فيستهدف لذم احد الفريقين لان الناس لم يتفقوا على اي الاربعة اشعر في امرىء القيس والنابغة وزهير والاعشى ، ولا في جرير والفرزدق والاخطل ولا في بشار ومروان ولا في أبي نواس وابي العتاهية ومسلم لاختلاف آرائهم وتباين مذاهبهم •

فان كنت ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء[1] والرونق فالبحتري اشعر عندك ضرورة • وان كنت تميل الى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوى على غير ذلك فأبو تمام عندك اشعر لا محالة •

فاما أنا فلست افصح بتفضيل احدهما على الآخر ولكن اقارن بين قصيدتين من شعرهما اذا اتفقتا في الوزن والقافية واعرابها وبين معنى ومعنى فاقول ايهما اشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى •••• ثم احكم انت حينئذ على جملة ما لكل واحد منهما اذا احطت علما بالجيد والردىء •

وبعد هذا التمهيد عقد الامدى مجلس مناظرة بين أديبين ناقدين جعل احدهما صاحبا لابي تمام والثاني صاحبا للبحترى واجرى على لسانهما كلاما يصف به كل منهما صاحبه بما يرى من فضيلة الشعر ودرايته وفنونه واخيلته •

---

(١) يريدون بذلك حرارة العاطفة واهتياجها • ويريدون بالرونق الوضوح والجمال والكلام الرفيع •

وهكـذا يبتدىء الامدي بذكر ما سمعه من احتجاج كـل فرقة من اصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الاخرى عنـد تخاصمهم في تفضيل احدهما على الآخر وما ينعاه بعض على بعض •

لنتأمل ذلك ونزداد بصيرة وقوة في حكمنا ان شئنا ان نحكم • ولنعتقد حينئذ ما نعتقد بصحة احتجاج احد الخصمين المتناظرين اذا بان لنا وجـه الصواب مما قالوا •

(١) قال صاحب أبي تمام كيف يجوز لقائل ان يقول : ان البُحترى اشعر من أبي تمام وعن ابي تمام أخذ وعـلى حـذوه احتذى ومن معانيه استقى وباراه حتى قيـل الطائي الاكبر والطائي الاصغر • واعترف البحتري أن جيّد ابي تمام خير من جيده على كثرة جيد أبي تمام ، فهو بهذه الخصال ان يكون اشعر من البحتري اولى من أن يكون البحتري اشعر منه •

(٢) قال صاحب البحتري امـا الصحبة فما صحبه ولا تلمذ له ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا أرى قط انه محتاج اليه • ودليل هذا الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري وقد دخل اليه البحتري بقصيدته التي اولها •

(أأفاق صبٌ من هوى فأُفيقـا   ام خان عهدا ام اطـاع شفيقا)

وابو تمام حاضر ، فلما انشدها علّق ابو تمام ابياتا كثيرة منها ••• فلما فرغ من الانشاد اقبل ابو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الامير ما ظننت أحدا يقدم على ان يسرق شعري وينشده بحضرتي حتى اليوم ، ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى اتى عـلى ابيات كثيرة من القصيدة فبهت البحترى ، ورأى ابو تمام الانكار في وجه ابي سعيد فحينئذ قال له ابو تمام أيها الامير والله ما الشعر الا له وانه احسن فيه الاحسان كلّه ، واقبـل

يقرظه ويصف معانيه ويذكر محاسنه ثم جعل يفخر باليمن وانهم ينبوع الشعر ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى اضعف له الجائزة . فهذا الخبر الشنيع يبطل ما ادعيتم ، اذ كان من يقول هذه القصيدة التي هي من عين شعره وفاخر كلامه وهو لا يعرف أبا تمام الا ان يكون بالخبر يستغني عن أن يصحبه او يتلمذ له او لغيره في الشعر . وقد اخبرني رجل من اهل الجزيرة يكنى ابا الوضاح وكان عالما بشعر ابي تمام والبحتري واخبارهما ان القصيدة التي سمعها ابو تمام من البحتري عند محمد بن يوسف وكان اجتماعهما وتعارفهما القصيدة التي اولها :

(فيم ابتداركما الملام ولوعا　　　ابكيت إلاّ دمنة وربوعا)

وانه لما بلغ الى قوله فيها

في منزل ضنك تخال به القنا　　　بين الضلوع اذا انحنين ضلوعا

نهض اليه ابو تمام فقبل ما بين عينيه سروراً به وتحفيا بالطائية ثم قال : أبَى الله الا ان يكون الشعر يمنيا .

(٣) قال صاحب البحتري الا انه ـ مع هذا ـ لا ينكر ان يكون قد استعار بعض معاني ابي تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحتري من شعر ابي تمام فيعلّق شيئا من معانيه معتمدا للاخذ او غير معتمد . وليس ذلك بمانع من ان يكون البحترى اشعر منه . فهذا كُثيّر قد أخذ من جميل وتلمذ له واستقى من معانيه . فما رأينا احدا اطلق على كُثيّر ان جميلا اشعر منه ـ بل هو ـ عند اهل العلم بالشعر والرواية ـ اشعر من جميل ، وهذا ابن سلام الجمحى ذكره في كتاب الطبقات في الطبقة الثانية من شعراء الاسلام جعله مع البعيث والقطامى وذكر انه عند اهل الحجاز خاصة اشعر من جرير والفرزدق والاخطل . وجعل جميلا في الطبقة السادسة مع

عبدالله بن قيس الرُقَيَات والاحوص ونُصَيب ، الا انه قال : ان جميلا يتقدمه في النسيب ، وهذا غير مقبول منه ، لانه انما يحكيه عن نفسه، وأهل الحجاز انما قدموا كثيّراً من أجل نسيبه وحسن تصرفه فيه . وحكي عن جرير انه قال في بعض الروايات كثيّر أنسبنا . ويدل على تقدمه في النسيب قول ابي تمام في قصيدة يمدح بها أبا سعيد الكاتب .

(من سجايا الطلول ان لا تجيبا   فصواب من مقلتي ان تصوبا)
(لو يفاجي ركنُ المديح كثيرا   بمعانيه خالهن نسيبا)
(طاب فيه المديح والتذ حتى   فاق وصف الديار والتشبيبا)

اراد ان كثيرا لو فاجأه هذا المديح ـ على حسن نسيبه ـ لخاله نسيبا. وخص كثيراً لشهرته بالنسيب وبراعته ، واحتمل ضرورة الشعر . وردّ كثيّر الى التكبير فقال كثيرا ولم يقل جميلا ولا جريرا ولا غيرهما مما لا ضرورة في اسمه . وعلى ان كثيرا ذكر اسمه مكبرا . اما ضرورة واما اعتمادا لتفخيم اسمه وان لا يأتي به مُصَغَّراً فقال :

(وقال لي الواشون ويحك انها   بغيرك حقا يا كثير تهيم)

وقد ذكر أبو تمام كثيرا في مواضع أُخر فجاء به مُكَبَّراً في قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب ويصفه بالبلاغة وهو قوله :

(فكأن قساً في عكاظ يخطب   وكثير عزة يوم بينٍ ينسب)

وذلك لعلم ابي تمام بتقدم كثير في النسيب على غيره ، وشهرته بالتجويد فيه ، على ان جميلا لا شعر له مما يعتد به الا في النسيب والغزل .

قد علمتم الآن ان هذه حالة لا توجب لكم تفضيل ابي تمام على البحتري من أجل انه أخذ شيئا من معانيه . واما قول البحتري جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه ، فهذا الخبر ـ ان كان صحيحا ـ فهو

للبحتري لا عليه ، لان قوله هذا يدل على ان شعر ابى تمام شديد الاختلاف ، وشعره شديد الاستواء ، والمستَوى الشعر اولى بالتقدمة من المختلف الشعر • وقد اجتمعنا نحن وانتم ـ على أن أبا تمام يعلوا علوا حسنا وينحط انحطاطا قبيحا ، وان البحتري يعلو بتوسط ولا يسقط ومن لا يسقط ولا يسَفسِف أفضل ممن يسقط ويسَفسِف •

والذى نرويه عن ابي علي محمد بن العلاء السجستاني ـ وكان صديق البحتري ـ انه قال : سئل البحتري عن نفسه وعن ابي تمام فقال هو أغوص على المعاني وانا اقوم بعمود الشعر وهذا الخبر هو الذى يعرفه الشاميون دون غيره •

وسمعت ابا علي محمد بن العلاء أيضا يقول : كان البحتري عند نفسه أشعر من أبي تمام وسائر الشعراء المحدثين • وكان اذا شرب وانس أنشد شعره وقال : الا تسمعون ؟ الا تعجبون ؟ قال : وكان ـ مع هذا ـ أحسن الناس أدب نفس لا يذكر شاعراً محسناً او غير محسن الا قرّظه ومدحه وذكر أحسن ما فيه • قال : أبو علي ولم لا يفعل ذلك ؟ وقد اسقط في أيامه أكثر من خمسمائة شاعر وذهب بخيرهم وانفرد بأخذ جوائز الخلفاء والملوك دونهم • فلو لم يفعل ذلك الا استكفافا وحذرا من بيت واحد يندر فيبقَى على الزمان لكان من الحظ له ان يفعله •

(٤) قال صاحب ابي تمام : فأبو تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه اولا واماما متبوعا وشهر به حتى قيل : هذا مذهب ابي تمام ، وطريقة ابي تمام وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره • وهذه فضيلة عَرِيَ من مثلها البحتري •

(٥) قال صاحب البحتري : ليس الامر لاختراعه لهذا المذهب على ما وصفته ولا هو باول فيه ولا سابق اليه ، بل سلك في ذلك سبيل مسلم

واحتذى حذوه وأفرط وأسرف وزال عن النهج المعروف والسنن المألوف وعلى ان مسلما ايضا غير مبتدع لهذا المذهب ولا هو اول فيه ، ولكنه رأى هذه الانواع التي وقع عليها اسم البديع وهي الاستعارة والطباق والتجنيس منشورة متفرقة فى اشعار المتقدمين فقصدها واكثر فى شعره منها وهي فى كتاب الله عز وجل موجودة قال تعالى : واشتعل الرأس شيبا • وقال : واخفض لهما جناح الذل من الرحمة • وقال امرؤ القيس

فقلت لـه لمـا تمطى بجـوزه وأردف اعجـازا ونـاء بكلكل

فجعل الليل يتمطى وجعل له أردافا وكلكلا • وقال زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرّى أفراس الصبا ورواحله

فجعل للهوى افراسا ورواحل •

وقال جلّ وعز فى التجنيس (واسلمت مع سليمان لله رب العالمين) (فأقم وجهك للدين القيّم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم عُصَيّة عصت الله ورسوله ، وغفار غفر الله لها ، واسلم سالمها الله •

وقال جرير

وما زال معقولا عقـال عن الندى وما زال محبوسا عن المجد حابس

ومن الطباق قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) وقال النبي صلى الله عليه وسلم انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع وقال زهير

(ليث بعثـر يصـطاد الرجال اذا ما كذب الليث عن أقرانه صدقا)

فطابق بين الصدق والكذب • وقال طفيل الغنوي

(بساهم الوجه لم تقطع ابا جلـه يصان وهو ليوم الروع مبذول)

فطابق بين قوله يصان وبين قوله مبذول

فتتبع مسلم بن الوليد هذه الانواع واعتدها ووشح شعره بها ووضعها في موضعها ثم لم يسلم مع ذلك من الطعن ، حتى قيل انه اول من أفسد الشعر ، ثم اتبعه ابو تمام واحب ان يجعل كل بيت من شعره غير خال من بعض هذه الاوصاف فسلك طريقا وعرا واستكره الالفاظ والمعاني حتى فسد شعره وذهبت طلاوته ونشف ماؤه .

وقد حكى عبدالله بن المعتز في كتابه البديع ان بشارا وابا نواس ومسلم بن الوليد ومن تقيّلهم لم يسبقوا الى هذا الفن . ولكنهم أكثروا في أشعارهم منه فعرف في زمانهم ، ثم ان الطائي تفرغ فيه وأكثر منه وأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض ، وتلك عقبي الافراط وثمرة الاسراف ، قال : وانما كان الشاعر يقول من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة . وربما قرىء في شعر احدهم قصائد من غير ان يوجد فيها بيت من البديع . وكان يستحسن ذلك منهم اذا اتى قدرا . ويزداد حظوة من الكلام المرسل ، وقد كان بعضهم يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبدالقدوس في الامثال . ويقول لو كان صالح نثر أمثاله في تضاعيف شعره وجعل منها فصولا في أبياته لسبق أهل زمانه وغلب على ميدانه قال ابن المعتز : وهذا أعدل كلام سمعته .

(٦) قال صاحب البحتري : فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع ابي تمام لهذا المذهب وسبقه إليه وصار استكثاره منه وافراطه فيه من أعظم ذنوبه وأكبر عيوبه . وحصل للبحتري انه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعهودة مع ما نجده كثيرا في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة وانفرد بحسن العبارة وحلاوة الالفاظ وصحة المعاني . وحيث وقع الاجماع على استحسان شعره واستجادته ، وروى شعره واستحسنه سائر الرواة على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم . فمن نفق على الناس جميعا اولى بالفضيلة وأحق بالتقدمة .

(٧) قال صاحب ابي تمام انما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه • وفهمه العلماء والنقاد في علم الشعر واذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه •

(٨) قال صاحب البحتري ان ابن الاعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني وقبلهما دعبل بن علي الخزاعي قد كانوا علماء بالشعر وكلام العرب وقد علمتم مذاهبهم في ابي تمام وازدراءهم بشعره وطعن دعبل عليه • وقولهم أن ثلث شعره محال وثلثه مسروق وثلثه صالح • وروى أبو عبدالله محمد بن داود بن الجراح في كتاب الشعراء عن محمد بن القاسم عن دعبل انه قال : ما جعله الله من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر •

وعلى هذا المنوال اجرى الامدي موازنته بين الطائيين ولا اكتمكم اني شعرت من هذه الموازنة بشيء من التحامل على أبي تمام وبشيء من التحيز للبحتري مما لا يخفى على الذين يستقصون هذا الكتاب • وأخيرا أدعو الله تعالى ان يلهمنا صدق القول ويهدينا الى الصواب •

٢ ـ أبو الحسن الجرجاني

وكتابه الوساطة

هو علي بن عبدالعزيز الجرجاني ، طاف في صباه معاهد العلم في بلده ، واقتبس العلوم والآداب من مشايخ زمانه ، حتى صار حسنة جرجان • وظل أبو الحسن يتقدم في مضمار الرقي الى ان قلد وظيفة قاضي القضاة في نيسابور وكان الشيخ عبدالقاهر الجُرجانِي قد قرأ عليه واغترف من بحره ، وكان اذا ذكره في كتبه قال : بخ بخ تنويهاً بفضله واجلالا لمقامه • ولد سنة ٢٩٠ وتوفي ٣٩٢ هـ •

وكان لأبي الحسن الجرجاني عدة تصانيف منها كتاب تفسير القرآن المجيد وكتاب تهذيب التاريخ وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه • وفي هذا الكتاب يقول أحد شعراء نيسابور :

ايا قاضيا قد دنت كتبُه ... وان أصبحت داره شاحطه[١]
كتاب الوساطة في حسنه ... لعقد معاليك كالواسطه

وقالوا في سبب تأليفه لكتابه هذا : ان الصاحب بن عباد لما عمل رسالته المعروفة في اظهار مساوِىء المتنبي عمل القاضي أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، فأحسن وأبدع وأطال وأطاب ، وأصاب[٢] شاكلة الصواب ، واستولى على الامد في فصل الخطاب وأعرب عن تبحره في الادب وعلم العرب ، وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد ، فسار الكتاب مسير الرياح ، وطار في البلاد بغير جناح •

جاء في تقديم الطبعة الاولى لكتاب الوساطة ان ابا الحسن الجرجاني

---

(١) كتاب معجم الادباء جـ ١٤ ص ٢٤ •
(٢) وجه الصواب •

قد اشتهر بالفقه وترجم له الشيرازي فى طبقات الفقهاء وفسر القرآن الكريم • وذكره السيوطي فى طبقات المفسرين واشتغل بالتاريخ وله فيه آثار • ثم هو شاعر متقن وكاتب مترسل وناقد لوذعي بصير •

كتاب الوساطة

اما كتابه الوساطة فهو كتاب نقد أدبي ، مشتمل على مقدمة طويلة ، تكلم فيها الجرجاني عن أغلاط الشعراء فى الجاهلية ، وعن تأثير الطباع والامكنة فى رقة الشعر وجفائه ، وانتقل الى الكلام عن أبي تمام والبحتري وجرير وابي نواس ، فذكر ما لهم من المحاسن وما عليهم من العيوب •

وقد حداه هذا الاستطراد الى البحث عن الاستعارة والجناس والتصحيف والتقسيم ، ثم أخذ فى الحديث عن المتنبي ، فذكر السخيف والمعقد من شعره ، وتكلم عن تخلصه ومطالعه ، واعتذاره وفلسفته ، وسرقاته الشعرية ، وما انكر العلماء عليه وما قيل فى الاعتذار عنه ، وقد ساقته هذه الابحاث الى الكلام عن التشبيه واختلاف الناس فى التشبيهات وتفاوت الشعراء فى صوغ اللفظ والمعنى ، واختلافهم فى أخذ الالفاظ والمعاني ، الى غير ذلك مما كان يوجبه الانس بالاستطراد عند المتقدمين[1] •

ولقد ذكر الذين حققوا كتاب الوساطة : ان النقد فى القرن الرابع الهجري بلغ اوجه ، واختفى من حلبته اللغويون والنحاة ، وحمل رايته الادباء ، يتميز نقدهم باستقصاء البحث ، وشمول الفكرة ، وتوضيح العلل ، والموازنة العامة بين الشعراء ، وعنوا بدراسة الشعر وتقدير رجاله ، وتخاصموا فيهم ، فهذا ينتصر لابي تمام ، وذاك يتشيع للبحتري ، وهؤلاء يرفعون من مقدار المتنبي ، وينسبون اليه كل فضيلة فى الشعر ، واولئك

---

(١) كتاب النثر الفني جـ ٢ ص ١٨ لمؤلفه الدكتور زكي مبارك •

ينتقصون منه ، ويرمونه بالتعقيد والمعاظلة[٢] والالتواء ، وعمرت باحاديثهم مجالس الادب ، وسارت مقالاتهم وكتبهم فى كل صقع وواد . من هؤلاء أبو الفرج الاصفهاني وابن العميد والصاحب بن عباد وأبو علي الحاتمي وأبو الحسن بن لنكك البصري والآمدي والجرجاني . الا ان ابا الحسن الجرجاني كان أصرحهم نقدا واوسعهم افقا وأشملهم بحثا .

ذكرت ان مقدمة كتاب الوساطة كانت طويلة احتوت على قيم نقدية ثمينة دلت على طول باعه فى فنون الادب ، وعلى كثرة حفظه لشعر العرب ، وعلى قوة ذكائه فى جلاء الشكوك والريب ، تناولت موضوعات جديرة بالاعتبار ، يبدأها بأغاليط الشعراء ثم يأخذ بشرح حد الشعر ومقوماته ، كالطبع والرواية والذكاء ، وأثر البداوة والتحضر فيه ، ثم يذكر السهل الممتنع من شعر البحتري ، والعذب من شعر جرير ، ومعنى الحشو فى الشعر ، والفرق بين التشبيه والاستعارة والتجنيس المطلق والمستوفى ، والمطابقة والاستهلاك والتخلص والخاتمة . وبعد ذلك يبدأ بما استهدفه كتاب الوساطة فيقول :

ثم نعدل الى ما تكلفناه من هذه الوساطة فنقول : ان خصم هذا الرجل (يعني المتنبي) فريقان : احدهما يعمُّ بالنقص كلَّ مُحْدَث، ولا يرى الشعر الا القديم الجاهلي، وما سُلِكَ بهذلك المنهج، وأُجْرِي على تلك الطريقة ، ويزعم ان ساقة الشعراء رؤبة ، وابن هرمة وابن ميادة ، والحكم الخضري فاذا انتهى الى من بعدهم كبشار وابى نواس وطبقتهم سمى شعرهم مُلَحا وطُرفا واستحسن منه البيت استحسان النادرة ، واجراه مجرى الفكاهة ، فاذا نزلت به الى ابي تمام وأضرابه نفض يده ، وأقسم واجتهد ان القوم لم يقرضوا بيتا قط ، ولم يقعوا من الشعر الا بالبعد .

---

(٢) المعاظلة تعقيد الكلام . يقال عاظل الكلام عقده ووالى بعضه فوق بعض وكرره .

ومن كان هذا رأيه ومذهبه وهذه دعواه ونحلته فقد اعطاك ما اردت من وجه وان مانعك سواه وسمح لك بما التمست ، وان التوى عليك فى غيره لان الذى انتصبت له وشغلت عنايتك به الحاق ابى الطيب بهذه الطبقة واضافته الى هذه الجملة ، وقد بذل ذلك وقرب مطلبه عليك . فان تكن الجماعة منسلخة من الشعر موسومة بالنقص مستحقة للنفي فصاحبك اولهم وان تكن قد علقت منه بسبب وحظيت منه بطائل وكان له فيه قدم ومنه حظ وموقع فهو كاحدهم .

وليس الحكم بين القدماء والمولدين من التوسط بين المحدث والمحدث بسبيل كما لا نسب بينه وبين تفضيل قديم على قديم وانما يستعتب لك هذه المخاطبة من وافقك على فضل ابي تمام وحزبه وسلم محل مسلم ومن بعده فتجعل هؤلاء شهودك وحججك وتقيم شعرهم حكما بينه وبينك ، فانك لا تدعى لابي الطيب طريقة بشار وابي نواس . ولا منهاج أشجع والخريمي ولو ادعيته ، فانما كنت تخادع نفسك او تباهت[1] عقلك ، وانما انت أحد رجلين : اما ان تدعى له الصنعة المحضة فتلحقه بابى تمام وتجعله من حزبه ، او تدعى له فيه شركاً ، وفى الطبع حظا ، فان مِلْتَ به نحو الصنعة فضلَ ميل صيرته فى جنبة مسلم وان وفرت قسطه من الطبع عدلت به قليلا نحو البحتري .

وانا أرى لك اذا كنت متوخيا للعدل ، مؤثرا للانصاف ، ان تقسم شعره فتجعله فى الصدر الاول تابعا لابي تمام وفيما بعد واسطة بينه وبين مسلم .

وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج بعيب المتأخرين فان احدهم ينشد البيت فيستحسنه ، ويستجيده ، ويعجب

---

(١) باهته استقبله بأمر لا يعلمه وهو منه برىء فيبهت منه .

منه ، ويختاره ، فاذا نسب الى بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه ، ونقض قوله ، ورأى تلك الغضاضة أهون محملا ، وأقل مرزأة ، من تسليم فضيلة لمحدث ، والاقرار بالاحسان لمولد •

حكي عن اسحاق الموصلي انه قال : انشدت الاصمعي :

هل الى نظرة اليك سبيل ... فيبل الصدى ويشفى الغليل
ان ما قلّ منكِ يكثر عندي ... وكثير ممن تحب القليل

فقال والله هذا الديباج الخسرواني • لمن تنشدني ؟ فقلت انهما لليلتهما فقال لا جرمَ والله ان أثرَ التكلف فيهما ظاهر" •

ثم ينحو أبو الحسن الجرجاني باللائمة على الذين يتحاملون من النقاد فيقول : ولو انصف أصحابنا هؤلاء لوجد يسيرهم أحق بالاستكار ، وصغيرهم اولى بالاكبار ، لان أحدهم يقف محصورا بين لفظ قد ضيق مجاله وحذف أكثره ، وقل عدده وحظر معظمه ، ومعان قد أخذ عفوها ، وسبق الى جيدها ، فأفكاره تثبت فى كل وجه ، وخواطره تستفتح كل باب ، فان وافق بعض ما قيل ، او اجتاز منه بابعد طرف ، قيل سرق بيت فلان ، وأغار على قول فلان • ولعل ذلك البيت لم يقرع قط سمعه ، ولا مرّ بخلده كأن التوارد عندهم ممتنع ، واتفاق الهواجس غير ممكن • وان افترع معنى بكرا ، أو افتتح طريقا مبهما ، لم يرض منه الا باعذب لفظ ، وأقربه ، من القلب والذّه فى السمع • فان دعاه حب الاغراب وشهوة التفوق الى تزيين شعره ، وتحسين كلامه ، فوشحه بشيء من البديع وحلاه ببعض الاستعارة قيل : هذا ظاهر التكلف بين التعسف ناشف الماء قليل الرونق ، وان قال ما سمحت به النفس ورضى به الهاجس قيل لفظ فارغ وكلام غسيل(١)

---

(١) الماء الذى غسل به •

فاحسانه يتأول ، وعيوبه تتمحّل ، وزلته تتضاعف ، وعذره يكذب ، فلا تشتغلن بهذه الطائفة ما دمت تنظر بين المتنبي وأهل عصره • واخترِ المنازعةَ في هذا الرأي ، وان كان الخلاف الاكبر فان لكل مقام مقالا • وانما خصمك الالد ، ومخالفك المعاند ، الذى حمدت لمحاكمته ، وابتدأت بمنازعته ، ومحاجته ، من استحسن رأيك في انصاف شاعر ثم الزمك الحيف على غيره ، وساعدك على تقديم رجل ، ثم كلفك تخير مثله فهو يسابقك الى مدح ابي تمام والبحتري ، ويسول لك تقريظ ابن المعتز وابن الرومي ، حتى اذا ذكرت أبا الطيب المتنبي ببعض فضائله واسميته في عداد من يقصر عن رتبته ، امتعض امتعاض الموتور ، ونفر نفار المضيم فغض طرفه ، وثَنى عِطفه ، وصعّر خدّه وأخذته العزة بالاثم وكانما زوى عينيه عليك المحاجم •

وأقبل عليك أيها الراوي المتعنت فأقول لك : خبرني عمن تعظمه من أوائل الشعراء ، ومن تفتتح به طبقات المحدثين • هل خلص لك شعر أحدهم من شائبة ، وصفا من كدر ومعابة ، فان ادّعيت ذلك وجدت العيان حجيجك ، والمشاهدة خصمك ، وعدنا بك الى أضعاف ما صدرنا به مخاطبتك واستعرضنا الدواوين فاريناك فيها ما يحول بينك وبين دعواك ويحجزك ان كان بك أدنى مسكة من قولك • فان قلت : قد اعثر بالبيت بعد البيت انكره واجدُ اللفظَ بعد اللفظ لا استحسنه • وليس كل معانيهم عندي مرضيةً ولا جميع مقاصدهم صحيحةً مستقيمةً • قلنا لك فابو الطيب واحد من الجملة فكيف خص بالظلم من بينها ، ورجل من الجماعة فلِمَ أفرد بالحيف دونها ؟ فان قلت كثر زلله ، وقلّ احسانه ، واتسعت معانيه ، وضاقت محاسنه ، قلنا هذا ديوانه حاضرا وشعره موجودا ممكنا • هلم نستقرئه ونتصفحه ونقلبه ونمتحنه • ثم لك بكل سيئة عشر حسنات وبكل نقيصة عشر فضائل • فاذا اكملنا لك ذلك واستوفيته وقادك الاضطرار الى القبول او البهت ووقفت بين

التسليم والعناد عدنا بك الى بقية شعره فحاججناك به والى ما فضل بعد المقاصة فحاكمناك اليه .

وقد نجد كثيرا من أصحابك ينتحل تفضيل ابن الرومي ويغلو فى تقديمه ونحن نستقرىء القصيدة من شعره وهي تناهز المئة أو تربوا او تضعف فلا نعثر فيها الا بالبيت الذى يروق او البيتين ثم قد تنسلخ قصائد منه ، وهي واقفة تحت ظلها ، جارية على رسلها ، لا يحصل منها السامع الا على عدد من القوافي ، وانتظار الفراغ . وانت لا تجد لابي الطيب قصيدة تخلو من أبيات تختار ، ومعان تستفاد ، وألفاظ تروق وتعذب ، وابداع يدل على الفطنة والذكاء ، وتصرّف لا يصدر الا عن غزارة واقتدار ، وهكذا يستمر كتاب الوساطة فى استعراض قضايا أدبية كثيرة فيتحدث عن تفاوت شعر ابي نواس فى الانحطاط والارتفاع والمنقى منه والمختار وعن تفاوت شعر ابي تمام فيذكر الجيدَ والرديء من شعره .

ثم يقول الجرجاني وانما خصصت ابا نواس وابا تمام لاجمع لك بين سيدي المطبوعين وامامي أهل الصنعة واريك ان فضلهما لم يحمهما من زلل ، واحسانهما لم يصف من كدر ، فان انصفت فلك فيهما عبرة ومقنع ، وان لججت فما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون .

وبعد هذا الاستعراض الخارج عن صدد موضوع الوساطة فى ظاهر الحال يتناول شعر المتنبي فيقتبس منه ما أخذه عليه الحاسدون له الحاقدون عليه ثم يتبعه بغرر من قصائد المتنبي التي سارت فى الناس مسيرَ الشمس على الارض .

ثم يتحدث صاحب الوساطة عن السرقات الشعرية وعن بيان ادعاء السرقة فى شعر البحتري وابى نواس وابي تمام والمتنبي حتى اذا أشبع الموضوع بحثا وتمثيلا تكلم عن مواقع الكلام وأثره فى النفوس فيقول :

ان امر مواقع الكلام امر تُسْتَخبر به النفوس المهذبة وتُستَشهد عليه الاذهان المُثقَفة . وانما الكلام أصوات ، محلها من الاسماع محل النواظر من الابصار .

وانت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن ، وتستوفِي اوصاف الكمال ، وتذهب في الانفس كل مذهب ، وتقف من التمام بكل طريق ، ثم تجد اخرى دونها في انتظام المحاسن ، والتام الخِلْقة ، وتناصف الاجزاء ، وتقابل الاجسام ، وهي أحظَى بالحلاوة ، وأدنَى الى القبول ، واعلَق بالنفس ، واسرع ممازجة للقلب ، ثم لا تعلم (وان قاسيتَ واعتبرتَ ، ونظرتَ وفكرتَ) ، لهذه المزية سببا ولما خُصت به مقتضيا .

ثم يأخذ في الدفاع عن ابي الطيب باسلوب بارع لطيف ، فلا يستخف بالناقد ، ولا ينزله منزلة الجاهل ، فيقول :

وقد تفقدت ما انكره اصحابك من هذا الديوان فوجدته اصنافا منها الفاظ نسبت الى اللحن في الاعراب وادُعي فيها الخروج عن اللغة ، ومعان وُصِفتْ بالفساد والاحالة ، وبالاختلال والتناقض ، واستهلاك المعنى . واخرى اُنكِر منها التقصير عن الغرض ، والوقوع دون القصد . وأَعْيَبُ ما فيها ما عَيبُه من باب التعقيد والعويص[1] ، واستهلاك المعنى ، وغموض المراد . ومن جهة بُعد الاستعارة ، والافراطُ في الصنعة . ثم يقول :

وقد حكيت من كل باب منها ما عَلِقته من كلام أصحابك وما قابلهم به خصومك ، ورأيت السلامة في ان اقتصر من هذه الوساطة على حسن التبليغ ، وتقريب العبارة ، وجمع المتفرق ، ثم أقف منكما حَجْزة واخرج عنكما صفرا قد أدّيت عن كل فريق ما تحمّلتُه وسَلِمتُ من الميل فيما تكلفته .

---

(١) والعويص من الشعر : ما يصعب استخراج معناه .

وكما لا أحكم على خصمك بالخطأ فى كل ما يذكره ، فكذلك لا أبعدك من الصواب فى أكثر ما تصفه . وجملة القول فى الابيات المنقودة واشباهها ، انه لو وُفّي فيها التهذيب حقه ، ولم يبخس التثقيف شرطه ، لا نقطعت عنها السن العيب ، وانسدت دونها طرق الطعن ، ولدخلت فى جملة أخواتها ، ولجرت مجرى اغيارها ، ولاستغنت عن تكلف البحث والتنقير ، واستغنى خصمك عن تمحل الحجج والمعاذير ، لكننا لم نجد شاعراً اشمل للاحسان ، والاصابة ، والتنقيح ، والاجادة ، كشعره أجمع . بل قلما تجد ذلك فى القصيدة الواحدة ، والخطبة الفردة . ولا بد لكل صانع من فترة ، والخاطر لا تستمر به الاوقات على حال ، ولا يدوم فى الاحوال على نهج . وقد قدمنا لك من شعر ابي نواس وابي تمام وغيرهما ما مهدنا به الطريق الى هذا القول . وأقمنا عَلَماً يُرجَع اليه فى هذا الحكم ، واعلمناك انه ليس بغيتنا الشهادة لابي الطيب بالعصمة ، ولا مرادنا ان نبرئه من مفارقة زلة ، وان غايتنا ان نُلحِقَه باهل طبقته ، ولا نقصر به عن رتبته ، وان نجعله رجلا من فحول الشعراء ، ونمنعك عن احباط حسناته بسيئاته ، ولا نسوّغ لك التحامل على تقدمه فى الاكثر بتقصيره فى الاقل ، والغض من عام تبريزه بخاص تعذيره .

ثم يتحدث الجرجاني عن الغلو فيقول : فاما الافراط فمذهب فى المحدثين وموجود عند كثير من الاوائل . والناس فيه مختلفون فمستحسن قابل ومستقبح رادّ وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ولم يتجاوز الوصفُ حدها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء فاذا تجاوزها اتسعت له الغاية وادته الحال الى الاحالة ، وانما الاحالة نتيجة الافراط وشعبة من الاغراق والباب واحد ولكن له درج ومراتب .

وعلى هذا النهج تكلم عن الافراط فى الاستعارة وبين قبحه حين يخرج

الشاعر بالاستعارة عن حد الاستعمال والعادة •

واخيراً ينتهي المطاف بابي حسن الجرجاني فى دفاعه عن ابي الطيب وتصديه لمآخذ العلماء عليه فيذكر الاشعار التي انكرها بعضهم ويبين الوجوه التي عابوها فيردها رداً جميلا مبينا صحتها وسلامتها وجريها على سمة ما جرى عليه فحول شعراء العربية الذين سبقوا ابا الطيب •

وبهذا الباب يختم الجرجاني رسالته الوساطة بين المتنبي وخصومه واني لاعترف ان تقريري هذا عن كتاب الوساطة تقرير موجز الى حد كبير لذلك انصح القارىء الكريم ان لا يكتفي به بل ارجو ان يطلب المزيد من كتاب الوساطة نفسه • اما سبب هذا الايجاز فالعذر فيه واضح جلي ذلك ان بحثي هذا ليس خاصا بموضوع الوساطة وانما هو بحث مقيد بمنهج يتناول حوالي ثلاثين ناقداً من الاقدمين والمحدثين والله ولي التوفيق •

أبو هلال العسكري

وكتابه الصناعتين

هو ابو الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري نسبة الى عسكر مكرم • وهي مدينة من كور الاهواز ، اختطها مكرم الباهلي[١] • وقد تلقى العسكري العلم فى بغداد والبصرة واصبهان[٢] ، وتوفى سنة ٣٩٥ هـ •

كان أبو هلال شخصية قوية جذابة لها أثرها العظيم فى اللغة العربية • وكان أبيّ النفس قوي القلب ، يترفع عن الدنايا ، وينأى بنفسه عما يرتطم فيه ادعياء الادب من كسب العيش عن طريق التزلف الى الامراء والرؤساء • وكان يتّجر فى الثياب احترازا من الفاقة والدناءة والتبذل[٣] • ولكنه كان قوي الشعور بأن تلك مهنة لا تليق به ولا بأدبه اليس هو القائل :

جلوسي فى سوق أبيع واشتري   دليل على أن الانام قرود
ولا خير فى قوم يذل كرامهم   ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويهجوهمو عنّي رثاثة كسوتي   هجاءً قبيحاً ما عليه مزيد

الظاهر انّ قوة شعوره بالحال التي هو فيها واعتزازهَ بادبه وطموحه الى المعالي ثم رؤيته لتمتع غيره بالجاه والثراء والسلطان ممن لا يدانيه فى ادبه وعلمه • كل ذلك جعله برما بالحياة والناسِ وجعله يكثر فى شعره من وصف هذا السخط المحتدم فى نفسه :

اذا كان مالي مال من يلقط العجم   وحالي فيكم حال من حاك أو حجم

---

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان ، ص ٢٣٥ جـ ١ •

(٢) تاريخ الادب العربى لجرجي زيدان ، جـ ٢ ، ص ٢٨٣ •

(٣) النثر الفنى للمرحوم زكي مبارك ، جـ ٢ ص ٩٦ • قرات فى هامش الجزء الثانى من

فاين انتفاعي بالاصالة والحجى وما ربحت كفي من العلم والحكم
ومن ذا الذي في الناس يبصر حالتي فلا يلعن القرطاس والحبر والقلم

* * *

ومن جميل ما يُروَى لابي هلال وصفه لكهولته ومشيبه ولما ينتظره من ضعف وسقام :

قد تخطاك شباب وتغشاك مشيب
فاتى ما ليس يمضي ومضى ما لا يثوب
فتأهب لسقام - ليس يشفيه طبيب
لا توهمه بعيدا انما الآتي قريب

* * *

كتاب الصناعتين

فى الكتابة والشعر

هذا الكتاب من تصنيف ابي هلال والذى دعاه الى تأليفه امور :

اولا ـ جلالة علم البلاغة والفصاحة ، الهادى الى معرفة اعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الايجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجعله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها ، وما الى الى ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها .

ثانيا ـ جنوح بعض الاعلام الى الكلام الرديء المرذول، وتركهم الجيد المقبول ، ظنا منهم الى ان التقعر في الكلام ، واستعمال الوحش العكر ، يرفع صاحبه الى مقام الخواص من الرجال .

ثالثا ـ معرفة بعض الكتب المشتملة على الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة ، والاخبار البارعة ، وما نبهت اليه من مقادير اصحابها فى البلاغة والخطابة ، وما كشفته عنهم من علم غزير ، وباع طويل ، في معرفة حسن البيان ، وجمال الكلام ، غير انهم جعلوا كل ذلك مبثوثا في تضاعيف تلك الكتب ، ومنتشرا فيها انتشار الازهار بين الادغال ، مما حمله على تنسيقها ونظمها فى كتاب الصناعتين بشكل يجمع شتات تلك الازهار ويوحّد بين هاتيك الثمار ، من غير تقصير واخلال ، واسهاب واهذار .

وقد جعله في عشرة ابواب ، مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا ، وجعل :

الباب الاول : في الابانة عن موضوع البلاغة في أصل اللغة وما يجرى معه من تصرف .

الباب الثاني : في تمييز الكلام جيده من رديئه ومحموده من مذمومه •

الباب الثالث : في معرفة صنعة الكلام •

الباب الرابع : في البيان عن حسن السبك وجودة الوصف •

الباب الخامس : في ذكر الايجاز والاطناب •

الباب السادس : في حسن الاخذ وقبحه ، وجودته ورداءته •

الباب السابع : القول في التشبيه •

الباب الثامن : في ذكر السجع والازدواج •

الباب التاسع : في شرح البديع والابانة عن وجوهه وفنونه •

الباب العاشر : في ذكر مقاطع الكلام ومبادئه ، والقول في الاساءة في ذلك والاحسان فيه •

ثم يعود يشرح معنى البلاغة فيقول :

البلاغة مأخوذة من قولهم بلغت الغاية اذا انتهيت اليها • وسميت البلاغة بلاغة لانها تنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمه والبلاغ ايضا التبليغ في قوله تعالى : « هذا بلاغ للناس » •

اما الفصاحة فمأخوذة من قولهم أفصح فلان عما في نفسه اذا أظهره • بدليل قول العرب افصح الصبح اذا اضاء وأفصح اللبن اذا انجلت عنه رغوته وقال بعض العلماء الفصاحة تمامُ آلة البيان • فعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين • وذلك ان الفصاحة مقصورة على اللفظ لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى • والبلاغة انما هي انهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى •

ويجوز مع هذا أن يُسمى الكلامُ الواحد فصيحا بليغا ، اذا كان واضح المعنى ، سهل اللفظ ، جيد السبك ، غير مستكره فج ، ولا متكلف وخم ، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء ، لما فيه من ايضاح المعنى ، وتقويم الحروف •

ويقول العسكري شهدت قوما يذهبون الى ان الكلام لا يسمى فصيحا حتى يجمع مع هذه النعوت فخامةً وشدة جزالة ، فيكون مثلَ قول النبي صلى الله عليه وسلم « الا ان هذا الدين متين ، فأوغلْ فيه برفق فان المنبتَ لا ارضا قطع ، ولا ظهرا ابقى » ، ومثل كلام الحسين بن علي رضى الله عنهما : (ان الناس عبيد الاموال ، والدين لغو على السنتهم ، يحوطونه مادرّت به معايشهم ، فاذا مُحّصوا بالابتلاء قل الديانون) .

وقالوا اذا كان الكلام يجمع نعوت الجودة ولم يكن فيه فخامةُ ، وفضلُ جزالة ، سُمّيَ بليغا ، ولم يسم فصيحاً ، كقول بعضهم وقد سئل عن حاله عند الوفاة فقال : ما حال من يريد سفرا بعيدا بلا زاد ، ويقدم على ملك عادل بغير حجة ، ويسكن قبرا موحشا بلا انيس . وكقول الآخر لأخ له : (مددتَ اليَّ المودةَ فشكرناك وشفعتَ ذلك بشيء من الجفاء فعذرناك ، والرجوع الى محمود الود ، اولى بك من المقام على مكروه الصد) .

ثم يأتي ببيتين لابراهيم ابن العباس :

تمر الصبا صفحا بساكنة الغضا ... ويصدع قلبي ان يهب هبوبها
قريبة عهد بالحبيب وانما ... هوى كل نفس حيث حلَّ حبيبها

فيقول ان البيت الاول فصيح وبليغ ، واما البيت الثاني فانه بليغ وليس بفصيح ، واستدل على صحة هذا المذهب بقول العاص بن عدي (الشجاعة قلب ركين ، والفصاحة لسان رزين) واللسان ها هنا معناه الكلام والرزين معناه الذي فيه فخامة وجزالة .

ولما انتهى العسكري الى تعريف البلاغة تعريفا علميا قال البلاغة ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك ، مع صورة مقبولة ، ومعرض حسن ، ثم قال : وانما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة ، لأن الكلام اذا كانت عبارته رثة ومعرِضه خَلِقا

لم يسم بليغا وان كان مفهوم المعنى ، مكشوف المغزى • ولو كان الامر غير ذلك للزم أن يكون كل الناس بلغاء ، حتى الاطفال ، لأن كل واحد لا يعدَم ان يدل على غرضه بعجمته ، أو لكنته ، أو ايمائه أو اشارته ، بل لزم أن يكون السنور بليغا لانا نستدل بضغائه[١] وصياحه ، على كثير من ارادته ، وهذا ظاهر الاحالة • ثم اننا نفهم رطانة[٢] السوقي ومجمجمة[٣] الاعجمي ، للعادة التي جرت لنا في سماعها ، لا لأن تلك بلاغة ، الا ترى ان الاعرابي ان سمع ذلك لم يفهمه ، اذ لا عادة له بسماعه وأراد رجل ان يسأل بعض الاعراب عن اهله : فقال كيف اهلِك فقال له الاعرابي صلبا اذ لم يشك انه انما يسأله عن السبب الذى يهلِك به ويموت • وقال الوليد بن عبدالملك لاعرابي شكا اليه ختناً له فقال من ختنَك ففتح النون ؟ فقال معذِّر في الحي اذ لم يشك في انه انما يسأله عمن ختنه •

ثم قال : ان اول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، واول آلات البلاغة جودة القريحة ، وطلاقة اللسان ، وذلك من فعل الله تعالى ، لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه ، واجتلابه لها • ومن الناس من اذا خلا بنفسه واعمل فكره أتَى بالبيان العجيب والكلام البديع المصيب واستخرج المعنى الرائق وجاء باللفظ الرائع واذا حاور أو ناظر قصّر وتأخّر فحق هذا الا يتعرض لارتجال الخطب وان لا يجارى اصحابَ البداهة فيميدان القريض ويكتفي بنتاج فكره •

والناس في صناعة الكلام على طبقات :

---

(١) الضغاء من السنور أي الهر صياحه ، ذكره في القاموس وقال الثعالبي في فقه اللغة (الضغاء للكلب اذا جاع) •

(٢) الرطانة بفتح الراء وكسرها الكلام بالاعجمية •

(٣) المجمجمة عدم التبين فيما يخبر به •

منهم من اذا حاورَ وناظرَ ابلغَ وأجادَ واذا كتبَ وأَملَى أخلّ وتخلّف .

ومنهم من اذا أملَى برَزَ واذا حاورَ أو كتبَ قصّر .

ومنهم من اذا كتبَ احسنَ واذا حاورَ واملَى اساء .

ومنهم من يحسن فى جميع هذه الحالات .

ومنهم من يسيء فيها كلها .

فأحسن حالات المسيء الامساك ، واحسن حالات المحسن التوسط .
فان الاكثار يورث المَلال وقلما ينجو صاحبه من الزلل والعيب والخطل .

وهكذا يجرى العسكرى فى تبيان وجوه البلاغة ، وضرب الامثلة البليغة شعرا ونثرا حتى يأتي الى الفصل الاول من الباب الثاني ، المتضمن تمييز الكلام الجيد من رديئه ، ونادره من بارده . وعنده ان الكلام يحسن بسلاسته ، وسهولته ، ونصاعته ، وتخير لفظه ، واصابة معناه ، وجودة مطالعه ، ولين مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشبه اعجازه بهواديه ، وموافقة مآخيره لمباديه ، مع قلة ضروراته ، بل عدمها اصلا ، حتى لا يكون لها فى الالفاظ أثر ، فتجد المنظوم مثل المنثور ، فى سهولة مطلعه ، وجودة منطقه ، وحسن رصفه ، وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه ، فاذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقا ، وبالتحفظ خليقا كقول الاول :

هم الاولى وهبوا للمجد انفسَهم ... فما يبالون ما نالوا اذا حُمِدوا

وكقول معن بن اوس :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي
واعلم اني لم تصبني مصيبةٌ ... من الدهر الا قد اصابت فتى قبلي
ولست بماشٍ ما حييتُ لمنكر ... من الامر لا يمشي الى مثله مثلي

ولا مؤثرٍ نفسي على ذي قرابـــة　　　وأوثِرُ ضَيْفِي ما أقام على أهلي

وكقول الشنفري :

اطيل مطـال الجـوع حتى أُميته　　　واضرب عنه الذكر صفحا فاذهل
ولولا اجتناب الذام لم يُلفَ مشرب　　　يُعـاش بـــه الا لَـدَيَّ ومأكل
ولكن نفسا حـــرة لا تقيـــم بي　　　على الضَيم الا رَيثَمـا أتحــول

ثم يقول اذا كان الكلام لفظه حلواً عذبا ، وسلسا سهلا ، ومعنـــاه وسطا ، دخل في جملة الجيد ، وجرى مع الشعر الرائع ، كقول الشاعر :

ولما قضينا من مِنـى كل حاجــة　　　ومســح بالاركان من هـو ماسـح
وشُدَّت على حدب المَهَارى رحالُنا　　　ولم ينظرِ الغادي الذى هـو رائح
اخذنا باطـراف الاحـاديث بيننـا　　　وسالت باعنـاق المطـى الاباطــح

وليس تحت هذه الالفاظ كبيرُ معنى وهي رائقة معجبة (وهي ولما قضينا الحج ومسحنا الاركان ، وشدت رحالنا على مهازيل الابل ، ولم ينظر بعضنا بعضا ، جعلنا نتحدث وتسير بنا الابل في بطون الاودية) .

واذا كان المعنى صـوابا ، واللفظ باردا ، وفاترا ، والفاتر شـر من البارد ، كان مُستَهجَناً ملفوظا ومذموما مردودا والبارد من الشعر قول الفند الزماني :

ايا تملكُ يا تمـــل　　　وذات الطوق والحجل
ذريني وذري عـذلي　　　فان العـــذل كالقتــل

وقول الآخر :

اما والحلـق الـــود　　　على سالفـة الخشف
وحسن الغصن المهـ ..... ـز بين النحر والردف
لقد اشفقت ان يجر ..... ح في وجنتها طرفي

ثم يقول العسكري : اذا كان الشعر لفظه سهلاً ومعناه مكشوفاً بيّناً فانه يدخل في جملة الرديء المردود ، ويَستَشهد بقول احدهم :

يا رب قد قلّ صبري ... وضاق بالحبُ صدري
واشتدّ شوقي ووجدي ... وسيدي ليس يدري
مغفل عن عذابي ... وليس يرحم ضري

وكقول ابى العتاهية :

مات والله سعيد بن وهب ... رحم الله سعيد بن وهب

ثم يقول ومن الكلام المطبوع السهل ، ما وقع به علي بن عيسى :

قد بلغتك اقصى طلبتك وانلتك غاية بغيتك وانت مع ذلك تستقل كثيري لك وتستقبح حسني فيك فانك كما قال رؤبة :

كالحوت لا يكفيه شيء يلهمه ... يصبح ظمان وفي البحر فمه

ومن المنظوم المطمع الممتنع قول البحتري :

ايها العاتب الذى ليس يرضى ... نم هنيئا فلست اطعم غمضا
ان لي فى هواك وجدا قد استه ...... لك نومي ومضجعي قد اقضا
فجفوني في عبرة ليس ترقى ... وفؤادي فى لوعة ما تقضّى
يا قليل الانصاف كم اقتضى عنـ ...... ـدك وعدا انجازه ليس يُقضَى
احيني بالوصال ان كان جودا ... وابنني بالحب ان كان قرضا
بأبي شادن تعلق قلبي ... بجفون فواتر اللحظ مرضى
لست انساه اذ بدا من قريب ... يتثنى تثنّيَ الغصن غضا
واعتذاري اليه حين تجافى ... لي عن بعض ما اتيت واغضَى

ومما هو اجزل من هذا قليلا وهو من المطبوع قول ابن وهب :

ما زال يلثمني مراشفه ... ويعلّني الابريق والقدح

حتى استرد الليل خلعته　　ونشا خلال سواده وضح

وبدا الصباح كأن غرته　　وجه الخليفة حين يمتدح

انت الذى بك ينقضى فرجا　　ضيق البلاد لنا وينفسح

نشرت بك الدنيا محاسنها　　وتزينت بصفاتك المِدح

ومن السهل المختار الجيد المطبوع قول الشاعر :

صرفت القلب فانصرفا　　ولم ترع الذى سلفا

وبنت ولم اذُب كمدا　　عليك ولم امت اسفا

كلانا واجد فى النا　　س ممن ملّه خلفا

وكقول الآخر :

ان كان اُعطِى اصطبارا　　فلست املك صبري

انا الفدا لغزال　　دنا فقبّلَ نَحري

وقال لي من قريب　　ياليت بيتَك قبري

اظن ان ما قدمته من آراء وامثال العسكري حول جودة الكلام ورداءته من النواحي التعبيرية فيه الكفاية • فلنبحث الآن فى الفصل الثاني من الباب الثاني فى تنبيهاته على خطأ المعاني وصوابها • فيقول :

ان الكلام الفاظ ، تشتمل على معان ، تدل عليها ، ويعبر عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة الى اصابة المعنى لحاجته الى تحسين اللفظ ، لأن المدار بعدُ على اصابة المعنى ، ولأن المعاني تحلُ من الكلام محلَ الابدان ، والالفاظ تجري معها مجرى الكسوة ، ومرتبة احداهما على الاخرى معروفة ••• ومن عرف ترتيب المعاني واستعمالَ الالفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ثم انتقل الى اخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له فى الاولى •• ألا ترى ان عبدالله الكاتب ، استخرج امثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي ؟ فحوّلها الى اللسان العربي ••• فلا يكمل لصناعة الكلام

الا من يكمل لاصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال .

ثم قال : والمعاني على ضربين : ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير ان يكون له امام يقتدى به فيه ، أو رسوم قائمة فى أمثلة مماثلة يعمل عليها ... وهذا الضرب ربما يقع عليه عند الخطوب الحادثة ، ويتنبه له عند الامور النازلة والطارئة ، والآخر ما يحتذيه على مثال تقدم ، ورسم فرط .

وينبغي ان يطلب الاصابة فى جميع ذلك ، ويتوخى فيه الصورة المقبولة ، والعبارة المستحسنة ، ولا يتكل فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره اياه ، ولا يغره ابتداعه له فيساهل نفسه فى تهجين صورته ؛ فيذهب حسنه ويطمس نوره ويكون فيه اقرب الى الذم منه الى الحمد ...

والمعاني بعد ذلك على وجوه :

منها ما هو مستقيم قبيح نحو قولك قد زيدا رأيت ؛ وانما قَبُحَ لأنك أفسَدْتَ النظام بالتقديم والتأخير .

ومنها ما هو مستقيم النظم وهو كذب مثل قولك حملت الجبل وشربت ماء البحر .

ومنها ما هو محال كقولك أتيك امسِ واتيتك غدا . وكل محال فاسد وليس كل فاسد محال ... الا ترى ان قولك قام زيدِ بكسر الدال من زيد فاسد وليس بمحال ..والمحال ما لا يجوز كونه البتة كقولك الدنيا فى بيضة . واما قولك حملت الجبل واشباهه فكذب وليس بمحال ان جاز ان يزيد الله فى قدرتك فتحمله .. ويجوز ان يكون الكلام الواحد كذبا محالا وهو قولك رأيت قائما قاعدا ومررت بيقظان نائم فتصل كذبا بمحال ؛ فصار الذى هو الكذب هو المحال بالجمع بينهما ، وان كان لكل واحد منهما معنى على حياله وذلك لما قد عقد بعضها ببعض حتى صارا كلاما واحدا .

ومنها الغلط وهو أنْ تقول : ضربني زيد وانت تريد ضربت زيدا فغلطت فان تعمدت كان كذبا •

ثم يقول : وللخطأ صور مختلفة نبهت على اشياء منها لتقف عليها فتجتنبها كما عرفتك مواقع الصواب فتعتمدها • ومن لا يعرف الخطأ كان جديرا بالوقوع فيه • فمن ذلك قول المرقش :

صحا قلبه عنها على ان ذكرة اذا خطرت دارت به الارض قائما

وكيف صحا عنها من اذا ذكرت له دارت به الارض ؟

وقول امرىء القيس :

اغرك مني ان حبك قاتلي وانك مهما تأمري القلب يفعلِ

وماذا يغر المرأة اكثر من شدة حب الرجل لها ؟

وقوله :

فللسوط الهوب وللساق درة وللزجر منه وقع اخرج مهذب

فلو وصف اخسّ حمار واضعفه ما زاد على ذلك •

وكقول الاعشى :

ويأمر لليحموم كل عشية بقت وتعليق فقد كاد ينسق

يعني باليحموم فرس الملك يقول انه يأمر لفرسه كل عشية بقت وتعليق وهذا مما لا يمدح به الملوك بل ولا رجل من خساس الجند •• وقريب من هذا قول الاخطل :

وقد جعل الله الخلافة منهم لا بلج لا عارى الخوان ولا جدب

يقول هذا القول في عبدالملك بن مروان • ومثل هذا لا يمدح به الملوك • واطرف منه في الخطأ قول كثير :

وان امير المؤمنين برفقه غزا كامنات الود مني فنالها

فجعل امير المؤمنين يتودّد اليه ..

وقوله لعبدالعزيز بن مروان :

وما زالت رقاك تسل ضغني   وتخرج من مكامنها ضبابي
ويرقيني لك الراقون حتى   اجابت حية تحت الترابي

ان الملوك لا تمدح بمثل هذا وانما تمدح بمثل قول الشاعر :

له همم لا منتهى لكبارها   وهمته الصغرى اجل من الدهر
له راحة لو ان معشار جودها   على البر كان البر أندى من البحر

ومثل هذا قول النابغة في النعمان :

فانك كالليل الذى هو مدركي   وان خلتُ ان المنتأى عنك واسع

وقوله :

الم تر انالله اعطاك سورة   ترى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب   اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ومن غفلة كثيّر ايضا قوله :

الا ليتنا يا عزّ من غير ريبة   بعيران نرعى فى خلاء ونعزب
كلانا به عُرٌ فمن يرنا يقلْ   على حسنها جرباء تعدى واجرب
نكون لذى مال كثير مغفل   فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب
اذا ما وردنا منهلا هاج اهله   الينا فلا ننفك نُرمى ونُضرب

فنقدته عزة فقالت له : لقد اردت بي الشقاء الطويل :

ومن التمني المذموم ما هو اوطأ من هذه الحال . من ذلك قول الآخر

سلامّ ليت لسانا تنطقين به   قبل الذى نالني من خبله قُطِعا(1)

---

1) الخبل بالتسكين الفساد وهنا معناه فساد قلبه بحبها . والبيت اورده قدامة ابن جعفر فى كتابه نقد الشعر هكذا :

سلام ليت لسانا تنطقين به   قبل الذى ناله من صوته قطعا

ومن ذلك قول جنادة :

من حبهـا اتمنـى ان يلاقيني   من نحو بلدتهـا نـاع فينعاهـا
لكي يكون فـراق لا لقاء لـه   وتضمر النفس يأسـا ثم تسلاهـا

فاذا تمنى المحب لحبيبته الموت فماذا عسى ان يتمنى المبغض لبغيضته ..

وشتان بين هذا وبين من يقول :

الا ليتنـا عشـنا جميعـا وكان بي   من الـداء ما لا يعرف الناس ما بيا

فهذا أقرب الى الصواب ولو ان جنادة كان يتمنى وصلها ولقاءها لكان قد قضى وطرا من المنى ولم تلزمه الهجنة . كما قال عباس بن الاحنف :

فان تبخلـوا عني ببـذل نوالكـم   وبالوصل منكم كي اصب وأحزنا
فاني بلـذات المـنى ونعيمهـا   أعيش الى ان يجمع الله بيننـا

ثم قال ومن المختار فى ذكر المنى قول الآخر :

منىً ان تكن حقا تكن أحسن المنى   والا فقد عشنا بها زمنـا رغـدا
امانيَّ مـن ليلى حسـان كأنمـا   سـقتك بها ليلى على ظمـأ بـردا

وكقولـه :

ولمـا نزلنـا منزلا طلّـه النـدى   انيقا وبستانا من النَّـور حاليـا
أجـد لنـا طيب المكان وحسـنه   منـى فتمنينـا فكنت الامانيـا

وكقولـه :

فسوفيني المنى كيمـا أعيش بـه   ثم امسكي المنـع ما اطلقت آمالي

وهكذا يظل ابو هلال العسكري يسرد ابياتا من الشعر وأقوالا من النثر حتى يستوفي الغاية التي أراد تحقيقها فى هذا الباب .

الفصل السابع

أبو العلاء المعري

٣٦٣ ـ ٤٤٩

هو أحمد بن عبدالله بن سليمان من عرب تنوخ الذين جاؤا من اليمن الى بلاد الشام ، ولد في اسرة معروفة بالعلم والادب والجاه والقضاء. ولما بلغ ثلاث سنين أُصيبَ بالجُدَري ، وبسببه فقد بصرَه فنشأ ضريراً لا يعرف غير اللون الاحمر ، لانه البسوه في أثناء مرضه ثوبا أحمر .

ولما أدرك سِنَّ التعلم لقنَه أبوه علوم العربية حتى أتقنها وشغف بها . مات أبوه وهو في الرابعة عشرة من عمره فرثاه بقصيدته المشهورة التي يقول فيها :

نقمت الرضا حتى على صاحب المزن
فلا جادني الاعبوس من الدجن
أبِى حكمت فيه الليالى ولم تزل
رماح المنايا قادرات على الطعن
مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى
وسُهد المُنى والجيب والذيل والردن
فيا ليت شعري هل يخِفَّ وقارُه
اذا صار أُحْدٌ في القيامة كالعهن
وهل يَرد الحوضَ الرويَّ مبادراً
مع الناس أم يأبى الزحام فيستأني

ثم طمحت نفسه الى الاستكثار من العلوم والمعارف ، وفي سنة (٣٩٢) غادر المعرة فرحل الى طرابلس الشام ، وكانت بها خزائن كتب قد وقفها ذو اليسار من أهلها ، فاجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس ، وكان به راهب يشدو شيئاً من علوم الاوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أقوال الفلاسفة ، حصل له به شكوك لم يكن يوم ذاك عنده ما يدفعها به ، فعلق بخاطره ما حصل به بعض الانحلال ، وضاق عطنه عن كتمان ما تحمله من ذاك . حتى فاه به في أول عُمُره ، وأودعه اشعارا لـه ، ثم ارعـوى ورجع واستغفر واعتذر . ووجه لاقواله وجوها احتملها التأويل .

وكذلك طمحت نفسه للرحيل الى بغداد مجتمع أهل العلم ، وموطن بقية السلف ، وعاصمة العواصم العربية ومنتدى العلوم الفلسفية ، فرحل اليهـا لا يخشى عناء السفر ، ولا يقعد بـه بعـد الطريق ، وكانت سنه يـوم ذاك خمساً وثلاثين سـنة ؛ ابتغاء أن يدرس الحكمـة اليونانيـة والفلسفة الهندية .

ولما وصل بغداد ، واستقر به المقام أخذ يراجع دور العلم ويتعرف الى علمائها وادبائها . فدخل علي المرتضى أبي القاسم نقيب أشراف بغداد ؛ فقربه المرتضى وأدناه واختبره فوجده عالماً مشبعاً بالفطنة والذكاء ؛ فأقبل عليه اقبالا شديداً .

وكان المعري يتعصب لابي الطيب كثيراً ، ويفضله على بشـار وابي نواس وابي تمـام ، والمرتضى يُبغضه ويتعصب عليـــه ، فجرى يومـاً ذكره ، فتنقّصـه المرتضى ، وجعل يتتبع عيوبه . فقال المعري : لو لم يكن للمتنبي من الشعر الا قوله :

---

(١) عطنه ـ جلده ـ .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص (٣٠) .

(لك يا منازل فى القلوب منازل   اقفرت أنت وهُنَّ منك أواهل)

لكفاه فضلا وشرفا ؟ فغضب المرتضى عليه ، وأمر باخراجه من مجلسه ، وقال لمن بحضرته : أتدرون أيَّ شيء أراد هذا الاعمى بذكرهذه القصيدة ؟. فان لابى الطيب ما هو أجود منها ، فقال الحاضرون:النقيب أعرف ، فقال: أراد قول المتنبي :

واذا أتتك مذمتي من ناقص   فهى الشهـادة لى بأنى كامل(٣)

وهكذا ظل أبو العلاء فى بغداد قرابة سنة وسبعة أشهر ، استفاد منها علما وأدبا وفلسفة وصداقة قوم أجلاء منهم أبو حامد الاسفرايينى الفقيـه الشافعي، وخازن دار العلم الذى فتح له خزانته،كما فتح صدره لصداقته.

وفى أثناء مكوثه فى بغداد ، أخذ الطلاب البغداديون يدرسون عليه ويرتشفون من علمه وأدبه ، حتى ارتفـع ذكره وظهـرت آراؤه وتوثقت علاقته بكبار الفلاسفة الذين كانوا يجتمعون فى دار أبي أحمد عبدالسلام ابن الحسن البصرى كل جمعة .

وكانت له مع هؤلاء الطلاب والاصدقاء ذكريات حسنة وعلاقات طيبة وقال فى ذلك قصائد رقيقة مدونة فى كتابه (سقط الزند) منها قصيدة أجاب بها أبا على النهاوندى ، أولها :

الا قـامت تجـاذبني عنـانى   وتسـألني بعـرصتهـا مقيلا
كفى بشحوب أوجهنا دليلا   عـلى أزماعنـا عنك الرحيلا

---

(٣) كتاب تعريف القدمـاء بأبي العلاء ص ٢٨٧ نقـلا عن كتـاب نكت الهميان .

كلفنا بالعراق ونحن شرخ — فلم نلمم به الا كهولا
وشارفنا فراق أبي عليّ — فكان أعزّ داهية نزولا
وقد كافأت شعر بشعر — ولكن حاز من بدأ الجميلا
بهرت ويوم عمرك في شروق — فدام ضحى ولا بلغ الاصيلا
وردنا ماء دجلة خير ماء — وزرنا أشرف الشجر النخيلا
وزُلنا بالغليل وما اشتفينا — وغاية كل شيء ان يزولا
ولو لم ألق غيرك في اغترابي — لكان لقاؤك الحظ الجزيلا
ستحمل ناجيات العيس مني — صديقا عن ودادك لن يحولا
يؤمل فيك اسعافَ الليالي — وينتظر العواقبَ أن تديلا(٤)

وبينما هو في طريق عودته الى معرة النعمان وافاه نبأ موت امه ، وكانت لها منزلة كبيرة في نفسه فرثاها بقصيدة عصماء أولها :

سمعت نعيّها حمّى حمامِ(٥) — وان قال العواذل لا همام
وأمّتني الى الاجداث أمّ — يعز عليّ ان سارت أمامي
ومن لي أن أصوغ الشهب شعراً — فألبس قبرها سمطي نظام
مضت وقد اكتهلت فخلت أني — رضيع ما بلغت مدى الفطام
فيا ركبَ المنون أما رسولُ — يبلّغ روحها ارجَ السلام

وحين وصل أبو العلاء معرة النعمان لزم بيته ، وسمّى نفسه

---

(٤) كتاب سقط الزند ص ١١٣ .
(٥) حمّى حمام – أى اشتدى أيتها المصيبة الداهية فى الفضاعة يا حمام ، وحمام مبنية على الكسر كفطام وحذام . وقوله لا همام أى أقلل من همك وحزنك .

رهين المحبسين • بل رهين ثلاثة حبوس • يعني حبس نفسه في المنزل وحبس عينيه بالعمى ، وحبس روحه في جسده ، وقد قال في ذلك شعراً •

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن النبأ النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث

وكان أبو العلاء وجيها في بلده ، محترماً لدى خاصة الناس وعامتهم• لقد جاء في كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء[٦] ، نقلا عن كتاب انباه الرواة على انباه النحاة : ان صالح بن مرداس صاحب حلب ، خرج الى المعرة وقد عصى عليه أهلها • فنزل عليها ، وشرع في قتالها ، ورماها بالمناجيق ، فلما أحس أهلها التغلب سعوا الى أبي العلاء ، وسألوه الخروج اليه ، والشفاعة فيهم عنده ، فخرج متوكئاً على يد قائد له • وقيل لصالح قائد الحملة ان باب مدينة المعرة قد فتح ، وخرج منها رجل يقاد كأنه أعمى، فقال صالح : هو أبو العلاء ، بطلوا القتال ، الى أن نرى في أي أمر جاء ، فلما وصل الى الخيمة أذن له ، وأكرمه عند دخوله عليه ، وعرفه شوقه الى نظره • ولما استقر بمجلسه قال له : ألك حاجة ؟ فقال له أبو العلاء : الامير ـ أطال الله بقاءه ـ كالسيف القاطع لان متنه ، وخشن حداه ، وكالنهار الماتع قاظ وسطه ، وطاب ابراده (خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين) : فقال له صالح : قد وهبتها لك يا أبا العلاء • ثم قال له صالح: أنشدنا شيئاً من شعرك يا أبا العلاء لنرويه عنك • فانشد ارتجالا في المجلس :

تغيبت في منزلي برهة ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا الأقل وحم لروحي فراق الجسد

---

(٦) ص ٣٥ •

بُعِثت شفيعاً الى صالح   وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع منّيَ سجع الحَمام   وأسمع منه زئير الأسد

فقال صالح : بل نحن الذين تسمع منا سجع الحمام ، وأنت الذى نسمع منك زئير الاسد ، ثم أمر بخيامه فوضعت ، وبأثقاله فرفعت ، ورحل عنها .

فرجع أبو العلاء الى المعرّة وهو ينشد :

نَجَّى المعرة من براثن صالح   رب يُداوي كل داء معضل
ما كان لي فيها جناح بعوضة   الله الحفهم جناح تفضّل

وبقي في المعرة يدرس ويملي ويؤلف الى أن وافاه الاجل يوم الجمعة الثانى من شهر ربيع الاول سنة تسع وأربعين وأربعمائة هجرية .

ذكاء أبي العلاء

أجمعت الرواة على أن أبا العلاء كان على غاية من الذكاء والفطنة والالمعية ، فكان لا يسمع شيئا الا حفظه ولا يمارس علما الا أتقنه حتى صار نادرة زمانه لغة وعلما وأدبا .

وللناس فى المعيته قصص يتجاوز حد الخيال . فقد روى أبو زكريا التبريزي[٧] انه كان قاعدا في مسجده بمعرة النعمان بين يديه يقرأ عليه شيئا من تصانيفه . قال : وكنت قد أتممت عنده سنتين ولم أر أحدا من بلدى ، فدخل المسجد بعض جيراننا للصلاة فرأيته وعرفته وتغيرت من الفرح ، فقال لي أبو العلاء : ما أصابك؟ فحكيت له اني رأيت جاراً لي بعد أن لم ألق أحدا من بلدى منذ سنتين . فقال لي : قم وكلمه فقلت : حتى أتم الدرس . فقال قم أنا انتظرك فقمت وكلمته بالاذربيجية شيئا كثيرا الى أن سألت عن كل

(٧) كتاب الانصاف والتحري لابن العديم .

ما أردت فلما عدت وقعدت بين يديه قال لي أى لسان هذا ؟ قلت هـــذا لسان أهل أذربيجان فقال ما عرفت اللســان ولا فهمتــه غـير اني حفظت ما قلتما ثم أعاد لفظنا بلفظ ما قلناه • فجعل جارى يتعجب غـايـة العجب وكيف حفظ شيئاً لم يفهمه ؟

وقد تحدث هبة الله بن موسى المؤيد في الدين وكان بينه وبين أبي العلاء صداقة ومراسلة قال : كنت أسمع من أخبار أبي العلاء من البسطة في علم اللسان ما يكثر تعجبي منه فلما وصلت المعرة حضرت اليه واتفق حضور أخي معي ، وكنت بصدد أشغال يحتاج اليه المسافر فلم أسمـح بمفارقته ، والاشتغال بها ، فتحدث معي أخي باللسان الفارسي فأرشدته الى ما يعمله فيها ثم عدت الى مذاكرة أبي العلاء ، فتجارينا الحديث الى أن ذكرت ما وصف به من سرعة الحفظ ، وسألته أن يريني من ذلك ما أحكيه عنه • فقال خذ كتابا من هذه الخزانة قريبة منك ، واذكر أوله فاني أورده عليك حفظا • فقلت كتابك ليس بغريب ان حفظته • قال قد دار بينك وبين أخيـك كلام بالفارسية ان شئت اعدته قلت أعـده ، فأعاده وما أخل والله بحرف منه ولم يكن يعرف الفارسية •

قال أبو منصور الثعالبي(٨) حدثني أبو الحسن الشاعر قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب • رأيت أعمى شاعرا ظريفا يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن من الجد والهزل يكنى أبا العـلاء وسمعته يقول : أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر ، فقد صنع لي وأحسن بي اذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء •

ولقد حضرت مجلسه يوما وهو يملي في جواب كتاب ورد عليه من

---

(٨) تتمة اليتيمة : جعله الثعالبي تتمة لكتابه يتيمة الدهر استدرك فيه بذكر من فاته في اليتيمة من أعيان عصره •

بعض الرؤساء :

وافى الكتاب فأوجب الشكرا — فضممته ولثمته عشرا
وفضضته وقرأته فاذا — أحلى كتاب في الورى يقرا
فمحاه دمعي من تحدره — شوقا اليك فلم يدع سطرا

فحفظتها واستعملتها كثيرا في مكاتبات الاخوان .

فلسفة المعري

الفلسفة علم وظيفته البحث فى النتائج الكلية التى وصل اليها النظر في العلوم المختلفة ثم تمحيصها ونقدها وتصفيتها من شوائب الخطأ ثم التوفيق بينها ثم محاولة الوصول الى قانون عام ينتظم هذا العالم ويفسر جميع ما يصدر عنه من أحداث ومظاهر(٩) .

وبالنظر لهذه المفاهيم والاهداف لا نستطيع أن ندعي أن أبا العلاء المعري كان فيلسوفا بالمعنى العلمي . ذلك لان للفيلسوف منهاجا مفصلا يتناول البحث في الوجود ما خفى منه وما ظهر مبينا علل هذا الكون ونتائجه على أساس علمي وبحسب ما تقتضيه طبائع الاشياء لا بحسب ما يتصوره الانسان عن طريق الحدس والخيال . ان التصورات وحدها أصبحت فى نظر الفلسفة المبنية على صدق النظر وصدق التجربة غير كافية لحشرها في قضايا الفلسفة ذات المنهاج المؤدي الى اثبات حقيقة كونية أو اجتماعية أو اقتصادية ثبتت صحتها بالادلة القطعية . وغاية ما يقال فى فلسفة المعرى انها مجموعة نظرات تناولت البحث في الديانات والعادات وفي ما وراء الطبيعة واصول الاجتماع وفى الحياة والموت . وقد ظهرت هذه الافكار فى

---

(٩) تاريخ الفلسفة ، تاليف الاستاذين محمد علي مصطفى وخيرالدين عبده ، ص ١٦ .

اشعاره ورسائله بشكل يدل على ان المعرى كان متأثرا بفلسفات هندية ويونانية ومسيحية أورثته التقشف والزهد وبث في نفسه التشاؤم والتشكك ومقت الحياة حتى قيل انه أوصى قبيل موته أن يكتب على قبره :

« هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد »

وعلى ذلك فان المعرى ليس فيلسوفاً بالمعنى العلمي ولكنه أطلق آراء لها علاقة وثيقة بالابحاث الفلسفية . تلك الآراء التي استقاها من مختلف الديانات والقت به في ظلام من الحيرة في بعض الاحيان .

ان الشرائع القت بيننا اِحَناً وأورثتنا أفانينَ العـدوات

نعم للمعري آراء فلسفية تناولت العدم والوجود والحياة والموت والنظام والحكم والعادات والتقاليد والشك واليقين والايمان والالحاد ، تناولت كل ذلك بشكل لمحات عقلية ، وخواطر وجدانية دلت على فرط ذكائه وصدق فراسته ، كما دلت على تبرمه وشدة حيرته ، لذلك نراه في بعض الاحيان لا يقطع برأيه ولا يطمئن الى ما توسوس به نفسه .

يرى الدكتور طه حسين أن تردده هذا ان دل على شيء فانما يدل على الشك والحيرة اللذين كانا يصيبان أبا العلاء حين كان يحكّم عقله في أشياء لا يحسن العقل وحده ان يحكم فيها . فمن ذلك قوله :

قـال المنجـم والطبيب كلاهمـا لا تحشر الاجسام قلت اليكمـا
ان صح رأيكما فليس بضائري أو صح رأيي فالخسار عليكمـا

ومعنى هذا انه كان يخالف الفلاسفة في انكار بعث الاجسام ولكنه على ذلك لم يكن يقطع برأيه بريئاً من الشك(١٠) ، ثم قال :

والذى حارت البرية فيـه حيوان مستحـدث من جمـاد

---

(١٠) مقدمة الدكتور طه حسين لاثار أبي العلاء المعري .

والليب اللبيب من ليس   يغتر بكون مصيره للفساد

ولقد نظر أبو العلاء في اصول الحكم والاجتماع فرأى ما يخالف العدل ويجافي الحق رأى حكاما يظلمون شعوبهم ويحكمون بما لا يرضاه الواجب ولا يتفق مع المصلحة العامة فقال :

ايمان المعري(١١)

قال الحافظ السلفي : مما يدل على صحة عقيدة أبى العلاء ما سمعت الخطيب حامد بن بختار النميرى بالسمسانية ـ مدينة الخابور ـ قال : سمعت القاضى أبا المهذب عبدالمنعم بن أحمد السروجي يقول : سمعت أخي القاضى أبا الفتح يقول :

دخلت على أبى العلاء التنوخي بالمعرة ذات يوم فى وقت خلوة (بغير علم منه) وكنت أتردد اليه وأقرأ عليه ، فسمعته وهو ينشد من قبله :

كم بُودرتْ غادةٌ كَعابٌ   وعُمِّرت امُها العجوز
أحرزها الوالدان خوفاً   والقبر حرزٌ لها حريز
يجوز أن تبطىء المنايا   والخلد فى الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات وتلا « ان فى ذلك لآية لمن خاف مقام عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ، وما نؤخره الا لاجل معدود ، يوم يأت لا تَكَلَّمُ نفس الا باذنه فمنهم شقيٌ وسعيد » . ثم صاح وبكى بكاء شديداً وطرح وجهه على الارض زماناً ثم رفع رأسه ومسح وجهه فقال :

« سبحانَ من تكلم بهذا فى القدم ، سبحانَ من هذا كلامه » .

---

(١١) الجزء الرابع من كتابه الحديقة ص ٢٥٤ سنة (١٣٤٦)هـ .

فصبرت ساعة ، ثم سلمت عليه ، فردَّ عليَّ وقال : متى أتيتَ ؟ فقلت : الساعةَ .

ثم قلت يا سيدي أرى في وجهك أثر غيظ .

فقال لا يا أبا الفتح ، بل انشدت شيئاً من كلام المخلوق ، وتلوت شيئاً من كلام الخالق ، فلحقني ما ترى .

فتحققت صحة دينه ، وقوة يقينه .

* * *

وقال محمد بن علي المقرىء الكازروني بالاهواز :

دخلنا على أبي العلاء المعري بعد منصرفنا من مكة ونحن جماعة فسألنا عن أسمائنا ، وبلداننا ، وصنائعنا ، فانتسب كل واحد منا . فلما سألني عن صناعتي قلت : أنا قارىء . قال : فاقرأ لي آية من كتاب الله تعالى . فقرأت (يوم نقول لجهنم هل امتلأتِ ؟ وتقول هل من مزيد؟). فبكى بكاء شديداً ثم أمر لنا بدريهمات ، وقال : اصرفوها في البلس (يعني التين) فانه أوانه . فسألناه أن ينشدنا شيئاً من الشعر . فأنشدنا :

يغدو الفقير وكل شيء ضده والارض تُغلِق دونه أبوابها

* * *

ومن بدائع شعره في اللزوميات مما يدل على ايمان المعري وتمسكه بربه قوله :

مولاك مولاك الذى ماله نِدٌ وخاب الكافر الجاحد
آمن به والنفس ترقى وان لم يبق الا نَفَس واحد
ترجو بذاك العفو منه اذا أُلحِدتَ ثم انصرف اللاحد

* * *

شاعرية المعري

المعري شاعر فذ بليغ شَغَل شعرُه الناسَ وشُغِفوا به منذ زمانه حتى يومنا هذا ، وكان أكثر شعره في الفخر والمدح والوصف والرثاء والفلسفة . ولم يكترث بشعر المجون والخمر والهجاء ، بل عُنِيَ عناية كبيرة بمعان انسانية عالية ، ميزته عن غيره من الشعراء ممن تقدمه أو جاء بعده . فنظم فى طبائع الناس ، وقواعد الاجتماع ، وظلم الحكام ، وما جاءت به الشرائع والاديان من مبادىء وأفكار وقد قسَّمَ مؤرخو الادب شعره الى قسمين ، شعر الشباب ، وشعر الكهولة .

أما شعره في شبابه فكان كثير الاندفاع ، صريح العبارة ، كثير المبالغة قوى الخيال ، قليل العناية بقواعد اللغة ، يشوبه شيء من التكلف والتقليد ، تجد ذلك ماثلا فى كتابه (سقط الزند) .

* * *

وأما شعره في كهولته المجموع في اللزوميات فانه زاخر بالحكمة والفلسفة والزهد والاناة ونقد الحياة ، تحدث فيه عن عادات الناس ، وأخلاقهم عن مجاملتهم ومكرهم ونفاقهم ، وهو فى كل ذلك تجد عليه مسحة من الحيرة والاضطراب ، كما تجد عليه طابع الجزالة والبداوة .

وصفه أحمد بن علي فى كتابه تاريخ بغداد قال : كان أبو العلاء التنوخي[١٢] الشاعر من أهل معرة النعمان حسن الشعر ، جزل الكلام ، فصيح اللسان غزير الآداب حافظا لها[١٣] .

---

(١٢) التنوخى ـ منسوب الى تنوخ ، وهو اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديما بالبحرين ، وتحالفوا على التوازر والتناصر ، وأقاموا هناك . فسموا تنوخا . والتنوخ الاقامة . ومن هذه القبائل جماعة نزلت معرة النعمان .

(١٣) كتاب ـ انباه الرواة على انباه النحاة . ص ٤٧ .

من الاجحاف بحق هذا الشاعر الكبير أن ندعي بأننا سنحيط بجميع مزاياه الشعرية ، وسنوفيه ما يستحق من الاكبار والاجلال ، لان ذلك فوق ما يتحمله غرض هذا الكتاب ، وخارج عن نطاق هذا البحث .

عاش المعرى ستاً وثمانين سنة ، وقال الشعر وعمره أربع عشرة سنة. فمعنى ذلك انه كان يقول الشعر حوالي سبعين عاما . فهل نتمكن من الاحاطة بكل ما قال . وهل يستطيع الباحث أن يلم بجميع مزاياه فى مقال ؟ هذا محال .

* * *

الوصف

ان أعجب العجب فى المعرى انه وصف أشياء عجز عن وصفها المبصرون من الشعراء ، ان الذى نعلمه ان آلة التصوير تصوّر ما ينعكس على عدستها من المرئيّات . أما انها تصور ما لا تبصره عدستها فهذا مما لا يستسيغه منطق العلم ، ولا يدخل فى نطاق العقل .

اذن فما تعليل ما جاء به المعرى من الصور الحسية العجيبة التى لم ترها عينُه ؟ اللهم الا ان نقول : انه من صنع العبقرية العربية .

علّلاني فان بيض الاماني ... فنيت والظلام ليس بفاني
فكأنّي ما قلت والبدر طفل ... وشباب الظلماء فى عنفوان
ليلتى هذه عروس من الز ... نج عليها قلائد من جُمان
وكأنّ الهلال يهوى الثريا ... فهما للوداع معتنقان
قال صحبي في لجتين من الحنـ ... ـدُس والبيد اذ بدا الفرقدان
نحن غرقى فكيف يُنقِذُنا نجمان ... في حومة الدجى غرقان
وسهيل كوجنة الحب فى اللو ... ن وقلب المحب في الخفقان
يسرع اللمح في احمرار كما تسـ ... ـرع في اللمح مقلة الغضبان
قدماه وراءه وهو في العجـ ... ـز كساعٍ ليستْ له قدمان

ثم شاب الدجى وخاف من الهـ.. ـجر فغطى المشيبَ بالزّعفران
ونضا فجرُه على نسره الوا قع سيفاً فهمّ بالطيران

في كل بيت من هذه الابيات التى سقناها صور بديعة لو شرحناها لفسد معناها دون أن نوفيها حقها . فالاولى أن نتركها مطلقة ليتقراها الخيال ، ويتمتع بها السمع والوجدان .

حقاً ان المعرى أتى بصور ذات الوان مختلفة ، وذات حركات متخالفة لم يأت بها من تقدمه ، ولم يلحق بشأوها من تأخر زمانه عنه .

* * *

الرثاء

ان طبيعة الرثاء فى نفس أبى العلاء لازمته منذ طفولته ولم تفارقه طوال حياته . العمى ، واليتم ، والفقر من جهة ، والفطنة ، والعبقرية واحتدام الطموح فى نفسه من جهة اخرى . كل ذلك بث فى روعه الحزن والجزع وجعله متبرماً بالحياة ساخطاً على نفسه ، وعلى الناس ، وعلى الذين انجبوه وكانوا سببا في وجوده . أليس هو الذى أوصى أن يكتب على قبره بعد موته .

هذا جناه عليّ أبي وما جنيتُ على أحد

ثم هل الرثاء الا تنفيس عن الكرب العظيم . والالم الدفين ؟ لذلك اذا قرأنا شعر الرثاء عند أبي العلاء وانعمنا النظر فيه وتأملنا مليا فسوف نحس بصرخة النوح تجلجل في رثائه ونسمع صوت البكاء يتفجر من قوافيه ولامر ما قال الاستاذ أحمد ابراهيم الشريف : الرثاء فن أبي العلاء ، قبل كل فن سواه . فهو فى العربية شاعر الرثاء وفيلسوف الحياة بلا مراء(١٤) .

---

(١٤) كتاب تراث الانسانية ، المجلد الثانى ص (٦٥) .

خُلُوٌ فؤادي بالمودة اخلال — وابلاءُ جسمي في طِلابك ابلال
ولي حاجةٌ عند المنيةِ فكُنها — بروحيَ والاهواءُ مذ كنَ أهوال
اذا متُ لم أحفلْ ابا الشام حفرة — حَوَتني أم ريم بريمان منهال
على أن قلبي آنسٌ ان يُقالَ لي — الى آل هذا القبر يدفنْك الآل
دعا الله أُمَا ليت أني أمامَها — دُعيت ولو أن الهواجر آصال
مضت وكأني مرضعٌ وقد ارتقت — بي السنُ حتى شكلُ فَودَيَ اشكال
أراني الكَرى أنى أُصبتُ بناجذٍ — الا إن أحلام الرقاد لَضُلال
أجارحتي العظمى تُشبَه ساهياً — بسنَ لها في ساحة الفم أمثال
وبين الردى والنوم قُربى ونسبة — وشتان برءٌ للنفوس واعلال
اذا نمتُ لاقيتُ الاحبةَ بعدما — طوتْهم شهور في التراب وأعوام (١٤)

هكذا كان رثاء المعري قطعة من كبده ، ونفثة من نفثات صدره ، انه دموع محب مرزوء يرى خلوَ فؤاده من مودة من يوده اخلال بحقوق المودة الصادقة ، ويرى فَناء جسمه على أمل اللقاء بالحبيب الراحل حياةَ ما بعدها حياةٌ • لذلك كان يتمنَى أن تفتك به المنيَة ليصل الى امه ، لان فراقها أشق عليه من مكابدة سكرات الموت ، وكل ما يتمناه أن يدفن بجنبها ، بل كان يتمنى أن يتقدم أجله على أجلها فداءً لها • ان مثله فى فجيعته بها كمثل رضيع فارق امه وتعرّضَ للضياع على رغم اكتهاله وكبر سنه •

وكم كان ساخطا على الاحلام ! لان الاحلام كذبت عليه فأرته سقوط ناجذه بينما الحقيقة التي حلّت به في اليقظة هي موت امه لا سقوط ناجذه ، لذلك كانت الاحلام فى نظره ضلالا فى ضلال ، حيث شبهت مصابَه بامه ، (وهى جارحته العظمى) بمصابه بسنه ، وللسِنَ عدة أمثال فى فمه ،

---

(١٥) الجزء الثانى من كتاب سقط الزند ص ١٧٨ •

بينما الام لا مثيل لها ، وهكذا يرى في الموت برءاً لنفسه ولحاقاً بحبيبة قلبه . كما انه يرى ان لا مناسبة ولا قربى بين النوم والموت كما يظن الناس لان في الموت برءاً للنفس من أوضار الحياة ، وفي الحياة اعلال لها. فلا سواء بينهما .

الفخـــر :

كانت نفسية المعري في احتدام شديد وصراع دائم ، تتنازعها عوامل جمة . عاطفة حساسة ، وعقل وقاد ، وذكاء مفرط وأدب فياض ، وعلم غزير ، واباء كبير ، وطموح عالٍ ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، علة ملازمة له ومورد شحيح عليه ومزاج عصبي في طبعه ، وزمن زاخر بأنواع الفلسفات ، ومكتض بمختلف التقاليد والعادات ، ووطن صغير موزع بين عدة حكومات ، كل ذلك أورثه تشاؤماً شديداً ؛ فيئس من الناس ونفض يده منهم ، وانعزل عنهم ، وتعالى عليهم ، فداخله فخر عظيم ، وعناد جسيم ، بحيث طغى على كثير من شعره .

أرى العنقاء تكبر أن تصادا ... فعاند من تُطيق له عنادا
وما نهنهت عن طلب ولكن ... هي الايام لا تعطي قيادا
فَظُنَّ بسائر الاخوان شراً ... ولا تأمن على سرٍّ فؤادا
فلو خَبَّرْتهم الجوزاءُ خبرى ... لما طلعت مخافة أن تُكادا
تجنبت الانام فلا أواخي ... وزدت عن العدو فلا أُعادي
فأيَّ الناس أجعله صديقاً ... وأي الارض اسلكه ارتيادا
ولو أن النجوم لديَّ مال ... نفت كفاى أكثرها انتقادا
كأني في لسان الدهر لفظ ... تضمَّنَ منه اغراضاً بِعادا
وكم من طالب امدى سيلقى ... دُوَينَ مكانيَ السبعَ الشدادا
يؤجج في شُعاع الشمس ناراً ... ويقدح في تلَهُّبها زنادا

ويطعن في علاي وان شسعي ... ليأنف أن يكون له نجادا
فلا وأبيك ما أخشى انتقاصاً ... ولا وأبيك ما أرجو ازديادا
لي الشرفُ الذى يطأ الثريا ... مع الفضل الذى بهر العبادا
أفلّ نوائب الايام وحدي ... اذا جمعت كتائبها احتشادا

المــدح :

المدح عند أبي العلاء صنع جميل يؤديه لمن يستحقون المدح والثناء ، دون أن يرجو من ورائه مغنماً ويجمع مالا ، كما يفعل بعض المداحين من الشعراء ، وانما يقوله لصديق راسله أو كبير عمت فضائله • فهو في هذا المجال في غاية العفة ومنتهى الاباء • وما ذلك الا لِغنَى نفسه وجميل زهده واكتفائه بما قسم الله له •

لا أطلب الأرزاق والـ ... ـمولى يفيض عليّ رزقي
ان أعط بعض القوت أعـ ... ـلم انذلك ضِعف حقي

لذلك لم يكن شعر المديح عنده بالشيء الكثير • ثم انه اذا مدح كان مدحه موجها لاهداف كريمة وغايات نبيلة • استمع اليه كيف يطلب من ممدوحه أن يجعل غاراته وغزواته فى سبيل تحقيق المحامد والمكارم ، لا في سبيل جمع المكاسب والمغانم •

أدنَى الفوارسِ من يغيرُ لمغنمٍ ... فاجعلْ مغُارك للمكارم تكرُمُ

وقال من قصيدة أجاب بها تلميذاً له كان قد مدحه بعد أن أتم دراسته عليه فقال له :

يا لِلمُفضَل تكسوني مدائحه ... وقد خلعتُ لباسَ المنظرِ الأنِق
انا بعثناك تبغي القول من كثب ... فجئت بالنجم مصفوداً من الافق
وقد تفرستُ فيك الفهم ملتهبا ... من كل وجه كنار الفرس في السدق

فاطلب مفاتيح بابالرزق منمَلِك أعطاك مفتاح باب السؤدد الغَلق
لفظ كأنَّ معاني السكر تسكبه فمن تحفظ بيتاً منه لم يُفق
جزل يشجع مَن وافى له اذناً فهو الدواء لداء الجبن والقلق
اذا ترنم شاد للبراع به لاقَى المنايا بلا خوف ولا فرق
لا تنس لي نفحاتي واس لي زللي
ولا يضرك خَلْقي واتبع خُلُقي (١٥)

ان غاية ما قاله شيخ المعرة في مدح تلميذه : انه شاب مُعجِب ، وانه أتاه بشعرٍ بعيد المنال • وليس ذلك بعجيب ، اذ كان يرى في تلميذه فهماً وقاداً منذ زمن دراسته عليه ، وقد تحققت تلك الفراسة بما جاء من شعر كالنجوم ، ثم يعود المعرى فيسدى الى تلميذه نصيحة هى خلاصة المذهب الذى ارتضاه لنفسه ،فيقول له : اطلب الرزق ممن وهبك الفهمَ والسؤددَ واجعل معانيَ شعرك كنشوة الخمر يسكر بها كل من حفظه ، ثم هو لا يفيق من نشوته • انه شعر لو سمعه الجبان لصار شجاعاً لا يخاف من الموت • ودليلي على أن المعري كان عزوفا عن المدح انه اذا مدح شخصا فسرعان ما يجنح الى مدح الفضائل الخاصة بقوم الممدوح تنفيسا لروحه مما لا تميل اليه ، وخلاصا من الضيق الذى يستولي عليه حين يمارس شعر المديح ،

يا فارسَ الخيل ، يدعوك العِدى أسداً
ما استُنقِذَت من يديه عُنقٌ مُفترَس
أرى جبينك هذى الشمسَ خالقُها
وقد أنارت بنور عنه منعكس

(١٦)كتاب سقط الزند طبع دار الفكر بيروت ص ١١٧ •

مـن معشـر لا يخـاف الجارُ بأسَهـم
غشـوا صـروف الليـالي بُردَ مبتئس

وصاحبـوهـا بأعـراض ، جواهرهـا
كجـوهـر البدر لا يدنـو من الدَنس

كـأنَّ كـلَ سِـنان صـاب عنـدهـم
للنفـع مبضـعُ آس مشفِـقٍ نَـطس

الطارحـين لخـوض المـوت لامَهـم
سَحَب الاجلة خلف الضمَر الشُمُس

أيـا فـلان دعـاك الله مقتـدراً
أخـا المكارم وابـن الصـارم الخَلِـس

لا يوهِمنَّـك ان الشعـر لي خُلُـق
وأنـي بالقـوافِي دائـمُ الانَـس

فـانمـا كـان المـامِي بسـاحتهـا
في الدهـر المـامَ طيـرِ المـاء بالعَلَـس

عساك تعـذر ان قصَرتُ في مِدَحِي
فان مثلِي بهجران القريض عَسِ(١٧)

الغـــزل :

ذهب أكثر النقاد الى ان غزل المعري كان تقليداً للشعراء الغزليين وكان صنعةً اصْطَنَعَها ليُقالَ انه مارس جميع أغراض الشعر ، ولـم يعجز عن غرض منها .

ونحن نجاري أصحاب هذا الرأي الى حد محدود ، اذ لا نعتقد ان

---

(١٧) كتاب سقط الزند ص ١٢٢ طبع دار الفكر ببيروت .

المعرى كشاعر مرهف الحس قوي العاطفة كان خاليا من عاطفة الحب لم يشعر بالجمال الروحي للمرأة على الأقل •

فالصواب عندي ان عاطفة الحب عنده قوية ولـكن كان يحجبهـا حجاب الوقار ويحوطها شيء من أدب النفس ورزانة الحلم • وكثرة الحياء؟ هاك قطعة واحدة من غزله ، ثم أصدرْ حكمك عليه • أما الكثرة والقلة فشأن ذلك يعود الى أسباب غير العجز والقدرة كما ذكرنا• استمع اليه يقول:

يا ساهرُ البرق أيقظ راقد السمر
لعلّ بالجزع أعواناً عـلى السهر
وان بخلت عن الاحيـاء كلّـهِـم
فاسـق المواطـر حيا من بنِي مطر
ويا أسـيرة حجليها أرى سـفهاً
حَمل الحليّ لمـن أعيا عن النظر
ما سرت الا وطيف منك يصحبني
سُرى أمامي وتأوِيباً عـلى أثري
لو حطّ رَحْلِيَ فوق النجم رافعه
وجدت ثم خيالا منـك منتظـرى
يـودّ ان ظـلام الليـل دام لــه
وزيد فيه سـواد القلب والبصـر
لو اختصرتم من الاحسان زرتكـم
والعذب يهجر للافراط في الخَصَر
أبعد حول تناجي الشوق ناجِيـة
هلا ونحن على عشر من العُشَر
كم بات حولك من رِيم وجازية
يَستَجْديانك حسنَ الدل والحور

وما تركت بذات الضال عاطلة

من الظباء ولا عار من البقر

قلدت كل مهاة عقد غانية

وفزت بالشكر في الآرام والعفر

حسنت نظم كلام توصفين به

ومنزلا بك معموراً من الخفر

فالحسن يظهر في شيئين رونقه

بيت من الشعر أو بيت من الشعر(١٨)

أبعد هذا الغزل الرقيق ، والديباج الخسرواني من الالفاظ والمعاني يصح أن نقول : ان الغزل عند المعري مران واختبار ، وليس وصفاً لخوالج الحب والحنين ، أو نقول : ان المعري شاعر يرى وجوب القول في النسيب ، وما هو من النسيب في مضماره الاصيل .

اذاً فما هو الغزل اذا كان هذا الشعر الذي عرضناه ليس غزلا أصلا ؟ (أليس الغزل هو ما نجده من لواعج الحب ولفحاته ، وشكايات الصب وأناته ، وزفرات العاشق وعبراته) .

أليس في قوله :

ما سرت الا وطيف منك يصحبني

سرى أمامي وتأويباً على أثري

حب لم يفارق قلبه لحظات ؟

أليس في قوله :

لو حط رحلي فوق النجم رافعه

وجدت ثم خيالا منك منتظري

(١٨) ديوان سقط الزند ص ٦٩ .

انهـا صورة للحسن لا يراها الا الذين انصهرت قلوبهم بنار العشق حتى خلصت وصفت من أوضار المادة ورواسب الجنس أليس كذلك ؟

مؤلفاتـه :

أغلب مؤلفاته ضاعت فى أثناء الحروب الصليبية ، فلم يبق منها الا سقط الزند ، وهو ديوان شعر بجزئين ، يضـاف اليهمـا جزء خـاص بالدروع اطلق عليه المعرى اسم ـ الدرعيات ـ وتبلغ عدد قصائده بـين قصيدة طويلة ومقطوعات صغيرة احدى وثلاثين قصيدة ، كما تبلغ قصائد جزئَي الديوان أربعا وسبعين قصيدة ومقطوعة ، يضاف اليها سبع قصائد قصيرة أوردها جامع الديوان بعد الدرعيات • معظمها في الغزل • ووصفه الاستاذ أحمد ابراهيم الشريف فقال[١٩] •

ولسقط الزند أهمية كُبرى فى تصوير نفس المعرى وحياته وأحداثه وتطور فلسفته في الحياة التى مارسها والموت الذى واجهه فى أقرب المقربين اليه ، وفي الاصدقاء والمعارف البعداء ، ففيه الشوق والحنين والفخر والمدح والتهنئة والغزل والرثاء والوصف والرحلات ، وفيه خلاصة آمال الشاعر وآلامه وسعوده ونحوسه وأفراحه وأحزانه ، وما استَقَى من كل هؤلاء العِبَر والآراء •

وله كتاب اللزوميات ، أو ـ لزوم ما لا يلزم • وهو كتاب ضخـم ضمنه أبو العلاء قصائد ومقطوعات الزم نفسه فيها بحروف الروى وهي ليست بلازمة عليه ولا على الشعراء •

وله رسالة ، سماها (رسالة الغفران) ، وهي شديدة الشبه (بالمَلْهاة

---

(١٩) كتاب تراث الانسانية المجلد الثاني ص ٦١ •

الالهية) لدانتي[٢٠] ، (والفردوس المفقود) لملتن .

تخيّلَ فيها أبو العلاء رجلا صعد الى السماء ، ووصف ما شاهده هناك ، وانتقد فيها الشعراء والنحاة باسلوب روائي بديع . ذكرتُ منها طرفا فى هذا الكتاب تأتيك عن قريب .

وله كتاب (عبث الوليد) شَرَحَ فيه شعر البحترى ونَقَدَه ، وفى هذا الكتاب ثروة لغوية ، ودراسة تحليلية نقدية سيأتيك عن قريب أيضا بعد ملخص رسالة الغفران ، وله معجز أحمد ـ شرح ديوان المتنبي ـ وذكرى حبيب ـ شرح ديوان أبي تمام .

وله كتاب الايك والغصون فى مائة مجلد ، ولكنه مفقود مع الاسف الشديد . وله كتب اخرى غير ما ذكرنا .

---

(٢٠) دانتي ـ زعيم الشعر الايطالي ، ولد سنة ١٢٦٥ ، وتوفى سنة ١٣٤١ . ملتن شاعر انجليزي . كف بصره فأملى على زوجته قصيدته الخالدة (الفردوس المفقود) وهى من عيون الشعر الانجليزي وبدائع الخيال البشرى ، ولد سنة ١٦٠٨ وتوفى (١٦٧٤) .

الفصل العاشر

رسالة ابن القارح مفتاح رسالة الغفران

أما رسالة ابن القارح فهي تلك الرسالة التى أرسلها الشيخ أبو حسن علي بن منصورالمحدث بحلب المعروف بابن القارح الى شيخ المعرة أبي العلاء • من هذا المنطق قال بعضهم من فهم رسالة ابن القارح سهل عليه فهم رسالة الغفران •

وها نحن نقتطف منها شذرات عسى أن نهتدي بها على ما انبهم من رسالة الغفران ونطلع على بعض مباديها وغايتها •

بدأ ابن القارح رسالته باسم الله وتحميده ، والصلاة على رسوله ، ثم أخذ بالثناء على الشيخ الجليل الذى أرسل رسالته اليه ، فأسبغ عليه نعوتا محمودة ، ودعاءً حارا كقوله (أطال الله بقاء مولاى ، ومدّ مدته ، وأدام كفايته ، وجعلني فداءه) ، ثم يقول له (ويعلم الله الكريم اني لو حننت اليه حنين الواله الى بكرها ، أو ذات الفرخ الى وكرها ، أو الحمامة الى الفها ، أو الغزالة الى خشفها ، لكان ذلك مما تغيره الليالي والايام • لكنه حنين الظمآن الى الماء ، والخائف الى الامن ، والسليم[٢] الى السلامة ، والغريق الى النجاة ، والقَلِق الى السكون ، فان وهب الله ملاءً[٣] من العمر يؤنسني برؤيته ، ويعلقني بحبل مودته ، صرت كسارى الليل التى

---

(١) هكذا قالت الدكتورة عائشة بنت الشاطي فى شرح رسالة الغفران من كتاب ذخائر العرب •

(٢) السليم الملدوغ بالحية •

(٣) الملاء السعة والامتداد •

عصاه ، وأحمد مسراه ، وقرّ عينا ، ونعم بالا ، وكان كمن لم يمسه سوء ، ولم يتخونه عدوّ ، ولا نهكه رواح ، ولا غدو •

وأني أسأله الله على التداني والنوى والبعاد امتاعه بالفضل الذى استعلى على عاتقه وغاربه ، واستولى على مشارقه ومغاربه ، فمن مرّ على بحره الهياج ، ونظر فى لالاء بدره الوهاج ، خليق بأن يكبو قلمه بأنامله، وينبو طبعه عن رسائله ، الا أن يلقى بالمقاليد •••• فيكون منسوبا اليه ، ومحسوبا عليه ، ونازلا فى شعبه ، وأحد أصحابه وحزبه ، وشرارة ناره وقراضة ديناره ، وسمك بحره وثمد(٥) غمره ، وهيهات ضاق فتر عن مسير ، ليس التكحل فيالعينين كالكحل ، خلقوا أسخياء لا متساخين، وليس السخي من يتساخى ، لاسيما وأخلاق النفس تلزمها لزوم الالوان للابدان ، لا يقدر الابيض على السواد ، ولا الاسود على البياض ، ولا الشجاع على الجبن ، ولا الجبان على الشجاعة ، قال أبو بكر العرمزى •

يفر جبان القوم عن امِّ رأسه ويحمي شجاعُ القوم من لا يناسبه
ويُرزَق معروفَ الجَواد عدوُّه ويُحرَم معروفَ البخيل أقاربُه
ومن لا يكف الجهلَ عمن يَوَدُّه فسوف يكُف الجهلَ عمن يواثبه

ومن أين للضباب صوبُ السحاب ، وللغراب هُوِيُّ العقاب ، وكيف وقد أصبح ذكره في مواسم الذكر آذانا ، وعلى معالم الشكر لسانا ، فمن دافع العيان ، وكابر الانس والجان ، واستبد بالافك والبهتان ، كان كمن صالب بوقاحته الحجر ، وحاسن بوقاحته القمر وهذى وهذر وتعاطى فعقر • وكان كمحموم بلسم(٦) فعفر(٧) ونادى على نفسه بالنقص فيالبدو

---

(٤) تخونه تنقصه •
(٥) الثمد القليل •
(٦) باسم اصيب بالبلسام وهو أشد الجدري •
(٧) عفر تمرغ فى التراب •

والحضر ، وكان كما قال : من يَعنيه ولا يشك فيه

كناطح صخرة يوما ليفلقها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ورُوِي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لعن الله ذا اللسانين، لعن الله كل شقار(٨) لعن الله كل قتات(٩) .....

ثم يذكر ابن القارح أشخاصا نكبوا بمن يحبون وأقواما يدعون العلم والادب وهم أصفار منها جميعا ، ورجالا قُتلوا لزندقتهم كبشار ، وصالح ابن عبد القدوس ، والوليد بن يزيد ، وعيسى بن الرشيد ، وغيرهم ممن ادعوا الالوهية ، وقالوا بالحلول ، وهكذا يذكر أفرادا كثيرين من المتشائمين والخارجين على الدين منذ زمنه حتى يبلغ زمن الرسول ، فيقول : وجاء صلى الله عليه وسلم يوما ليدخل مكة فدفعه عثمان بن طلحة العبدرى ، فقال : لا تفعل يا عثمان فكأنك ومفتاحها بيدى أضعه حيث شئتُ ، فقال : لقد ذلّت يومئذ قريش وقلّت . قال : بل كثرت وعزّت ، ثم يرجع ابن القارح يستعين بعصمة الله وتوفيقه ، ويسأله على تمكينه من دفع شهواته ، ومن فهمه لمواعظ عبر الدنيا ، ثم يقول للدنيا على مذهب كثير عزه :

كأني انادى صخرةً حين أعرضت
من الصُم لو تمشى بها العُصم زلت

يا دنيا في كل لحظة لطرفي منك عَبرة ، وفي كل فكرة لي منك حَسرة، يا مرنّقة الصفا ، ويا ناقضة عهد الوفا ، ما وُفّق لحظة مَن عرج نحوك، ولا سَعِدَ من آثر المقام على حسن الظن بك .

واحسرتي في يوم يجمع شرتي كفن ولحد
ضيعت ما لابد منه بالذى لي منه بد

---

(٨) الشقار الكذاب . القتات النمّام .

فأقلق وأبكي بكاء غير نافع ولا ناجع ويجب أن أبكي على بكائي وأنشد

لساني يقـول ولا أفعـل   وقلبي يريـد ولا أعمـل
وأعرف رشدي ولا أهتدي   وأعلـم لـكنني أجهـل

الى أن يقول : بلغني عن مولاي الشيخ انه قال وقد ُذكِرتُ له : (أعرفه خَبَراً ، هو الذى هجا أبا القاسم الحسين بن علي بن الحسين المعروف بالوزير المغربي) فذلك منه رائع لي خوفا أن يستشرً طبعي وان يتصورني بصورة من يضع الكفر موضع الشكر وهو بتعريف التنكير أنفع لي عنده لجلالة قدره ودينه ونسكه • وان أطلعه طلعه ليعرف خفضه ورفعه وفُراده وجمعه • ثم يقص قصته مع أبي القاسم فيقول : ورد عليَّ كتاب أبي القاسم فسرت اليه فكان يُسرّ حسوا في ارتغاء • قال لي يوما من الايام ما رأيتك ؟ قلت : أعرضت حاجة ؟ قال لا : أردت أن العنك • قلت فالعني غائباً قال : لا ، في وجهك أشفَى • قلت ولم ؟ قال لمخالفتك اياي فيما تعلم • وقلت له ونحن على انس بيني و بينه : لي حرمات ثلاث ، البلدية وتربية أبيه لي وتربيتي لاخوته • قال هذه حُرُمٌ مهتكة : البلدية نسب بين الجدران وتربية أبي لك منة لنا عليك ، وتربيتك لاخوتي بالخلع والدنانير ، أردت أن أقول له استرحتَ من حيث تَعِب الكرام لانه كان جنونه مجنونا •

وقال لي ليلة (اريد أن أجمع أوصاف الشمعة السبعة في بيت واحد وليس يسنح لي ما أرضاه • فقلت : أنا أفعل ذلك من هذه الساعة • قال : أنت ُجذَيلُها[9] المُحكَك وعُذَيقُها[10] المُرجَّب وأخذت القلم

---

(٩) الجذيل أصل الشجرة الباقي بعد ذهاب فروعها ينصب لتحتك بك الابل الجربى •

(١٠) العذيق هو من النخلة كالعنقود من العنب ورجب النخلة وضع حولها الشوك •

من دواته وكتبت بحضرته •

لقد اشبهتني شمعة في صبابتي   وفي هول ما القَى وما أتوقـع
نحول وحرق في فَنَـاء ووحدة   وتسهيدُ عين واصفرار" وادمع

فقال كنت عملت هذا قبل هذا الوقت • فقلت تمنعني سرعة الخاطر وتعطيني علم الغيب ؟

وكان أبوالقاسم ملولا ويحقد حقد من لا تلين كَبِـده ولا تنحل عقده•

وقال لي بعض الرؤساء معاتبا أنت حقود ولم يكن أبو القاسم حقـودا فقلت له أنت لا تعرفه • والله ما كان يُحنَى عوده ولا يُرجَى عَوده وله رأى يزين له العقوق ويمقت اليه رعاية الحقوق بعيد من الطبع الذى هو للصد صدود وللتآلف ألوف ودود ، كأنه من كِبَره قد ركب الفَلَك واستوى على ذات الحُبُك • ولست ممن يرغب فى راغب عن وصلته أو ينزع الى نازع عن خُلَّته • فلما رأيته سادرا جاريا فى قلة انصافي على غُلَوائه محوت ذكره عن صفحة فؤادي واعتددتُ وده فيما سال بـه الوادى

ففي الناس ان رثت حبالُك واصل
وفي الارض عن دار القلى متحـول

ثم يعود فيقول : وأنا معتـذر الى الشيخ الجليل من تقريضـه مـع (تقريظي) فيه لانه قد شاع فضله فى جميع البشر ، وصـار غرة عـلى جبين الشمس والقمر ، خلّد ذلك في الاخبار وكُتِبَ بسواد الليل على بياض النهار وأنا فى مكاتبة حضرته بمنظوم ومنثور كمن أمد النارَ بالشرر وأهدى الضوء الى القمر ، وصبَّ فى البحر جُرعَةً وأعار سير الفلك سُرعة • اذ كان لا يحل النقص بواديه ولا يطور[11] السهو بناديه •

---

(١١) يطور يحوم ويقرب •

ثم يهتم ابن القارح فى آخر رسالته بذكر العظات والعبر • فيقول كان أبو بكر الشبلي يقول ليس غير الله غير ولا عند غير الله خير • وقال يوما يا جواد ! ثم أمسك مفكرا ورفع رأسه ثم قال : ما أوقحني ! أقول لك يا جواد وقد قيل في بعض عبيدك •

ولو لم يكن في كفه غيرُ نفسه   لجاد بها فليتقِ الله سائلُه

وقد قيل في آخر :

تراه اذا ما جئته مُتَهلِّلا   كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ثم قال بلَى أقول يا جوادا فاق كل جواد وبجوده جاد من جاد

ودخل ابن السماك على الرشيد فقال له عظني وفى يد الرشيد كوز ماء فقال : مهلا يا أمير المؤمنين أرأيت إنْ أقدر الله عليك مُقَدَّرا فقال : لن أمكنك من شربة الا بنصف ملكك أكنت فاعلا ذلك ؟

قال نعم • قال اشرب هنَّاك الله فلما شرب قال : أرأيت يا أميرالمؤمنين أنْ لو أُسفِتَ نفس هذا المقدَّر عليك فقال : لن امكنك من اخراج هذا الكوز الا بأن استبد بملكك دونك أكنت فاعلا ذلك • قال : نعم • قال : فاتق الله في ملك لا يساوي الا بَولة •

وأخيرا يختمها بحديث من يثق به ولا يتهمه فيذكر له ان أباه كان زاهدا فحدثه بأمر عن أبي بكر الشبلي فقال : كنت مع أبي بكر الشبلي ببغداد في الجانب الشرقي بباب الطاق فرأينا شاويا قد أخرج حَمَلا من التنّور كأنه بُسرَة[12] نُضجا والى جانبه قد عمل حلاوى فالوذجا فوقف ينظر اليهما وهو ساهٍ مفكر • فقلت يا مولاي دعني آخذ من هذا وهذا ورقاقاً وخبزا ومنزلي قريب تشرفني بأن تجعل راحتك اليوم عندي

---

(١٢) البرة : واحدة البسر وهو التمر الغض •

فقال يا هذا أظننت اني قد اشتهيتهما ؟ وانما فكري في ان الحيوان كلـه لا يدخل النار الا بعد الموت ونحن ندخلها أحياء •

يا رب عفوك عن ذيشَيبة وَجِل   كأنـه من حـذار النار مجنـــون
قـد كـان ذمّم أفعـــالا مذممـة   أيـام ليس لـه عقل ولا ديـــن)

هذه هي مقتبسات من رسالة ابن القارح دونتها لتعلم المراد منها بوجه عام لتكون لك مدخلا الى ما نحن بصدده من رسالة الغفران •

الفصل الحادي عشر

رسالة الغفران

المطلوب هو أن ندرس رسالة الغفران ليس غير . أما رسالة ابن القارح فقد تعرضنا لها باعتبارها سببا لانشاء رسالة الغفران أو انها مفتاح لها .

وقبل البدء في استعراض رسالة شيخ المعرة أراني بحاجة الى بيان ما انطبع في نفسي عن أهم أغراض الرسالتين .

فأقول ان الغرض المهم من الرسالتين هو ان الكاتبين الفاضلين أرادا أولا وبالذات نقد أحدهما الآخر عن طريق بيان ملكتيهما الانشائية وثروتيهما اللغوية واحاطتهما بتاريخ العرب والاسلام وما يتصل به من أخبار الامم الاخرى في الشئون الميثولوجيا وغيرها .

نعلم ذلك من سردهما للاخبار وكثرة استعمالهما غرائب المفردات التي تقلل من اللذة التي يمكن أن يتمتع بها الباحث في هاتين الرسالتين بصورة أكبر لولا توغلهما في الغريب !.

واني لا أدري ان كنت مصيباً أو مخطئاً فيما ظننته وذهبت اليه وفيما تضمنته الرسالتان .

فقد حسبت ان جانب التعريض في كلتيهما باد بشكل أقرب الى اليقين منه الى الشك على رغم عبارات المجاملة المتبادلة بينهما ومحاولة التظاهر في التماس الرحمة والمغفرة من الله في دعاء بعضهما لبعض . وأن رغبة ابن القارح في لقاء شيخ المعرة وذكره الحنين اليه لا يغير مما يكنه في نفسه من التبرم به .

ولعل في شرح ابن القارح لقصته مع أبي القاسم وذكرها في رسالته تعبيرا عن الاذى الذى وقر في نفسه من قول أبي العلاء حين سئل عن ابن القارح فقال أعرفه خبرا من هجوه لصديقه أبي القاسم •

اذ اعتقد ابنُ القارح ان المعرى كان يريد أن يوصمه بالجحود وقلة الوفاء بتلك الاجابة • لان الناس يعلمون فضل والد أبي القاسم عليه ويعلمون علاقة أبي القاسم به • لذلك اعتبر ابنُ القارح جواب المعرى (بأنه يعرفه بهجائه لأخصّ أصدقائه ومعارفه) قدحا فيه وذما له وتشنيعا به ••• مما أثار حفيظته وحمله على انشاء رسالته التي ذكر في ثناياها ما يبرر هجوه لابي القاسم من جهة ويخفف المه بما يناله من أبي العلاء من جهة ثانية •

وما رغبة ابن القارح في لقاء شيخ المعرة بحضور حضرته الا كرغبة أبي القاسم في استدعائه ابن القارح وحضوره بحضرته •

فقد ذكر ابن القارح في رسالته ان أبا القاسم استدعاه يوما فلما جاءه قال له أعرضت حاجة ؟ قال أبو القاسم لا ولكنني أردت أن العنك • فقال ابن القارح لماذا لا تلعني غائبا قال : في وجهك أشفى لنفسي لمخالفتك اياى فيما تعلم • ولذلك كانت تمنيات ابن القارح ورغبته في لقيا أبي العلاء ليبرىء ساحته من نكران النعمة وقلة الوفاء وليريه حقوق الرجال على الرجال وفضل أهل الفضل عند ذوى الفضل •

وأعود فأقول مرة ثانية اني لا أدري ان كنت مخطئا أو مصيبا ان قلت ان الغموض الشديد الوارد في رسالة الغفران كان مقصودا ومتعمدا من شيخ المعرة ••• انه أراد أن يلقن ابن القارح درسا لا ينساه طوال حياته وليعلمه انه ما زال بحاجة شديدة الى فهم غرائب ا للغة والى ادراك مواطن التقعر في الكلام فيما يستحسن منه وما لا يستحسن •

ولعلي أكون مصيبا أيضا ان قلت ان رسالة الغفران اتعبت ابن القارح حين مارس قراءتها وعلمته منزلته بين علماء اللغة يضاف الى تلك الاسباب سبب آخر له أهميته أيضا • ذلك ان المعرى ذكر فى رسالته آراء خطيرة لها مساس بمعتقدات الناس وأخلاقهم وأساليب تفكيرهم وخطل اتجاهاتهم•• لذلك عرض أخباره وآراءه عرضا بديعيا وبيانيا خالطاً بين الحقيقة والمجاز والبسها أردية سميكة من التورية تخفي تحتها نقدا لاذعا لمجموع أوجه الحياة عن طريق رسالته لابن القارح حيث ساق تلك الآراء مساق الفكاهة وعبر عنها كأنها أساطير لكي لا يورط نفسه في مشاكل هو في غنى عنها •

وبعد : فان القسم الاول من رسالة الغفران يشير الى ورود رسالة ابن القارح الى ابي العلاء متضمنا ما أعد الله لابن القارح من الثواب في ادخاله جنة الغفران وما أغدق عليه من ثمار الجنة وخمرها وعسلها وحورها •••• كل ذلك كان بسبب تمجيده لله وتنزيهه عن شبه المخلوقين•

وفي جنة الفردوس يلتقي ابن القارح بالمبرد وابن دريد ويونس بن حبيب والضبي وابن مسعدة وثعلب وسيبويه والكسائي وأبي عبيدة والاصمعي •••• وفى أثناء نزهته فى الجنة يرى بعض الشعراء كالاعشى وزهير وعبيد ابن الابرص وعدى بن زيد فيسألهم عن الاسباب التي غفر الله بها لهم • ثم يرى بعض وحوش الجنة كما يرى أبا ذؤيب الهذلي وناقته والنابغتين الجَعدى والذُبياني وقصريْهما • وهناك يعقد مجلس منادمة وأدب يطوف فيه على الندامي قيان ومغنيات من أوز الجنة • فتغنيهم احدى القيان بميمية المخبل السعدى •(١)

ذكر الربـاب وذكرهـا سُقـم — وصبـا وليس لمن صبـا عـزم
واذا الـمّ خيالهـا طَرِفـت — عيني فمـاء شؤونهـا سَـجـم

---

(١) رسالة الغفران ص ٢٢٤ طبعة بنت الشاطىء •

كاللؤلؤ المسجور تُوبع في ... سلك النظام فخانه النظم
وتقول عاذلتي وليس لها ... بغدٍ ولا ما بعده علم
ان الثراء هو الخلود وان ... المرء يكربُ يومَه العُدم
ولئن بنيتِ الى المشقرَ في ... عنقاء تقصُر دونها العُصم
لتُنقِبَنْ عنّي المنية انّ ... الله ليس كحكمه حكم

وهنا تنشأ منافرة بين الاعشى والجَعدى ، فيمر حسان بن ثابت بالمجلس فيدعونه اليهما ليحكم بينهم ، ثم يفترقون جميعا ، وبعد هذا الموقف يلتقي ابنُ القارح بمعقل بن ضرار وعمرو الباهلي وتميم ابن أبي مقبل ، فيعجب تميم من قوة حافظة ابن القارح ، وبقاء حفظه للادب ، بعد أن شاهد أهوال القيامة •••• ثم يشرع ابن القارح برواية قصة الحشر ، وما كان من شفاعة أهل البيت له ، وفي هذه الاثناء ينشأ خصام أدبي بين أبي علي الفارسي ، وعدد من الشعراء ، فيقيم ابن القارح مأدبة كبرى يدعو اليها كل من فى الجنة ، من شعراء وادباء وعلماء ، يقدم فيها الولدان المخلدون أصنافَ اللحوم ويُغني فيها الغريضُ ومعبد وابن مسجح وابن سُريج والموصليان وتقوم الحورُ العِين ترقص على الحان أبيات منسوبة للخليل وبين هذا الغناء والرقص يدور حوار أدبي بين اللغويين •••• وبعد ارفضاض المجلس يخلو ابن القارح بحوريتين من حور الجنة هما حمدونة الحلبية وتوفيق السوداء • ولكن ابن القارح يزهد فيهما ويطلب الى أحد الملائكة أن يدله على حور عِين لم يكنّ في الدار الفانية • فيأخذه الملك ويذهب به الى أطراف الجنة ، جنة العفاريت المؤمنين فيتعرف هناك الى شعراء الجن مثل أبي هدرش والخيتعور الذى يقص عليه مغامراته قبل أن يتوب • ثم يرى الحطيئة العبسى في كوخ حقير بأعلى الجنة ويرى الخنساء تشهد أخاها صخرا والنار تضطرم في رأسه •••• وبعد هذه الجولة يدخل ابن القارح في جحيم الغفران فيسأل ابليس عما يفعل أهل الجنة بالولدان

المخلدين ... ثم يلتقي بشعراء النار ويناقشهم في بعض المسائل اللغوية والقضايا الادبية مثل بشار بن برد وامرىء القيس وعنترة العبسي وعلقمة بن عبدة وعمرو بن كلثوم والحارث اليشكرى وطرفة بن العبد وأوس بن حجر وأبي كبير الهذلي وصخر الغيّ والاخطل التغلبي وعدى بن ربيعة والمرقشين الاكبر والاصغر والشنفرى الازدى وتأبط شـرا .

ثم يعود ابن القارح الى الجنة فيلتقي في الطريق بآدم عليه السلام ويسأله عن الشعر المنسوب اليه ... ثم يرى روضة الحيات فيدخلها وتتصدى له حية فقيهة عالمة تتحدث في القراءات وتغريه بالبقاء معها فيذعر منها ويمضي مهرولا الى الجنة ، جنة الرجز فيشاهد فيها أغلب بني عجل والعجاج ورؤبة وأبا النجم وحميد الارقط وعذافر بن أوس وأبـا نخيله وكل من غفر له من الرجاز فيقول لهم تبارك العزيز الوهـاب لقـد صدق الحديث المرويّ ان الله يحب معالي الامور ويكره سفسافهـا وان الرجز لمن سفساف القريض قصرتم أيهـا النفر فقصر بكم .. وما ان التقى ابن القارح برؤبة حتى ثار بينهما شجار .

بهذا ينتهي القسم الثاني فانه يتضمن الرد على رسـالة بن القارح نفسها .

ففي هـذا القسم يتعجب أبو العـلاء من انفراد ابن القارح بالوفاء ، وقد جبل العالم على الخديعة والنفاق . وكذلك يتبرأ أبو العلاء مما ينسب اليه من عامة فضله ويقسم أنه مكذوب عليه .

ثم يذكر اغتباط حلب بدخول ابن القارح فيها ويعطيها كل الحـق بهذا الاغتباط لانه ابنها البار وأديبها المغوار . ثم يأخذ بتعزية ابن القارح لحزنه على من فقد من الاصدقاء حين عاد الى حلب . ويعود أبو العلاء يستغفر للذين بالغوا في مدحه ويبدى أسفه لفقد رسالته التي بعث بهـا

الزهرجي مع ابن القارح اليه فسرقها عديل له • ثم يصف المه من تشاكي الادباء ومن حرفة الادب وهمومها تلك الحرفة التي البت الحساد على ابن القارح •

ثم تأخذ الرسالة بالرد على ابن القارح وما أخذ على قول المتنبي :

اذم الى هذا الزمان أهيله   فاعلمهم فدم واحزمهم وغد

وبيانه ولوع المتنبي بالتصغير وطمعه في شيء قد طمع فيه من هو دونه ثم أخذت تؤكد على أن نطق اللسان ينبيء عن اعتقاد الانسان واستشهد بدعبل بن علي الذى كان يتظاهر بالتشيع مع انه لم يكن له دين وبأبي نواس الذى ادعى له التأله وانه كان يقضي صلوات نهاره في ليله والصحيح انه كان على غير ذلك • وكذلك تناولت الرسالة قدم الالحاد فى ابن آدم وانتشار الزندقة وقول بعض الدهريين وما يهلكنا الا الدهر وقولهم الزمان حركة الفلك لفظ لا حقيقة له •

ثم أخذ أبو العلاء بالدعاء لابن القارح بالاجر لغيظه على الزنادقة والملحدين واحتماله مشقة الحج • ثم بين له أنه لا ملة ألا ولها قوم ملحدون • وان الزندقة تقية ومداراة وقد تكون تظرفا وشرع أبو العلاء يعدد الذين قتلوا لزندقتهم ويذكر هرب ربيعة(٢) بن أمية الى الروم واجلاء أهل الذمة عن الجزيرة أيام عمر بن الخطاب وكون اليمن معدنا للمتكسّبين بالتدين وزندقة القرامطة(٣) والوليد بن يزيد وأبا عيسى بن الرشيد وديك الجن والجنابي والعلوى البصرى وادعائه علم الغيب

---

(٢) ربيعة بن امية بن خلف الجمحي أدمن الشراب فضربه عمر أمير المؤمنين ولحق بعد حين بالروم •

(٣) القرامطة قوم خرجوا على الاسلام فاباحوا المال والنساء • ويزعمون ان امامهم يخرج من بيت فى الاحساء •

والحسين بن منصور الحلاج والحلولية[٤] والتناسخ والتظاهر بالمذهب توصلا للدنيا وابن هاني الاندلسي وبيان ان التأله موجود في الغرائز والدين تلقين وتقليد ثم تكلم عن الامامية والمعتزلة والاشاعرة والشيعة وعبدالله بن ميمون القداح وابن الراوندى وكتبه (التاج والدافع والقضيب والفريد والمرجان) وابن الرومي والتطير وابا تمام ورقة دينه ومأتم القصائد عليه والمازيار والافشين وبابك الخرمي وأبا مسلم الخراساني وغلاة الشيعة وعبدالله بن سبأوالكاسانية) .

وبعد هذا الاستعراض الطويل عاد الى حديث بن القارح والرد على شكواه من بلوغ السن العالية والتعليق على ما قيل عن رغبته في الزواج ، والرد على أشفاقه من العكوف على الاماني والشهوات ثم تذكيره بمن أسرفوا في اللهو ثم تابوا كالفضيل بن عياض وعمر بن عبدالعزيز ومالك بن أنس وأبي حنيفة ، والصحابة قبل الاسلام كانوا على ضلال وأحمد بن حنبل والمنافقين في شرب الخمر . ثم يعود فيقول لقد آن لابن القارح أن يتوب ويذكر مشهدا لتوبته حيث يمثله جالسا للوعظ في أحد مساجد حلب ومعه خنجر يجأبه زقاق الخمر ثم يذكر أن حواريه المعدات له في الجنة لما سمعن بتوبته فرحن وجلسن يقبلن التهاني من جاراتهن . ثم تذكر الرسالة أشخاصاً منهم عبدالله بن المعتز والمبرد وأبو عثمان المازني وابراهيم ابن المهدى ومحمد بن عاصم وبعضا من أهل العصر واستنكارهم شرب الخمر بعد الستين . كما تذكر أول سماع أبي العلاء بابن القارح وشيوخه الذين درس عليهم ومنهم أبو الحسن المغربي ثم تذكر حججه الخمس وكيفية تلبية العرب في الجاهلية واستلامها الحجر وطوافها ونفرتها ووقوفها

(٤) جماعة يزعمون ان الله جل شأنه قد يحل في بعضهم . ويقال ان فرعون كان على مذهب الحلولية .

بالمغسّ • ثم تتحدث عن آل جوهر وما لقوا من محن بعد ان كانت الدنيا لهم • وعن أبي القاسم المغربي وابن القارح وأفانين البديهة وابن خالوية وفضله وأبي الطيب اللغوي ثم يأخذ أبو العلاء بالرد على ما ذكره ابن القارح من ميله الى مصر والى اللذات ولعنة الخمر • ثم يعود الى دنانير ابن القارح • تلك الدنانير التي قال عنها ان ابنة اخته سرقتها • والى الكلام عن الخؤلة لصلتها بالسارقة وعن الهجرس بن كليب وخاله جساس وعن ابن مضر وخاله وزهير وخاله بشامة بن الغدير وعن النساء والادب • وعن أبي بكر الشبلي •

وأخيرا يختم أبو العلاء رسالته بالاعتذار لابن القارح عن تأخير الاجابة على رسالته •

نماذج من رسالة الغفران

يبدأ أبو العلاء المعري رسالته بعد البسملة بقوله ـ اللهم يسر وأعن قد علم الحبر الذى نسب اليه جبرئيل وهو فى كل الخيرات سبيل أن فى مسكني حماطة(٥) ما كانت قط أفانية(٦) ولا الناكزة(٧) بها غانية تثمر من مودة مولاي الشيخ الجليل كبت الله عدوه وأدام رواحه الى الفضل وغدوه مالو حملته العادية(٨) من الشجر لدنت الى الارض غصونها واذيل(٩) من تلك الثمرة مصونها ••• الى أن يقول :

---

(٥) الحماطة هنا حبة القلب •

(٦) شجر الحماط ما دام رطبا •

(٧) النكر الطعن والفرز بشى محدد •

(٨) العادية العالية من الشجر •

(٩) اذيل اهين •

« وان في طمري[١٠] لحضباً[١١] وكل باذاتي لو نطق لَذَكَرَ شذاتي ما هو بساكن في الشقاب[١٢] ولا بمتشرف على النقاب[١٣] ما ظهر في شتاء ولا صيف ولا مرّ بجبل ولا خيف يضمر من محبة مولاي الشيخ الجليل ثبت الله أركان العلم بحياته ما لا تضمره للولد أم أكان سمها يدكر أم فقد عندها السم » .

وقد علم أدام الله جمال البراعة بسلامته أن الحضب ضرب من الحيات وانه يقال لحبة القلب حضب ... الى أن يقول .

« وقد وصلت الرسالة التي بحرها بالحكم مسجور ومن قرأها مأجور اذ كانت تأمر بتقبل الشرع وتعيب من ترك أصلا الى فرع . وغرقت في أمواج بدعها الزاخرة وعجبتُ من اتساق عقودها الفاخرة ومثلها شفع ونفع وقرب عند الله ورفع . والفيتها مفتحه بتمجيد صدر عن بليغ مجيد . وفي قدرة ربنا جلت عظمته أن يجعل كل حرف منها شبح نور لا يمتزج بمقال الزور يستغفر لمن أنشأها الى يوم الدين . ويذكره ذكر محب خدين ــ ولعله سبحانه ــ قد نصب لسطورها المنجية من اللهب معاريج من الفضة أو الذهب تعرج بها الملائكة من الارض الراكدة الى السماء وتكشف سجوف الظلماء بدليل الآية (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه). وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله (الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي اكلها كل حين باذن ربها) . وفي تلك السطور كلِم كثير كله عند الباري أثير فقد غرس لمولاى الشيخ الجليل ان شاء الله بذلك الثناء شجرٌ في الجنة لذيذ اجتناء)

---

(١٠) الطمر الثوب الخلق .
(١١) الحضب ذكر الحيات .
(١٢) الشقاب الكهف فى الجبل .
(١٣) النقاب الطريق الضيق فى الجبل .

وهنا يشرع في وصف أشجار الجنة وفي ظلالها الولدان المخلدون • ثم أنهارها من اللبن والعسل وكؤوسها وأباريقها من العسجد والزبرجد وقيانها اللائي هن من الحور العين • ثم يذكر تمتع الشعراء والعلماء والكتاب على اختلاف درجاتهم ورتبهم بهذه النعم الالهية فيقول : واذا من الله تبارك اسمه بورود تلك الانهار صار فيها الوارد سمك حلاوة لم يرمثله في ملاوة لو بصر به أحمد ابن الحسين لاحتقر الهدية التي اهديت اليه فقال فيها •

أقل ما في أقلها سمك   يلعب في بركة من العسل

فاما الانهارالخمرية فتلعب فيها أسماك هى على صور السمك بحرية ونهرية وما يسكن منه في العيون النبعية • ويظفر بضروب النبت المرعية • الا أنه من الذهب وصنوف الجواهر المقابلة بالنور الباهر • فاذا مد المؤمن يده الى واحدة من ذلك السمك شرب من فيها عذبا ولو وقعت الجرعة منه فى البحر الذى لا يستطيع ماءه الشارب لحلت منه أسافل وغوارب • الى أن يقول :

وكأني به أدام الله الجمال ببقائه اذا استحق تلك الرتبة بقين التوبة وقد اصطفى له ندامى من ادباء الفردوس كاخى[١٤] ثماله واخى[١٥] دوس ويونس بن حبيب الضبي وابن مسعدة المجاشعي فهم كما جاء في الكتاب العزيز (ونزعنا ما في صدورهم من غلّ اخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرَجين) الى أن يقول :

(ثم انما ادام الله تمكينه يخطر له حديث شيء كان يسمى النزهة فى الدار الفانية فيركب نجيبا من نجب الجنة خلق من ياقوت ودرّ في سجج بعد الحَر والقَرّ ومعه اناء فَيْهَجٍ[١٦] فيسير في الجنة على غير منهج

---

(١٤) محمد بن يزيد المبرد •
(١٥) محمد بن دريد •
(١٦) فيهج صاف •

ومعه شيء من طعام الخلود ذُخِرَ لوالد سَعَد أو مولود) الى أن يقول :

(وينظر الشيخ في رياض الجنة فيرى قصرين منيفين فيقول في نفسه لابلغن هذين القصرين فاسأل لمن هما ؟ فاذا قرب اليهما رأى على أحدهما مكتوبا هذا القصر لزهير بن أبي سلمى المزني وعلى الآخر هذا القصر لعبيد بن الابرص الاسدى فيعجب من ذلك ويقول : هذان ماتا في الجاهلية ولكن رحمة ربنا وسعت كل شيء ، التمس لقاء هذين الرجلين فأسألهما بم غفر لهما . فيبتدي بزهير فيجده شابا كالزهرة الجنية قد وهب له قصر من ونية(١٧) كأنه ما لبس جلباب هرم ولا تأفف من البرم وكأنه لم يقل في الميمية :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم

ولم يقل في الاخرى :

ألم ترني عمرت تسعين حجة وعشراً تباعا عشتها وثمانيا

فيقول جير جير أنت أبو كعب وبجير فيقول نعم فيقول أدام الله عزه بم غفر لك وقد كنت في زمان الفترة والناس همل لا يحسن منهم العمل ؟ فيقول كانت نفسى من الباطل نفورا فصادفت ملكا غفورا وكنت مؤمنا بالله العظيم ورأيت فيما يرى النائم حبلا نزل من السماء فمن تعلق به من سكان الارض سلم فعلمت أنه أمر من أمر الله فأوصيت بنيّ وقلت لهم عند الموت ان قام قائم يدعوكم الى عبادة الله فأطيعوه ولو أدركت محمداً لكنت أول المؤمنين وقلت في الميمية والجاهلية على السكنة والسفه ضارب بالجِران .

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدّخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

---

(١٧) الونية اللؤلؤة .

الى أن أن يقول :

ويبدو له أيّد الله مجده بالتأييد أن يصنع مأدبة في الجنان يجمع فيها من أمكن من شعراء الخضرمة والاسلام والذين أصلوا كلام العرب وجعلوه محفوظا في الكتب وغيرهم ممن يتأنس بقليل الادب فيخطر له أن تكون كمآدب الدار العاجلة .... فيقترح (أمضى القادر له اقتراحه) أن تحضر بين يديه جوار من الحور العين يعتملن بارحاء اليد فرحى من در ورحى من عسجد فاذا اجتمع من الطحن ما يظن انه كاف للمأدبة تفرق خدمه من الولدان المخلدين فجاءوا بالعماريس[١٨] وضروب الطير وجوازل الطواويس والسمين من دجاج الرحمة وفراريج الخلد . فاذا حصلت النحوض[١٩] فوق الاوفاض قال زاد الله أمره من النفاذ احضروا من في الجنة من الطهاة الساكنين بحلب على ممر الازمان فتحضر جماعة كثيرة فيأمرهم باتخاذ الاطعمة وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون فاذا أتت الاطعمة افترق غلمانه الذين كأنهم اللؤلؤ المكنون لاحضار المدعوين فلا يتركون في الجنة شاعرا اسلاميا ولا مخضرما ولا عالما بشيء من أصناف العلوم ولا متأدبا الا أحضروه فيجتمع بَجْدٌ[٢٠] عظيم فتوضع الخون[٢١] من الذهب والفواثير من اللجين ويجلس عليها الآكلون وتنقل اليهم الصحاف فتقيم الصحفة لديهم وهم يصيبون مما ضمنته . فاذا قضوا الارب من الطعام جاءت السقاة بأصناف الاشربة والمسمعات بالاصوات المطربة .

---

(١٨) العماريس الجداء .
(١٩) النحوص اللحم .
(٢٠) البجد الخلق الكثير .
(٢١) الخون جمع خوان .

ثم يقول : عليّ بمن في الجنة من المغنيات فتحضر جماعة كبيرة من رجال ونساء فيهم الغريض ومعبد وابن مسجح وابن سريج الى أن يحضر ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق فيقول قائل من الجماعة وقد رأى أسراب قيان قد حضرن مثل بصيص ودنانير وعنان فقال لابد من حضور الجرداتين فيركب بعض الخدم ناقة من نوق الجنة ويذهب اليهما فتقبلان على نجيبين أسرع من البرق اللامع . فاذا حصلتا في المجلس حياهما وبشربهما وقال كيف خلصتما الى دار الجنة بعدما خبطتما في الضلال فتقولان قدرت لنا التوبة ومتنا على دين الانبياء المرسلين فيقول أحسن الله اليكما اسمعانا شيئا من القصيدة الحائية التي تروى لعبيد مرة ولاوس اخرى . وما سمعتنا قط بعبيد ولا أوس فتلهمان أن تغنيا بالمطلوب فتلحنان .

ودع لَميس وداع الوامق اللاحي   قد فنكت(٢٢) في فساد بعد اصلاح
اذ تستبيك بمصقول عوارضه   حمش(٢٣) اللثات عذاب غير مملاح
كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت   من ماء أدكن في الحانوت نضاح

فتطربان من سمع وتستفزان الافئدة بالسرور ويكثر حمد الله سبحانه كما أنعم على المؤمنين والتائبين وخلصهم من دار الشقوة الى محل النعيم .. الى أن يقول :

فهمت قوله جعلني الله فداءه لا يذهب به الى النفاق وبعُد ابن آدم من الوفاق وهذه غريزة خص بهما الشيخ دون غيره وتعايش العالم بخداع وأضحوا من الكذب في ابداع . لو قالت شيرين الملكة لكسرى جعلني الله فداءك في اقامة أو سُرى لَخالبته في ذلك ونافقته وان راقته بالعطل ووافقته . على أنه أخذها من حال دنيّة فجعلها في النعمى السنية وعتبه في ذلك الاحبّ، وجرت لهم في ذلك قصص وأنباء . وقيل له كيف تطيب نفس الملك لهذه المومس

(٢٢) فنكت لجت .
(٢٣) شفاف رقيقة .

وهي الوالجة في المغس فضرب لهم المثل بالقدح واذا حظيت الغانية فليست بالمفتقرة الى الصدح[٢٤] جعل في الاناء الشعر والدم وقال للحاضر ولا ندم• أتجيب نفسك لشرب ما فيه وانما يجنح الى تلافيه فقال : انها لا تطيب وهي بالانجاس قطيب[٢٥] فأراق ذلك الشيء وغسله وهذب وعاءه ثم غسله وجعل فيه من بُعد مداها وعرضها على الندامى فكلهم بهش[٢٦] أن يشرب ومن يعاف العاتقة[٢٧] والغرب[٢٨] فقال هذا مثل شيرين فلا تكونوا في السفه مسيرين كم من شبل نافق أسدا وأضمر له غلا وحسدا ولبوءة تداجي هرماسا[٢٩] تنبذ اليه المقة وتبغض له لماسا وضيغم تقم على فرهود وود لو دفنه بالوهود • وكم خالبت الذئاب السلق وفي الضمائر تكن الفِلق[٣٠] الى أن يقول :

وأول ما سمعت بأخبار الشيخ أدام الله تأثيل الفضل ببقائه من رجل واسطي يتعرض لعلم العروض ذكر انه شاهده بنصيبين وفيها رجل يعرف بأبي الحسين البصري معلما لبعض العلوية • وكان غلام يختلف اليه يعرف بابن الدان وقد اجتاز الشيخ بلدنا والواسطي يومئذ فيه • وقد شاهدت عند أبي أحمد عبدالسلام بن الحسين المعروف بالواجكا رحمه الله فلقد كان من أحرار الناس كتبا عليها سماع لرجل من أهل حلب وما أشك أنه الشيخ أيد الله شخصه بالتوفيق وهو أشهر من الابلق[٣١] العقوق لا يفتقر

---

(٢٤) الصدح خرزة يستعطف بها الرجال •

(٢٥) القطيب الشراب المموزج •

(٢٦) بهش أقبل اليه بسرور •

(٢٧) العاتقة الخمر •

(٢٨) الغرب العسل الابيض الغليظ •

(٢٩) الهرماس الشديد من الاسود •

(٣٠) الفلق جمع فلقه بكسر فسكون وهي الداهية •

(٣١) الابلق نوع من الطير •

الى تعريف بالقريض بل يصدح شرفه بغير التعريض .

الى أن يقول :

وأما العلماء الذين لقيهم الشيخ فاولئك مصابيح الناجية وكواكب الداجية وان في النظر اليهم لشرفا فكيف بمن اغترفَ من كل بحر وجد غرفا ، وانما أقول ذلك على الاقتصار ولعله قد نـَزَفَ بحارَهم بالقلم والفهم وفتحوا له أغلاق البُهَم(٣٢) فأخذ عن الكتّاني سور التنزيل وفاز بثواب جزيل فكأنما لقنه اياها الرسول وبدون تلك الدرجة يبلغ السول أو أخذها عن جبرئيل فلا غير ولا تبديل وسهلوا له ما صعب من جبال العربية فصارت حزونة كتاب سيبويه عنده كالدمات(٣٣) وغَنِيَ فياللجج عن ركوب الارماث(٣٤) وأما انحيازه الى أبي الحسن رحمه الله فقد كان ذلك الرجل سيدا ولمن ضعف من أهل الادب مؤيدا ولمن قوى منهم وادا ودونه للنوب مُحادا وكان كما قال القائل .

واذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدر أيهما ذوو الارحام

وكما قال الطائي :

كل شعب كنتم به آل وهب فهو شعبي وشعب كل أديب

والمثل السائر (على أهلها جنت براقش) .

وقد علم الله أني لا في العير ولا في النفير ومن للجارمة بالتكفير . كلما رغبت فى الخمول قُدِّر لي غيرُ المأمول . كان حق الشيخ اذا أقام في معرة النعمان سنة ان لايسمعَ لي بذكر ولا أخطر له على فكر ، والآن فقد غمرني أفضاله وأظلني دوح أدبه لا ضاله ، وجاءتني منه فرائد لو

---

(٣٢) البهم المشكلات .
(٣٣) الدمات الشيء السهل .
(٣٤) الارمات جمع رمث وهو بقية اللبن فى الضرع .

تمثلت الواحدة منها تومة(٣٥) لم تكن بالصحف مكتومة . وهو أدام الله عز الادب بحياته كريم الطبع والكريم يخدع ، ومن سمع جاز أن يخال والجندل لا ينتج الرخال .

وأما ما ذكر من ميله في مصر الى بعض اللذات فهو يعرف الحديث ، أريحوا القلوب تع الذكر . وكان ينبغي أن يكون في هذا الوقت يضبط ما معه من الادب بدرس من يدرس عليه اذ كانت السن لابد لها من تأثير وان ترمى بقلة كل كثير ولكن فطرته الفاردة تغرّق ونفسه اذا برد يحرّق . وقال رجل من قريش :

لله دري حين أدركني البلى على ايما تأتي الحوادث أندم
ألم أجتل البيضاء يبرق حجلها لها بشر صاف ووجه مقسم

ولعله قد قضى الارب من ذلك كله والاشياء لها أواخر وانما العاجلة سراب ساخر .

ويختم رسالته بقوله :

وأنا أعتذر الى مولاى الشيخ الجليل من تأخير الاجابة فان عوائق الزمن منعت من املاء السوداء كأنها سوداء التي عناها القائل :

نبئت سوداء تنآني وأتبعها
لقد تباعد شكلانا وما اقتربا
وجدتها في شبابي غير مطلبة
فكيف والرأس جون تسعف الطلبا

وأنا مستطيع بغيري فاذا غاب الكاتب فلا أملاء ولا ينكر الاطالة عليّ فان الخالص من النضار العين طالما اشترى بأضعافه من اللجين .

وعلى حضرته الجليلة سلام يتبع قرومه إفاله وتلحق بعوذه أطفاله وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين وسلم .

---

(٣٥) التومة حبة الفضة .

الفصل الثاني عشر

كتاب عبث الوليد

عبث الوليد اسم لكتاب أملاه فيلسوف المعرة أبو العلاء التنوخي في شرح شعر البحتري . وقد قال عنه أهل العلم انه ثروة لغوية وان فيه دراسة تحليلية نقدية ولقد أثنى عليه الاديب محمد عبدالله المدني الذى علق على هذا الكتاب فقال (بحسبك أيها البحاثة عن كنوز الاقدمين وتراث الاوائل من المعارف والفنون أن تعلم أن هذا السفر هو أمالي أبي العلاء ونتيجة أبحاثه وخلاصة عمره ولباب فكره وانه وان صغر حجما فقد يحوى به النحوي الاماني ويجد فيه الراغب في اللغة جمهرة من المفردات وينال منه الصرفي مسائل كافية شافية لعلته ويتبين فيه البياني كيف يسبك المعنى الواحد في أساليب مختلفة بأرق عبارة وأرقى اسلوب ولا يعرض عنه العروضي لجذاب فوائده ونوادر فرائده الى غير ذلك مما لا يدرك الا بمطالعته ومتابعة دراسته) .

وقد قام بنشره السيد أسعد طرابزوني المدني بأشراف عالم الحجاز الشيخ محمد الطيب الانصارى .

وفي الكتاب مقدمتان الاولى لامير البيان شكيب أرسلان والثانية للكاتب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل . وقد أهداه صاحب التعليق الاستاذ محمد عبدالله المدني الى عاهل المملكة العربية السعودية عبدالعزيز آل سعود .

وفي الكتاب ترجمتان موجزتان الاولى تاريخ حياة البحتري والثانية تاريخ حياة أبي العلاء المعري .

أما شرح المعرى لشعر البحتري فلم يكن شرحا بالمعنى المعروف

لدينا اليوم وانما هو عبارة عن ملاحظات كان أبو العلاء يبديها على بعض شعر البحتري فينتقد ويستحسن ويرفع ويخفض ويشرح ما يعتقده خافيا على الجمهور ويبين مفارقات وموافقات ويشير الى ما أخذه الناس على الشاعر فيوافقهم أو يرد كلامهم[١] ٠

وهكذا يجري شيخ المعرة في شرحه ونقده لابي عبادة البحتري في كتابه عبث الوليد ٠

وها أنا أورد نمطا من تلكم الابحاث ليكون القارىء على بينة من الامر ٠

أتى أبو العلاء ببيت من قصيدة مطلعها :

زعم الغراب منبيء الانباء ان الاحبة آذنوا بتنائي

أما البيت الذى نقده أبو العلاء فهو قوله :

فلعلني ألقى الردى فيريحني عما قليل من جوى البرحاء

فقال : الاكثر في كلامهم (لعلّي) وبها جاء القرآن ٠ وربما جاء لعلني ٠ ومنهم من ينشد لانني وهو بمعنى لعلني ٠

وكقوله :

ما زلت تقرع باب بابك بالقنا وتزورَه في غارة شعواء

كانت الراء في تزوره مفتوحة ٠ وذلك غلط ٠ لان الواو هنا لا يجوز نصب ما بعدها اذ كانت ليست في أحد الوجوه التي يجوز فيها النصب مثل قوله (لا يسعني شيء ويضيق عنك) ٠

ثم ينتقل أبو العلاء الى حرف الباء مبتدأ بالقصيدة التي أولها :

رأى البرق مجتازا فبات بلا لبّ وأصباه من ذكر البخيلة ما يصبي

---

(١) عن نسخة واحدة فى مكتبة المتحف العراقي ولم يوجد غيرها فى مكتبات بغداد ٠

فيأخذ من هذه القصيدة قوله :

كـريم اذا ضـاق اللئـام فـانـه — يضيع الفضاء الرحب في صدره الرحب

فيقول كان في النسخة (يضيق الفضاء الرحب في صدره الرحب) وقد يحتمل هذا المعنى على أن تكون كلمة (في) مؤدية معنى كلمة (عند) كأنه يضيق الفضاء الرحب اذا قيس بصدره • ويضيع أبلغ في المعنى • وانمـا تعرّض لقول حبيب ابن أوس •

ورحب صدر لو أن الارض واسعة — كوسعـه لم يضـق عن أهله بلد

وكقـولـه :

لـه سـلف في آل فيروز بـرّزوا — على العجم وانقادت له جملة العرب

كانت في الاصل حفلة العرب بالفاء وفي الحاشية جملة العـرب • وكلتا الروايتين لا تمتنع • والاجود أن يقال جملة العرب أى جمعهم •

وكقـولـه :

يَكبّون من فوق القرابيس[٢] بالقنا — وبالبيض تلقاهم قياما على الركب

هكذا كانت في النسخة بفتح الياء والصواب يُكبون بضم الياء من أكب لان عجز البيت يدل على ذلك • يريد انهم يمدون أيديهم بالقنا ويعتمدون في اصوله فيكبون فوق القرابيس • واكب غير معتمد يقال كبيته لوجهه وأكب هو وانما أراد مقابلة الاكباب بالقيام •

وكقـولـه :

سـقياً لمجلسـنا الذى آنسته — واها لمجلسنا الذى اوحشته

يقول أبو العلاء لو أمكنت واو العطف في أول نصفه الثاني لكان

---

(٢) القرابيس جمع قربوس وهو الجزء المنحني من سرج الفرس أمام الراكب •

أمكن للكلام لانهم يؤثرون أن تكون الجملة الثانية معطوفة على الاولى الا أن تترك حرفا لا اختلاف في جوازه • ويدل على أن دخوله أحسن كقول أبي ذؤيب •

امن المنون وريبها توجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

فدخول الواو هنا أحسن من أن يقول (الدهر ليس بمعتب من يجزع) وان كان ذلك جائزا • ومن ذلك قول الآخر •

انما أهلك جيران لنا انما نحن وهم شيء أحد

وكقوله :

سأرحل عنك معتصما بيأس وأقنع بالذي لي فيه قوت
وآمل دولة الايام حتى تجيء بما أؤمل أو أموت

الاجود أن ترفع تجيء على مذهب من رفع في قول امرىء القيس :

مطوت بهم حتى تكل غزاتهم وحتى الجياد ما يقدن بارسان

وعلى قراءة من قرأ حتى يقول الرسول • ويجوز ان تنصب تجيء ويجعل قوله أو أموت عطفا على قوله وآمل •

وعلى هذا النمط من البحث والنقد يجرى أبو العلاء في كتابه (عبث الوليد) حتى يأتي على جميع الاشعار التي أراد نقدها •

الى هنا أقف في الكلام على ما جاء في الكتاب المذكور لان الغرض منه هو اعطاء صورة موجزة عنه وعن التعريف به وليس الغرض من دراسته سرد جميع ما جاء في الكتاب • هذا من جهة ومن جهة اخرى لئلا ينفذ جهد الطلاب في كتاب واحد من عشرات الكتب التي يجمل الاطلاع عليها •

الفصل الثالث عشر

هناك نقاد آخرون برعوا في فن النقد الادبي براعة فائقة لا يصح اغفالهم لما لهم من أثر في تطوير النقد وما لكتبهم من قيمة أدبية وفنية . ولاتمام دراستنا هذه رأينا ان نواصل مسيرتنا في الاطلاع على مظان هذا الفن حتى نبلغ المدى الذي بلغه أسلافنا ونوصل ماضينا بحاضرنا .

وبذلك نستطيع أن نقول اننا ألممنا بأهم المصادر النقدية وأشرفنا على جانب مهم منها .

ابن شُهَيْد

المولود سنة ٣٨٢ هـ

هو أبو عامر أحمد بن عبدالملك ، وهو حفيد ابن شُهيد وزير الناصر عبدالرحمن الاموي . ورث عن أجداده الغرام بمظاهر الصبوة والفتوة، والشغف بملاعب الحسن والجمال. غير انه لم يقدَّر له أن يظفر بما ظفر به أجداده من أسباب الجاه والمال والمُلك ، لأن ثِقَلَ سمعِه حجبه عن الاتصال بالملوك ، ولكنه انقاد لشبابه وهواه ، وأسلم زمامه لفطرته وطبعه ، فجاء شعره ونثره في أعلى درجات البيان .

والعيش في عرف أبي عامر هذا هو مجموعة من الحسن والخمر والادب . فما الحياة عنده الا وجه أصبح أو كأس مترعة أو رسالة أنيقة أو قصيدة بديعة فان خلت الدنيا من بعض ذلك فهي لغو وفضول ، وعيش الاديب فيها عبء ثقيل(١) .

---

(١) كتاب النثر الفني جـ٢ ص ٣٠٣ .

ولقد كان لهذا الاتجاه أثر كبير في أدب ابن شُهَيد فجاء صورة صادقة لحياته في اللهو والتصابي في الحب والغزل • أليس هو القائل :

أصفيحٌ شيم أم برق بدا ... أم سنا المحبوب اورى زندا
يمسح النعسة من عيني رشا ... صائدٌ من كل يوم أسدا
كاد أن يرجع من لثمي له ... وارتشافي الثغر منى ادردا
شربت أعطافه خمر الصبا ... وثناه الحسن حتى عربدا
واذا استنجزتُ يوماً وعده ... قال لي يمطل ذكرني غدا
قام في الليل بجيد أتلع ... ينفض اللمة مع دمع الندى
أحَتت من عضتي في نهدها ... ثم عضّت حُرّ خدى عمدا
فانا المجروح من عضتها ... لا شفاني الله منها أبدا[٣].

وكان مع كثرة مبالغته في الادب المكشوف كريم النفس محمود الخلال حتى لتراه أشرف الناس اذ يقول[٤] :

ان الكريم اذا نالته مخمصة
أبدى الى الناس ريا وهو ظمآن
يحنِي الضلوع على مثل اللظى حُرقا
والوجه غمرٌ بماء البشر ملآن

أو حين يقول :

الممت بالحب حتى لو دنا أجلي
لما وجدت لطعم الموت من الم
كلا الندى والهوى قِدماً ولعت به
ويْلي من الحب أو ويْلي من الكرم

---

(٣) كتاب المغرب في حلى المغرب جـ١ ص ٢٠٨ •
(٤) النثر الفني جـ٢ ص ٣٠٤ •

غير ان انغماره فى تيار الهوى أورثه سقما أقعده عن الحركة ولازمه ملازمة شديدة حتى غلب عليه الفالج فلم يعد يقوى على المشي الى حاجته الا معتمدا على عصا مرة وعلى انسان مرة اخرى حتى صار قبل وفاته بعشرين يوما حجرا لا يبرح ولا يتقلب ولا يحتمل تحريك جسمه لشدة أوجاعه • مع ضغط الانفاس وقلة الصبر حتى هم بالانتحار •

قال يصف حاله عند آخر عمره :

تأملت ما أفنيت من طول مدتي
فلم أره الا كلمحة ناظر
وحصلت ما أدركت من طول لذتي
فلم الفه الا كصفقة خاسر
وما أنا الا رهن ما قدمت يدى
اذا خلفوني بين أهل المقابر
سقى الله فتيانا كأن وجوههم
وجوهُ مصابيح النجوم الزواهر
يقولون قد أودى أبو عامر العلا
اقلّوا فقدماً مات اباء عامر
هو الموت لم يُصرف بأسجاع خاطب
بليغ ولم يُعطف بأنفاس شاعر
وليس عجيباً أنْ تدانت منيتي
يصدّق فيها اولي أمرَ آخرى
ولكن عجيب أن بين جوانحي
هوى كشرار الجمرة المتطاير

يحـركني والمـوت يحفـز مهجتي

ويهتـاجني والنفس عنـد حناجرى[٥]

قال ابن بسام فى صفة ابن شُهيد[٦] وكان أبو عامر شيخ الحضرة وفتاها ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها وينبوع آياتها ومادة حياتها وحقيقة ذاتها وابن ساستها وأساتها ومعنى أسمائها ومسمياتها نادرة الفلك الدوار واعجوبة الليل والنهار ان هزل فسجعُ الحمام أوجدّ فزئيرُ الاسد الضرغام نظم كما اتسق الدر على النحور ونثر كما خُلِط المسك بالكافور الى نوادر كأطراف القنا الاملود تشق القلوب قبل الجلود وجواب يجرى مجرى النَفَس ويسبق رجْع الطَرف المختلَس .

وقال صاحب الذخيرة ان أبا مروان بن حيان قد ذكر ابن شُهيد فى غير ما موضع فى كتابه فقال :

كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . واذا تأملته ولَسَنه وكيف يجرّ فى البلاغة رَسَنَه قلت عبدالحميد فى أوانه والجاحظ فى زمانه . والعجب منه انه كان يدعو قريحته الى ما شاء من نثره ونظمه فى بديهته ورويته فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب ولا اعتناء بالطلب ولا رسوخ فى الادب فانه لم يوجد له ـ رحمه الله ـ فيما بلغني بعد موته كتاب يستعين به على صناعته ويشحذ من طبعه الا ما لا قدر له . فزاد ذلك فى عجائبه واعجاز بدائعه . وكان فى تنسيق الهزل والنادرة الحارّة أقدر منه على سائر ذلك ، وشعره حسن عند أهل النقد تصرّف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم .

وله رسائل كثيرة فى فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال

(٥) كتاب النثر الفني جـ٢ ص ٣٠٧ .

(٦) كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، المجلد الاول ص ١٦١ .

قصار وطوال ، برّز فيها شأوه وبقاها في الناس خالدة بعده • وكان في سرعة البديهة وحضور الجواب وحِدّته مع رقة حواشي كلامه وسهولة الفاظه وبراعة أوصافه ونزاهة شمائله وخلائقه آية من آيات الله خالقه•(٧)

نثر ابن شهيد

لابن شهيد نثر فني رائع كنثر أهل زمانه يعنى بالمفردات النادرة والتراكيب المختارة ينحو فيها منحى أهل البديع يسجع حينا ويترسل أحيانا يطابق ويقابل ويورّي ويجانس ويخلط الهزل بالجد والجد بالهزل • تجد كل ذلك واضحا مرسوما في جميع كتاباته ورسائله الى مؤيديه ومعارضيه ومحبيه وحاسديه •

ومن نثره الذى اشتهر به رسالته المسماة بالتوابع والزوابع • انشأها بشكل محاورة بينه وبين عالم الجن وساقها مساق الهزل المشوب بالجد • وهي رسالة بارعة ودالة على مبلغ فضله واصالة أدبه وسعة اطلاعه •

يرى الدكتور زكي مبارك أن هناك تشابها كبيرا بين رسالة التوابع والزوابع ــ لابن شهيد ــ وبين رسالة الغفران • لأبي العلاء المعري ، اذ يرى ان موضوع الرسالتين واحد وهو عرض المشاكل الادبية والعقلية بطريقة قصصية • والخلاف فى جوهر الموضوع يرجع الى روح الكاتبين• فأبو العلاء يحرص أولا وقبل كل شيء على عرض المشاكل الدينية والفلسفية ، وابن شُهيد يحرص على عرض المشكلات الادبية والبيانية •

ويتفق كلا الرجلين على التعريض بمعاصريه وشرح ما أخذ على المتقدمين من أساطين العقل والبيان • والمسرح واحد تقريبا فهو عند ابن شهيد وادى الجن فى الدنيا وهو عند أبي العلاء وادى الانس فيالآخرة ،

---

(٧) كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، المجلد الاول ، ص ١٦٢ •

أي الفردوس والجحيم فالممثلون عند ابن شهيد جنٌّ يسخرون الناس وعند أبي العلاء إنس تسخّرهم الملائكة والشياطين ، وكان لكل انسان في عرفهم ملك وشيطان[8] .

ووجه ابن شهيد رسالته التوابع والزوابع الى أبي بكر بن حزم فقال له في صدرها :

لله أبا بكر ظن رميته فأصميت وحدس أمّلته فما اشويت ، أبديت بها وجه الجليّة وكشفت عن غرة الحقيقة حين لمحت صاحبك الذي تكسّبته ورأيته قد أخذ بأطراف السماء فألّف وَنَظَم فرقدَيها فكلما رأى ثغرا سدّ بسُهاها أو لمح خرقا رمه بزباناها فقلت كيف أُوتي الحكم صبيا وهزّ بجذع نخلة الكلام فاسّاقط عليه رطبا جنيا . أما أن به شيطانا يهديه وشيصبانا يأتيه . وأقسم أن له تابعة تنجده وزابعة تؤيده ليس هذا في قدرة الانس ولا هذا النَفَس لهذه النفْس فأما وقد قلتها أبا بكر فاصخْ أُسمِعْكَ العَجَبَ العُجاب .

كنت أيام كتاب الهجاء احن الى الادباء وأصبو الى تأليف الكلام ، فاتبعت الدواوين وجلست الى الاساتيذ فنبض لي عرق الفهم ودرّ لي شريان العلم بمواد روحانية . وقليل الالتماح من النظر يزيدني ويسير المطالعة من الكتب يفيدني اذ صادف شنُّ العلم طبقَة . ولم أكن كالثلج تقتبس منه نارا ولا كالحمار يحمل أسفارا فطعنت ثغرة البيان دراكا وأعلقت رِجْلَ طيرِه اشراكا فانثالت لي العجائب وانهالت عليّ الرغائب وكان لي أوائل صبوتي هوى اشتد به كلفي ثم لحقني بعد ملل في أثناء ذلك الميل ، فتفق ان مات من كنت أهواه مدة ذلك الملل فجزعت وأخذت في رثائه يوما في الحائر وقد أُبهِمَت عليّ أبوابه وانفردت فقلت :

---

(8) كتاب النثر الفني الجزء الاول ، ص ٣٦٠ .

تولى الحِمام بظبي الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير

الى أن انهيت الى الاعتذار من الملل الذى كان ، فقلت :

وكنت مللتك لا عن قِلى ولا عن فساد جرى في الضمير

فارتج عليَّ القول وأُفحِمتُ ، فاذا أنا بفارس بباب المجلس على فرس أدهم كأنما بقل وجهه قد اتكأ على رمحه وصاح بي أعجز يا فتى ؟ قلت لا وأبيك • للكلام أحيان وهذا شأن الانسان • قال لي قل بعده •

كمثل مَلال الفتى للنعيم اذا دام فيه وحالِ السرور

فاثبت اجزته ، وقلت له : بأبي أنت ، من أنت ؟ قال : أنا زهير بن نمير من أشجع الجن ، فقلت : وما الذى حداك الى التصور لي ؟ فقال هوى فيك ورغبة في اصطفائك • قلت : أهلا بك أيها الوجه الوضاح صادفت قلبا اليك مقلوبا وهوى نحوك مجنوبا وتحادثنا حينا ثم قال : متى شئت استحضاري فانشد هذه الابيات :

والِي زهيرَ الحبِ ياعزَّ انه
اذا ذكرته الذاكرات أتاها
اذا جرت الافواه يوما بذكرها
يخيّل لي اني اقبّل فاها
فاغشى ديار الذاكرين وان نأت
اجارع من دارِي هوى لهواها

وأوثب الادهم جدار الحائط ثم غاب عني • وكنت أبا بكر متى أرتج عليَّ أو انقطع بي مسلك أو خنني اسلوب أنشد الابيات فيمثّل لي صاحبي فأسير الى ما أرغب وأدرك بقريحتي ما أطلب • وتأكدت صحبتنا ، وجرت قِصص لولا أن يطول الكتاب لذكرت أكثرها لكنى ذاكر بعضها.

فصل من رسالة التوابع والزوابع

تذاكرتُ يوما مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء ، وما كان يألفهم من التوابع والزوابع • وقلت هل حيلة في لقاء من اتفق منهم ؟ قال: حتى استأذن شيخنا وطار عني ثم انصرف كلمح بالبصر وقد أُذِنَ له ، فقال : حُلَّ على متن الجواد فصرنا عليه وسار بنا كالطائر يجتاب الجوّ فالجوّ ويقطع الدوّ فالدوّ حتى التمحتُ أرضا لا كأرضنا وشارفتُ جوا لا كجونا متفرع الشجر عطر الزهر فقال لي : حللتَ أرض الجن أبا عامر • فمن تريد أن نبدأ قلت الخطباء اولى بالتقديم لكنّي الى الشعراء أشوق ، قال فمن تريد منهم ؟ قلت صاحب امرىء القيس • فأمال العنان الى وادى من الاودية ذى روح تتكسر أشجاره وتترنم أطياره فصاح ياعتيبة بن نوفل ، بسقط اللوى فحومل ويوم دارة جُلجُل • الا ما عرضت علينا وجهك وأنشدتنا من شعرك وسمعت من الانسيِّ وعرّفتنا كيف اجازتك له ! فظهر لنا فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب فقال : حيّاك الله يا زهير وحيّا صاحبك ، أهذا فتاهم ؟ قلت هو هذا ، وأى جمرة يا عتيبة • فقال لي انشدك فقلت السيد أولى بالانشاد • فتطارح طرفه واهتز عطفه وقبض عنان الشقراء وضربها بالسوط فسمت تُحضِر طولا عنا وكرَّ فاستقبلنا بالصَّعدة هازا لها • ثم ركزها وجعل ينشد :

سما لك شوق بعدما كان أقصرا

حتى أكملها ثم قال لي : أنشد فهممت بالحَيْصَة ثم اشتدت قوى نفسي وأنشدت :

حتى انتهيت فيها الى قولي :

ومن قبة لا يدرك الطَّرفُ رأسها
تزلَّ بها ريح الصَّبا فتحدر

تكلفتها والليل قد جاش بحره
وقد جعلت أمواجه تتكسر
ومن تحت حضني أبيض ذو سفاسق
وفي الكف من عسالة الخط أسمر
هما صاحباى من لدن كنت يافعا
مقيلان من جدّ الفتى حين يعثر
فذا جدول في الغمد تُسقى به المنى
وذا غُصُنٌ في الكف يُجنى فيُثمِر

فلما انتهيت تأملني عتبة ثم قال: اذهب فقد اجزتك وغاب عنا •

وهكذا يجري ابن شهيد راكبا خلف صاحبه الجني زهير بن نمير على فرسه الادهم ينتقلان من واد الى واد ومن غيضة الى غيضة ومن مرج الى مرج فيمر ركبهما بشياطين الشعراء والخطباء ويقفان عند كل واحد منهم يتناشدان الاشعار ويتبادلان الخطب فينتزع أبو عامر منهم اعترافا بشاعريته واجازةً بتفوقه في رسائله • ولولا الاطالة في الكلام لسقنا رسالة التوابع والزوابع بالتمام •

الثعالبي
المتوفى في ٤٢٩ هـ •

هو أبو منصور عبدالملك محمد بن اسماعيل النيسابوري الثعالبي ، لقب بذلك لأنه كان فرّاء بجلد الثعالب • وهو خاتمة مترسلي عصره وأهم ادبائه ، لانه كان أكثرهم آثاراً وأوسعهم مادة • وهو الذى ترجمهم وذكر أخبارهم ، وكان في عصره المشار اليه وراعي تلعات العلم وجامع أشتات النثر والنظم ورأس المؤلفين وامام المصنفين وخصوصا فى الشعر والشعراء والادب والادباء • وله شعر مطبوع • ومن نظمه فى وصف الفرس قوله •

يا واهب الطرف الجواد كأنما قد أنعلوه بالرياح الاربع
لا شيء أسرع منه الا خاطرى في وصف نائلك اللطيف الموقع
ولو انني أنصفت في اكرامه لجلال مهديه الكريم الالمعي
أقضمته حبّ الفؤاد لحبه وجعلت مربطه سواد المدمع
وخلعت ثم قطعت غير مضيع بُردَ الشباب لجله والبرقع

وله كتب كثيرة في موضوعات مختلفة هاك ما بقي عندنا منها :

١ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر تشتمل على أخبار شعراء المئة الرابعة للهجرة وهو العصر العباسى الثالث فى أربعة مجلدات وجعله أبوابا ، وجعل لكل اقليم بابا منها •

٢ ـ لطائف المعارف : هو جزيل الفائدة في موضوعه لأنه يشتمل على فوائد لا تنال الا بمطالعة الكتب الكثيرة • أولها باب الاوائل من كل شيء • كقوله أول من جلس على سرير من ملوك العرب ، وأول من كسا الكعبة بالحرير ••• الخ •

٣ ـ فقه اللغة : وهو معجم معنوى جمعت فيه المعانى المتقاربة أو المترابطة في باب واحد مع بيان الفرق بينها أو تدرجها أو تفرعها مما يفتقر الى درس طويل • وذكر في المقدمة أسماء اللغويين والرواة والنحاة الذين عوّل عليهم •

٤ ـ الاعجاز والايجاز •

٥ ـ نثر النظم أو حل العقد : هو عبارة عن تحويل الشعر المنظوم الى شعر منثور •

٦ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : وهو كتاب أدب وفيه فوائد تاريخية على اسلوب خاص به لانه مقسوم الى فصول باعتبار أشياء مضافة الى أشياء اخرى يتمثل بها ويكثر استعمالها فى النظم والنثر

على أَلْسنة العامة والخاصة ، كقولهم غراب نوح وذئب يوسف وعصا موسى ...

وقد أحصى الاستاذ جرجي زيدان أن له ستة وثلاثين كتابا فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية • (الجزء الثانى) • ص (٢٧٦ و ٢٨٤) ومن آرائه التى ذكرها في مقدمة كتابه يتيمة الدهر في الشئون الادبية قوله: ان أشعار الاسلاميين أرق من أشعار الجاهليين ، وأشعار المحدثين الطف من أشعار المتقدمين ، وأشعار المولدين أبدع من أشعار المحدثين • وكانت أشعار العصريين أجمع لنوادر المحاسن ، وانظم للطائف البدائع من أشعار المذكورين لانتهائها الى أبعد غايات الحسن ، وبلوغها أقصى نهايات الجودة والظرف ، تكاد تخرج من باب الاعجاب الى الاعجاز ، ومن حد الشعر الى السحر ، فكأنّ الزمان ادخر لنا من نتائج خواطرهم ، وثمرات قرائحهم ، وابكار أفكارهم أتم الالفاظ والمعانى استيفاء لاقسام البراعة ، وأوفرها نصيبا فى كمال الصنعة ، ورونق الطلاوة :

ولذاك قد ساد النبيّ محمدٌ   كلّ الانام وكان آخرَ مُرسل

وطريقته في تأليف كتاب اليتيمة انه قسمه الى أقسام ، وجعل الباب الاول من القسم الاول فى فضائل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان مع ذكر العلل والاسباب ، وجعل فى الباب الثانى أخبار سيف الدولة وملح من أشعاره • وهكذا يفعل فى كل من تناوله من الشعراء والادباء • حتى يستوفى ما أراد ويحصل به المراد •

ومن فضائل هذا الكتاب انه جمع فأوعى واختار فأحسن المختار فكأنه دائرة معارف لشعراء وادباء العصر الذى عاش فيه ، على رغم ما تخلله من فاحش الشعر ومباذل النثر • مما يستقبحه أهل الدين ويستملحه اولو الادب •

ابن رشيق القيرواني

وكتابه العُمدة

هو الحسن بن رشيق رومي الاصل قيرواني النشأة ولد بالمسيلة وقرأ الادب بالمحمدية . ولما تاقت نفسه الى التزيد من الادب وملاقاة أهله رحل الى القيروان فاشتهر بها ومدح صاحبها المعز الفاطمي . ولما هاجمها العرب انتقل الى مازر وهي قرية في جزيرة صقلية الى أن مات سنة ٤٦٣هـ[٩] .

تأدب ابن رشيق على أبي عبدالله بن جعفر القزاز القيرواني النحوى اللغوي وعلى غيره من مشايخ القيروان فنشأ شاعرا بليغا ولغويا حاذقا ونحويا متقنا وعروضيا مفتنا ... ومن شعره الذى امتدح به المعز بن باديس بن المنصور قوله :[١٠]

يابن الاعزة من أكابر حمير ... وسلالة الاملاك من قحطان

من كل أبلج واضح بلسانه ... يضع السيوف مواضع التيجان

ومن شعره الذى أدخله في خدمة ديوان المعز قوله :

لدن الرماح لما يسقى أسنتها

من مهجة القيل أو من ثغرة البطل

لو أثمرت من دم الاعداء سمرقنا

لأورقت عنده سمر القنا الذبل

اذا توجه فى اولى كتائبه

لم تفرق العين بين السهل والجبل

---

(٩) ترجمته عن المحلل السندسية .

(١٠) معجم الادباء جـ ٨ ص ١١٠ .

فالجيش ينفض حوليه أسنته ... نفض العقاب جناحيه من البلل
يأتي الامور على رفق وفي دعة ... عجلان كالفلك الدوار فى مهل

وأنشد لنفسه :

أحب أخي وان اعرضت عنه ... وقلّ على مسامعه كلامي
ولي في وجهه تقطيب راض ... كما تطّبت فى وجه المدام
وربّ تجهّم من غير بغض ... وضغن كامن تحت ابتسام

وقال في وصف ليلة من ليالي العمر :

ومن حسنات الدهر عندى ليلة ... من العمر لم تترك لأيامها ذنبا
خلونا بها ننفي القذا عن عيوننا ... بلؤلؤة مملوءة ذهبا سكبا
وملنا لتقبيل الثغور ولثمها ... كميل جناح الطير يلتقط الحبّا

ولأبن رشيق مؤلفات كثيرة اشهرها واهمها :

١ ــ كتاب العمدة ، يبحث في صناعة الشعر ونقده وعيوبه وهو اجل كتاب فى هذا الموضوع يقسمه الى أبواب فى فضل الشعر واشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء ، ومن رفعه الشعر ووضعه ، ومن قضى له وقضى عليه ، واحتماء القبائل بشعرائها ، والتكسب بالشعر ، ومنافعه ومضاره ، والمقلين من الشعراء ، وحدود الشعر واوازنه وبحوره ، والبلاغة والايجاز والاستعارة ، والشعر المطبوع والمصنوع فى الاوزان والقوافى فى البديهة والارتجال وآداب الشاعر ، وفى آخره فصول فى النسب وأيام العرب وملوك العرب ، وفى خلاله طائفة من احسن الاشعار وتحليلها ومعانيها على طريق الانتقاد .

قال ابن خلدون : ان كتاب العمدة هو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة وأعطاها حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله . طبع فى القاهرة فى جزئين سنة ١٩٠٠ .

٢ ـ كتاب قراضة الذهب في نقد أشعار العرب .. منه نسخة خطية في باريس . وقد ضاعت سائر كتبه[١١] .

رجع الى كتاب العمدة

في محاسن الشعر وآدابه

كتاب العمدة هو من تأليف الحسن بن رشيق القيرواني ، جعله في جزئين وضمن الجزء الاول منهما ٤٤ بابا . أهم هذه الابواب

١ ـ باب في فضل الشعر . ٢ ـ في الرد على من يكره الشعر . ٣ ـ باب في اشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء . ٤ ـ باب من رفعه الشعر ومن وضعه . ٥ ـ باب من قضى له الشعر ، ومن قضى عليه . ٦ ـ باب احتماء القبائل بشعرائها . ٧ ـ باب في منافع الشعر ومضاره . ٨ ـ باب التكسب بالشعر والانفه منه . ٩ ـ باب حد الشعر وبنيته . ١٠ ـ باب في حد اللفظ والمعنى . ١١ ـ باب في المطبوع والمصنوع . ١٢ ـ باب في آداب الشاعر . ١٣ ـ باب عمل الشعر وشحذ القريحة له . ١٤ ـ باب المخترع والبديع . وبقية الابواب تبحث في موضوعات بلاغية وعروضية مبثوثة في الكتب الخاصة في هذين العلمين .

اقتصرت البحث على ذكر هذه الابواب لعلاقتها بابحاث النقد الادبي . كما اني اخترت من هذه الابواب المختارة بعضها لضرورة الاطلاع عليها .

ومما تجب الاشارة اليه ان كتاب العمدة قد حققه وعلق حواشيه العلامة محمد محيي‌الدين عبدالحميد المدرس في كلية اللغة العربية بالجامع الازهر . الذي اثنى على هذا الكتاب فقال : هو الكتاب الذي جمع احسن

---

(١١) ملخص عن كتاب العمدة نفسه ومن كتاب تاريخ آداب اللغة العربية ، لجرجي زيدان جـ٢ ، ص ٢٨٨ .

ما قاله كل واحد ممن صنف فى معاني الشعر ومحاسنه وآدابه ، وعوّل مؤلفه على قريحة نفسه ونتيجة خاطره خوف التكرار ، ورجاء الاختصار .

قال فى باب فضل الشعر : العرب افضل الامم ، وحكمتها اشرف الحكم لفضل اللسان على اليد ، والبعد عن امتهان الجسد ، حيث خروج الحكمة عن الذات بمشاركة الآلات ، اذ لابد للانسان من أن يكون تولى ذلك بنفسه او احتاج فيه الى آلة او معين من جنسه .

وكلام العرب نوعان منظوم ومنثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات جيّدة ، ومتوسطة ، ورديئة ، فاذا اتفق الطبقتان فى القدر وتساوتا فى القيمة ، ولم يكن لاحدهما فضل على الاخرى كان الحكم للشعر ظاهراً فى التسمية ، لان كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه فى معترف العادة[١٢] .

وقال فى باب الرد على من يكره الشعر ! ان النبى صلى الله عليه وسلم بنى لحسان بن ثابت منبراً فى المسجد ينشد عليه الشعر . ويُروَى عن أسماء بنت أبى بكر رَضِيَ الله عنهما قالت : مرّ الزبير بن العوام رضي الله عنه بمجلس لاصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وحسان ينشدهم وهم غير آذنين لما يسمعون من شعره ، فقال : مالى اراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفُريعة ؟ لقد كان ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيحسن استماعه ويجزل ثوابه ، ولا يشتغل عنه اذا انشده . وقيل لسعيد بن المسيب ! ان قوماً بالعراق يكرهون الشعر . فقال : نسكو نسكا اعجمياً .

وقال فى باب حد الشعر وبنيته : الشعر يقوم بعد النية من اربعة اشياء ، هى : اللفظ ، والوزن ، والمعنى والقافية . لان من الكلام موزوناً مقفى وليس بشعر ، لعدم القصد والنية ثم يذكر قول علي بن عيسى

---

(١٢) الجزء الاول ص ٧ .

الرماني : اكثر ما تجرى عليه اغراض الشعر خمسة النسيب ، والمدح والهجاء ، والفخر ، والوصف •

وينقل عن القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة قوله : الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع ، والرواية ، والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من اسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخِصال فهو المحسن المُبرِز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان • وقال : ولست افضل في هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلي ، والمخضرم ، والاعرابي والمولد • الا انى ارى حاجة المحدث الى الرواية امَس، واجده الى كثرة الحفظ افقر، فاذا إستكْشَفْتَ عن هذه الحال وجدتَ سببها والعلة فيها ان المطبوع الذكي لا يمكنه تناول الفاظ العربي إلاّ روايةً، ولا طريق الى الرواية الا السمع ، وملاك السمع الحفظ •

وقال اسحاق بن ابراهيم الموصلى : قلت لاعرابيٍّ : من اشعر الناس ؟ قال : الذى اذا قال اسرع ، واذا اسرع ابدع ، واذا تكلم اسمع ، واذا مدح رفع ، واذا هجا وضع •

وقال فى باب الكلام عن اللفظ والمعنى :

اللفظ جسم ، وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضَعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى ، واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر ، وهُجنة عليه ، كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعور وما اشبه ذلك • من غير ان تذهب الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى ، واختل بعضه ، كان للفظ من ذلك اوفر حظ ، كالذى يعرض للاجسام من المرض بمرض الارواح ، ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ ، وجريه فيه على غير الواجب ، قياساً على ما قدمت من ادواء الجسوم والارواح ، فان اختل المعنى كله وفسَدَ بقى اللفظ مواتاً لا فائدة فيه ، وان كان حسن الطلاوة

في السمع ، كما ان الميت لم ينقصْ من شخصه شيء في رأى العين ، الا انه لا يُنتَفَعُ به ، ولا يفيد فائدة. وكذلك ان اختل اللفظ جملة ، وتلاشى لم يصبح له معنىً ، لانا لا نجد روحاً في غير جسم البتة[14] .

وقال في باب المطبوع والمصنوع من الشعر إنّ المطبوع منه هو الاصل الذي وضع اولا ، وعليه المدار ، والمصنوع (وان وقع عليه هذا الاسم) فليس متكلفاً تكلفَ اشعار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمُلٍ ، وقع بطباع القوم عفواً ، فاستحسنوه ومالوا اليه بعض الميل .

---

(١٣) الجزء الاول ص ١٤ ، و ١٥ .

(١٤) الجزء الاول ص ١٠٣ .

الفصل الرابع عشر

ابن سنان الخفاجي
وكتابه سر الفصاحة

هو ابو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد الخفاجي احد شعراء الشام وأمير قلعة عزاز من أعمال حلب وُلِدَ سنة ٤٢٢ وتوفي سنة ٤٦٦هـ •

اخذ العلم والادب على علماء عصره واختص بالدراسة على ابي العلاء المعرى وكان انتفاعه به اكثر من غيره •

له ديوان شعر نسخة منه فى المكتبة الخديوية وله كتاب سر الفصاحة منه نسخة في برلين •

* * *

ولما أتم ابن سنان تعليمه سعى لدى صاحبه ابي نصر محمد بن النحاس الذى كان وزيرا لأمير حلب محمود بن نصر بن مرداس حتى تمكن ابن النحاس ان يوليه قلعة عزاز من اعمال حلب • ولكن ابن سنان كان فى نفسه نزوع الى الثورة الذى ورثه عن استاذه ابي العلاء • فلم يلبث ان اعلن العصيان على الامير محمود الذى امر وزيره ابن النحاس ان يكتب اليه ليستدرجه ويرجعه الى الطاعة ويحضره اليه بحلب • فقال الامير لأبن النحاس قل له ان امير حلب لا يأمن الا اليك ولا يثق الا بك • فكتب الوزير الكتاب ، ولما فرغ منه كتب فى اخره انّ شاء الله تعالى وشدد النون من (ان) ••• فقرأ الخفاجى كتاب صاحبه واطمأن به فخرج من قلعة عزاز قاصدا حلب • ولكنه خطر له في الطريق ان يعيد النظر فى الكتاب فلما قرأه وجد التشديد على النون فأمسك رأس فرسه وفكر في نفسه واعتقد ان صاحبه ابن النحاس لم يضع الشدة عبثا ، اذ لاح له انه اراد بتشديد

النون ، الآية الكريمة « إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » فعاد الى قلعة عـزار وكتب الجواب . انا الخادم المعترف بالانعام الخ ... وكسر الهمـزة من (إنا) فلما وقف ابو نصر بن النحاس على ذلك سُرّ سرورا كبيرا وعـلم انه قصد به قوله تعالى « انا لن ندخلها ابدا ما داموا فيهـا » . وبعد ذلـك استدعى الامير محمود وزيره وقال له أنت أشرت عليّ بتوليته وما أعرفـه إلا منك ومتى لم يفرغ بالي منه قتلتك . ولما لم يجد ابن النحّاس من الامر بدا مضى الى ابن سنان وفي صحبته ثلاثون فارسا فاذا قاربه عرفه بحضوره وطلب اليه ان يطيعه فى الحضور الى حلب فاطاعه وفي الطريق اعطوه طعاما مسموما ولما أكله شـعر بمغص شديد وأخذته رعدة شديدة فقال قتلني والله أخي ابو نصر ورجع الى قلعته فلبث مدة حتى مات سنة ٤٦٦ هـ في سن مبـكرة ولم يحقق شيئا من مطامعه التي يقول فيها :(١) .

من مبلـغ اللـوام ان مطامعـي   صارت حديثا بينهـم وقصائـدا

ولم يتمكن من ان يصلح بثورته شيئا من مفاسد عصره تلك المفاسد التي يقول فيها :

استغفر الله لا مـال ولا شـرف   ولا وفـاء ولا ديـن ، ولا انف
كانما نحن فى ظلمـاء داجية   فليس ترفع عن ابصارنا السجف

---

(١) عن مقدمة كتاب سر الفصاحة .

كتاب سر الفصاحة

اما كتابه سر الفصاحة فعنوانه يكشف عن موضوعه وان كان قد تكلم في اوليائه واطال في اثبات ان الصوت عرض وليس بجسم حتى امل بتلك الاطالة • ثم يدخل في موضوع اخر هو موضوع الحروف فيطيل فيه البحث ايضا كما اطال في بحث الاصوات • فيأخذ بتعريف الحرف في كلام العرب فيقول : الحرف حَد الشيء وحِدّته ، ومن ذلك حرف السيف انما هو حده وناحيته وقولهم انحرف فلان عن فلان اى جعل بينه وبينه حدا بالبعد •

وفسر ابو عبيدة معمر بن المثنى قوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف) اى لا يدوم ، وفسره ابو العباس ثعلب (اى على شك) والمراد انه غير ثابت على دينه ولا مستحكم البصيرة فيه فكانه على حرفه وليس في وسطه •

وسميت الحروف حروفا لانها حدود منقطع الصوت • فاما قولهم في القراءة حرف ابى عمرو فقد قيل فيه ان المراد منه الحد ما بين القراءتين ، والمعنى ان القارىء يؤدى حروف ابي عمرو باعيانها من غير زيادة ولا نقصان •

وهكذا يدخل ايضا في تعليلات فلسفية فيذكر الحروف المستحسنة وغير المستحسنة والقوية والضعيفة والرخوة والشديدة وما يجرى بينهما • ثم الحرف المجهور والمهموس ومعنى الجهر والهمس • ثم حروف الذلاقة الستة كاللام والراء والنون والفاء والباء والميم وما سواها من الحروف فهى المصمتة •

والظاهر من قوله في ختام موضوع الحروف انه شعر هو نفسه بالاطالة فيه فقال :

وللحروف ايضا انقسام الى الصحة والاعلال والزيادة والاصل والسكون والحركة وغير ذلك مما علاقته بالنحو اكثر • ولو ذكرنا لاطلنا وعدلنا عن الغرض • وانما اردنا ذكر ما لا يستغني عنه طالب معرفة الفصاحة التي لها يقصد واليها ينحو • فاما ماسوى ذلك فاللمحة تقنع منه واللمعة تغني فيه ، وفيما اوردناه من اقسام الحروف واحكامها فى هذا الفصل مقنع ولا يليق به الزيادة عليه لانه كالطريق الذى نجتاز فيه الى مرادنا ونتوصل بسلوكه الى مقصدنا فاللبث به غير واجب والريث فيه غير محمود • ثم يتحدث بعد ذلك فى الكلام واللغة حتى اذا اشبعهما بحثا انتقل الى الكلام فى الفصاحة •

اما بحثه عن الكلام فانه يتناول فيه تعريف الكلمة والكلام والكلم والمهمل والمستعمل والمفيد وغير المفيد وكذلك يفعل فى تناوله بحث اللغة فيتكلم فيه عن اصل اللغات ونشأتها • ويرى ان اصل اللغات مواضعة وليس بتوقيف ، كما يرى فضل اللغة العربية على سائر لغات البشر فيقول[٢] :

ومن تتبع جميع اللغات لم يجد فيها ـ على ما سمعته ـ لغة تضاهي اللغة العربية في كثرة الاسماء للمسمى الواحد على ان اللغة الرومية بالضد[٣] فان الاسم الواحد يوجد فيها للمسميات المختلفة كثيرا • وقد كان بعض اللغوين حصر اسماء السيف والاسد في لغة العرب فكانت اوراقا عدة • وهي مع السعة والكثرة اخصر اللغات في ايصال المعاني وفي النقل اليها • فليس هناك كلام ينقل الى لغة العرب الا ويجيء الثاني اخصر من الاول مع سلامة المعاني وبقائها على حالها • وهذا لا شك فضيلة مشهورة وميزة كبيرة • لان الغرض في الكلام وفي وضع اللغات بيان المعاني

---

(٢) كتاب سر الفصاحة ص ٤٨ •

(٣) هي المعروفة الآن باللغة اللاتينية •

وكشفها • فاذا كانت تفصح عن المقصود وتظهره مع الاختصار والاقتصار فهي اولى بالاستعمال وافضل مما يحتاج فيه الى الاسهاب والاطالة • ثم قال : وقد اخبرني ابو داود المطران ـ وهو عارف باللغتين العربيـة والسريانية انه اذا نقل الالفاظ الحسنة الى السرياني قبحت وخست واذا نقل الكـلام المختار من السرياني الى العربي ازداد طلاوة وحسنا • وهـذا الذى ذكره المطران صحيح يخبر به اهل كل لغة عن لغتهم مع العربية ••• فكان ما ينقل من اللغة العربيه يتغير حسنه لهذه العلة وما ينقل الى العربية يمكن الزيادة على طلاوته لان ناقله يجد ما يعبر به في العربية افضل مما يريد وابلغ مما يحـاول •

ومما هو جدير بالذكر اكباره واعجابه بلغة العرب • ولم يكن مصدر اعجابه هذا هو حبه للغته وانما يتحدث بذلك من الناحية الموضوعية فيقول :

فاما السعة فالامر في لغة العرب واضح لان الناظم او الناثر اذا حظـر عليه موضع ايراد اللفظة وكانت اللغة التي ينسج منها ذات الفاظ كثيرة تقع موقع تلك اللفظة في المعنى اخذ ما يليق بالموضع من غير عنت ومشقة • وهذا غير ممكن لولا السعة في كثرة الاسماء للمسمى الواحـد • وتلك فائـدة حاصلة بلا خلاف • على انه ربما عرض في وضع الاسماء المشتركة فائـدة في بعض المواضع • مثل ان يحتاج الناطق الى كـلام يؤثر ان يكنى فيـه ولا يصرح ، فيقول لفظة ويوهم بها معنى قد قصد غيره • وهذا وان قـل الداعي اليه الا في اليسير من المواضع فلم تجعل اللغة العربية خالية منهـا ، بل فيها اسماء مشتركة كثيرة •

وههنا لها فضيلة اخرى • وهي ان الواضع لها ان كانت مواضعة تجنب فى الاكثر ما يثقـل عـلى الناطق تكلفه والتلفظ بـه كالجمع بين الحروف المتقاربة فى المخارج وما اشبه ذلك • واعتمد مثل هذا فى الحركات ايضا فلم يأت الا بالسهل الممكن ، دون الوعـر المتعب • ومتى تأملت الالفـــاظ

المهملة لم تجد العلة فى اهمالها الا هـذا المعنى • وليس غيرها مـن اللغات كذلك • كلغة الارمن والزنج وغيرهم •

ومما يدل عـلى فضل هذه اللغة العربيـة ايضا وتقدمها عـلى جميع اللغات ان اربابهـا واصحابها هم العرب الذين لا امـة من الامـم تنازعهم فضائلهم ولا تباريهم فى مناقبهم ومحاسنهم ، وان كانوا تواضعوا على هذه اللغـة فلم تكن تنتج اذهانهم الصقيلة وخواطرهـم العجيبة الا شـيئا خليقا بالشرف وامرا جديرا بالتقدم وان كان توقيفا من الله تعالى لهم ومنة منّ بها عليهم فلم يكن بد لهم من العناية بشأنهم والتشيد من ذكرهم حتى ركّبهم عـلى حميد الخصال وطبعهم عـلى جميل الاخلاق الا عـلى غاية لا يتعلق بشأوها ورتبة يقصر الطالبون عن بلوغها • ولست فى هـذه النتيجة ممن يدعى تقديمها عصبية ولا يذهب اليها حمية •••••

ووجه تفضيل العرب عـلى غيرهم ان الخصال المحمودة توجد فيهم اكثر وفى غيرهم اقل وعـلى هـذا الحد يقع التميز بين القبيلتين واهـل البلدين • ومتى تأمل المصنف حال العرب علم حقيقة ذلك •

أما الكرم فالامر فيهم واضح ، لانا لم نجد امة من الامم ولا شعبا من من الشعوب رأى قِرى الضيف واجبا ومساواة الجار فريضة الا هـذه الامة من العرب • حتى صرحوا بذلك فى اشعارهـم ودونوه فى المأثور عنهم • وتساوى فيـه موسرهم ومعسورهم وغنيهم وفقيرهم • هـذا وهم الاكثر أهل جـدب وفاقـة وضيق وعسر ونصب فى انتجاع الرزق وكد التعرض للكسب ثم بلغ من حبهم الجـود وصبابتهم الى جميل الذكر ان سمحوا بنفوسهم ورأوا البخل بها مذموما كالبخل باموالهم ••• ولم نر فى الهند والزنج والحبش والترك من ادعى مثل هذه السجية ولا انتسب الى هذه الخلة • فاما الفرس والروم فالبخل عليهم غالب وحب الغنى مركز

في طباعهم • ليس عندهم في ذلك كبير عار ولا يلحقون انفسهم به منقصة •

واما الوفاء فمن دينهم الذى كانوا يرونه لازما ومذهبهم الذى كانوا يعتقدونه حتما حتى صار من تمسك بجوارهم او تعلق ببعض اطنابهم تبذل النفوس دونه • وتراق الدماء في المنع منه • فكم قتل الرجل منهم في ذلك أقرب الناس اليه نسبا وامسهم به رحما • وكم من وقعة عظيمة وحرب جليلة طويلة جرها ضيم نزيل او التعرض لسب جار •

واما اليأس والنجدة وطاعة الغضب والحمية وادراك الثار وطلب الاوتار فاخبارهم بذلك معروفة وسيرهم فيه بذلك متداولة لا يخص به الرجل دون المرأة• بل يوجد عند نسائهم من الصبر والشجاعة ما لا يساويه عند غيرهم •••• ثم هم لم يرضوا شماسهم بذلة المهن ولا مرنوا نخواتهم على معانات الحرف لا يسأل احدهم الرزق الا من غرار سيفه ولا يستنجد على نفي الضيم الا بسنان رمحه واما العقول الصحيحة والاذهان الصافية فالامر في تفضيلهم واضح وذلك انهم لم يكونوا اهل تعليم ودرس ولا اصحاب كتب وصحف وفي كلامهم من الحكم العجيبة والامثال الغريبة والحث على محاسن الاخلاق والامر بجميل الافعال ما اذا تأملته غض عندك ما يروى عن حكماء اليونان وسهّل الامر عليك فيما حكاه الناس عنهم •

ثم لما صاروا الى الدين وتمسكوا بالشريعة وعادوا اصحاب كتاب يدرس ومذهب يروى ظهر من دقيق افهامهم وعجيب كلامهم ما لا يخفى على احد جالس العلماء وخالط كتبهم •

واما حبّ الذكر وجميل الثناء والخوف من الذم وسوء القول مما هو معلوم من عاداتهم معروف من شيمتهم حتى كانوا اذا اسروا شاعرا شدوا لسانه بنسعة خوفا من أن يسبقهم ببيت يشرد أو يعجلهم بقول يؤثر • هذا مذهب فاقت به العرب جميع الامم وهو مذهب جامع لاصناف الخير •

واما الغيرة والانفة والصبر والجلد فمعلوم منهم حتى ذكروا بالغلظة والقساوة وعُلّل ذلك باكثارهم اكل لحوم الابل التي من عادتها غلظ الاكباد وفى طباعها قسوة القلوب .

هذا وهم متى هب فى احدهم نسيم الصبابة ودبت فى مفاصله نشوة الهوى لانت تلك المعاطف ورقت تلك الشمائل وعاد ذلك العز ذلا وفرقا وصارت تلك النخوة توسلا وخضوعا لكنه مع العفاف من الرِيَب والبعد من التهم والمساواة بين الباطن والظاهر والاتفاق بين الغائب والبادى . واشعارهم واخبارهم بهذا كله مملوءة حتى كان هذا الحي من عذرة قوما اذا نظروا عشقوا واذا عشقوا ماتوا(٤) .

واما مراعاة الانساب وحفظها وذكر الاصول والبحث عنها فباب تفردت به العرب فلم يشاركها فيه مشارك ولا ماثلها فيه مماثل . وفوائده الانتصار للعشيرة والحمية للاهل وغير ذلك معروفة .

هذه شيمهم وأخلاقهم . وفيهم بعد ذلك كتاب الله خير الكتب ورسوله سيدالرسل ودينه ناسخ الاديان .

وبعد هذا الثناء العاطر على العرب ولغةالعرب المؤيد بالادلةالساطعة والبراهين القاطعة على طيب عنصرهم ورجاحة عقولهم وحسن اخلاقهم واصالة لغتهم باشر الكلام فى الفصاحة والبلاغة والفرق بينهما . ثم تكلم عن شرف هذا العلم الذى به وقع التميز بين الحيوان الناطق والحيوان الصامت مستشهدا بقوله تعالى (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان) وبقول النبي صلى الله عليه وسلم للعباس وقد سأله فيم الجمال ؟ فقال : (فى اللسان) .

وبقول سهل بن هارون الكاتب (العقل رائد الروح والعلم رائد العقل والبيان ترجمان العلم) .

---

(٤) قبيلة عرفت بالحب العذرى .

وبقول الشاعر الاعور السلمي :

وكائن ترى من صامت لك معجب ... زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق الا صورة اللحم والدم

ثم بدأ يعرف الفصاحة فيقول : ان الفصاحة نعت للالفاظ اذا وجدت على شروط عدة • ومتى تكاملت تلك الشروط فلامزيد على فصاحة تلك الالفاظ ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف • وبوجود اضدادها تستحق الاطراء والذم ، وتلك الشروط تنقسم قسمين : فالاول منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن يضم اليها شيء من الالفاظ وتؤلف معه والقسم الثاني يوجد فى الالفاظ المنظومة بعضها مع بعض • فاما الذى يوجد فى اللفظة الواحدة فثمانية أشياء :

الاول

أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج ، وعلة هذا هي أن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الالوان من البصر • ولا شك فى أن الالوان المتباينة اذا جمعت كانت فى المنظر أحسن من الالوان المتقاربة • وقد قال الشاعر •

فالوجه مثل الصبح مبيض ... والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا ... والضد يظهر حسنه الضد

وأما تأليف الحروف المتقاربة فقد تدرك قبحها كما يقبح عندك بعض الامزجة من الالوان وبعض النغم من الاصوات •

الثاني

ان تجد لتأليف اللفظة فى السمع حسنا ومزية على غيرها وان تساويا فى التأليف من الحروف المتباعدة • كما انك تجد لبعض النغم والالوان حسنا يتصور فى النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه كل ذلك لوجه يقع التأليف عليه كقول المتنبي •

اذا سارت الاحداج فوق نباته   تفاوح مسك الغانيات ورنده

فان كلمة تفاوح فى غاية الحسن • وقد قيل ان أبا الطيب أول من نطق بها •

الثالث

أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية فان كانت متوعرة وحشية مجها السمع والفهم ، من ذلك قول أبي علقمة النحوي ما لكم تكأكأتم عليّ كتكأكؤكم على ذي جنة افرنقعوا عني •

الرابع

أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية كقول ابي تمام

(جليت والموت مبدٍ حُرَّ صفحته   وقد تَفَرْعَنَ فى أفعاله الاجل)

فان تَفَرْعَنَ مشتق من اسم فرعون وهو من ألفاظ العامة • اذ عادتهم أن يقولوا تفرعن فلان اذا وصفوه بالجبرية •

الخامس

أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة ويدخل فى هذا القسم كل ما ينكره أهل اللغة ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد فى الكلمة وقد يكون ذلك لاجل ان اللفظة بعينها غير عربية كقول ابي الشيص •

وجناح مقصوص تحيّف ريشه   ريب الزمان تحيّف المقراض

فالمقراض ليس من كلام العرب • وكقول ابي عبادة :

يشق عليه الريح كل عشية   جيوب الغمام بين بكر وايّم

فوضع الايم مكان الثيب • وليس الامر كذلك انما الايم التي لا زوج لها بكرا أو ثيبا •

السادس

أن تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره فاذا أوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وان كملت فيها صفات الحسن المذكورة آنفا .

ومن هذا النحو قول ابي تمام :

(متفجر نادمته فكأنني للدلو أو للمرزمين نديم)

فالدلو هنا أحد البروج وهو مستكره لموافقته اسم الدلو المعروف وكذلك المرزمان وهما نجمان من نجوم المطر .

السابع

أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف فانها متى زادت على الامثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة . كقول ابي نصر بن نباتة :

(فاياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم الا أن مغاطيسهن الذوائب)

وكقول أبي تمام :

(والى محمد ابتعثت قصائدي ورفعت للمستنشدين لوائي)

الثامن

أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجرى مجرى ذلك كقول الشريف الرضي :

(يولّع[٥] الطلّ بُردَينا وقد نسمت رويحة الفجر بين الضال والسلم)

وكقول المخزومي :

(وغاب قمير كنت أرجو غيوبه وروّح رعيان ونوّم سمّر)

(٥) يولع يبيض يقال ولع جسده برصه .

وهذا تصغير مختار في موضعه .

وهكذا ينتهي ابن سنان من الكلام على اللفظة المفردة مبتدئا بالاصوات والحروف ومنتهيا بالكلمة مبينا الفصيحة وغير الفصيحة مستشهدا على ما يقول بشتى الامثال من القرآن الكريم والحديث الشريف والمأثور من كلام العرب شعرا ونثرا .

وعند استيفائه الكلام فى ذلك يأخذ بالكلام عن الالفاظ وما يتألف منهـا . فيقول :

ان كل صناعة من الصناعات فكمالهـا بخمسة أشـياء عـلى ما ذكره الحكماء : الموضوع وهو الخشب فى صناعة النجارة ، والصانع وهو النجار ، والصورة وهي كالتربيع المخصوص ان كان المصنوع كرسيا ، والآلة مثـل المنشار والقدوم وما يجري مجراهما . والغرض وهو أن يقصد على هـذا المثال الجلوس فوق ما يصنعه . واذا كان الامر على هذا قطعـا وكان تأليف الكلمات المخصوص صناعة وجب أن نعتبر فيها هذه الاقسام فنقول :

ان الموضوع هو الكلام المُؤَلَّفِ من الاصوات فأما الصانع المؤلف فهو الذى ينظم الكلام بعضه مع بعض كالشاعر والكاتب وغيرهما . واما الصورة فهي كالفصل للكاتب وكالبيت للشاعر وما جرى مجراهما .

واما الآلة فاقرب ما قيل فيها انها طبع هذا الناظم والعلوم التى اكتسبها بعد ذلك . ولهذا لا يمكن لاحد ان يعلم الشعر من لا طبع له . وان جهد فى ذلك لان الآلة التى يتوصل بهـا غير مقدورة لمخلوق ويمكن تعلم سائر الصناعات لوجود كل ما يحتاج اليه من آلاتها .

واما الغرض فبحسب الكلام المؤلف . فان كان مدحا كان الغرض به قولا ينبيء عن عظم حال الممدوح وان كان هجوا فبالضد . وعلى هذا القياس كل ما يؤلف ....

وبعد نقاش ينشئه ابن سنان حول المعاني وتأليف الالفاظ وهل المعاني وحدها هي موضوع صناعة تعلم الكلام كما يراه قدامة بن جعفر فى كتابه نقد الشعر ؟ او المعاني وتأليف الالفاظ معا هما موضوع صناعة تعلم الكلام ؟

وجوابه فى هذا واضح صريح اذ يقول(٦) : المعاني وتأليف الالفاظ هي صناعة الصانع التي اظهرها فى الموضوع . ذلك لان الالفاظ ليست من عمل الصانع ، وانما له منها تأليف بعضها من بعض لا غير ... ثم يقول : سمعت بعضهم يدعى ان الناظم متى الف لفظة رديئة فليس ذلك بعيب عليه كما ان النجار اذا صنع كرسيا من خشب رديء فليس بعيب فى صناعته(٧). وعذره كون الموضوع الذى هو الخشب رديئا . وهذا الذى ذكره هذا القائل فاسد وذلك ان النجار يعاب اذا كان قليل البصيرة بموضوع صناعته ولو تمكن من عمل ذلك الكرسى الذى مثّل به من خشب مرضي فعدل عنه الى خشب ردىء جهلا منه بالمختار من هذا الجنس كان معيبا عند اهل صناعته . وانما يتوجه له العذر اذا سلم اليه خشب ردىء لتظهر صناعته فيه فانه عند ذلك لا يعاب لاجل الخشب . فاما ناظم الكلام فقادر على اختيار موضوعه ، غير محظور عليه تأليف ما يؤثره منه . فمتى عدل عن ذلك جهلا او تسمحا توجه الانكار واللوم عليه وكان اهلا له وجديرا بـه . على ان كلامنا فى الصورة نفسها ولا شبهة فى قبح صورة الكرسى المصنوع من ردىء الخشب وان كان النجار قد احكم عمله .

وهكذا يجرى الخفاجي فى الحديث عن تأليف الكلام من الكلمات كما جرى عليه فى تأليف الكلمة المفردة من الاصوات والحروف . فيقرر فيه مثل ما قررته كتب البلاغة فى فصاحة الكلمة والكلام والمتكلم ويزيد

---

(٦) كتاب سر الفصاحة ص ١٠٤

(٧) كتاب سر الفصاحة ص ١٠٤ .

على ذلك بكثرة ما اورده من الامثلة فى الكلام الفصيح وغيره • ثم يتحدث عن الاستعارة وقبح الحشو والاستطراد والمعاظلة فيها وعن الكناية ووجوبها فى الموضوع الذى لا يحسن فيه التصريح وان لا يستعمل فى الشعر الفاظ المتكلمين والنحويين واشباههم • ثم يتكلم على القوافي بانها تجري في الشعر مجرى السجع فى النثر وعن التزام ما يلزم وبيان ان من التناسب حمل اللفظ على اللفظ فى الترتيب والتخلص من معنى الى معنى وان لا يوضع الجائز موضع الممتنع •

وأخيرا ينهي كتابه بفصل يذكر فيه ما يحتاجه مؤلف الكلام الى معرفته وها انا اختم الحديث به واقطف منه ما يغني عنه • استمع اليه حيث يقول :

وبالجملة ان مؤلف الكلام شاعرا كان او كاتبا لو عرف حقيقة كل علم واطلع على كل صناعة لاثر ذلك في تأليفه ومعانيه والفاظه ، لانه يدفع الى اشياء يصفها ، فاذا خبر كل شيء وتحققه كان وصفه له اسهل ونعته أمكن • الا ان المقصود فى هذا الموضع بيان ما لا يسعه جهله دون ما اذا عَلِمه أثر عنده علمه فان ذلك لا يقف على غاية • والوصية لهما ترك التكليف والاسترسال مع الطبع وفرط التحرز وسوء الظن بالنفس ومشاورة أهل المعرفة وبغض الاكثار والاطالة وتجنب الاسهاب فى فن واحد من فنون الصناعة • فان كلام الانسان ترجمان عقله ومعيار فهمه وعنوان حسه والدليل على كل أمر لولاه لخفي منه وبحسب ذلك يحتاج الى فضل التثقيف واجتماع اللب عند النظم والتأليف •

وقد أثنى الاستاذ عبدالمتعال الصعيدي على كتاب سر الفصاحة ثناء طيبا فقال : وقد تناول ابن سنان الخفاجي الكلام فى موضوعات سر الفصاحة باسلوب العالم الاديب ، والناقد البصير ، بعد دراسات واسعة فى دواوين

من سبقه من الشعراء ، وفى كتب النقد الادبي ، من أمثال نقد الشعر لقدامة- والموازنة بين ابي تمام والبحتري للآمدي ، والوساطة بين المتنبي وخصومه- للقاضي الجرجاني فجاء كتابه خلاصة لهذه الكتب . بعد تهذيب وتنقيح فيها .- وهذا الى ما اضافه اليها بفكره واجتهاده فى ذلك العلم[٨] .

---

(٨) فى مقدمة كتاب سر الفصاحة .

الفصل الخامس عشر

عبدالقاهر الجرجاني

وكتاباه اسرار البلاغة ودلا ئل الاعجاز

هو أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني من كبار أئمة النحو واللغة . وهو مؤسس علم البيان .

ولقد اتفق المؤرخون على الثناء عليه بالعلم والدين حتى لقبوه بالامام.. انه اشتهر بالنحو من قبل أن يضع علم البلاغة .. على انه كان متكلما وفقيها ايضا ...

قال الحافظ الذهبي فى تاريخه دول الاسلام : توفى امام النحاة أبو بكر عبدالقاهر الجرجاني صاحب التصانيف القيمة .. وقال عنه تاج الدين السبكي فى طبقات الشافعية الكبرى : أخذ عبدالقاهر الجرجاني النحو بجرجان عن ابي الحسين محمد بن الحسن الفارسي ، وصار الامام المشهور المقصود من كل الجهات مع الدين المتين والسكون .

ومن مصنفاته القيمة اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز فى المعاني والبيان . وهما من الكتب الهامّة فى هذا الفن . وكتاب المغنى على شرح الايضاح فى نحو ثلاثين مجلدا ، وكتاب المقصد وكتاب اعجاز القرآن والعوامل المئة ، والمفتاح ، وشرح الفاتحة ، والعمدة فى التصريف ، وكتاب الجمل المختصر المشهور فى النحو يقال له الجرجانية ، وكذلك كتاب التتمة فى النحو ايضا بالمتحف البريطاني .

وذكروا له شعرا فمنه ما أورده الصلاح الكتبي فى فوات الوفيات :

لا تأمن النفثة من شاعر ما دام حيًا سالما ناطقا
فان من يمدحكم كاذبا يحسن أن يهجوكم صادقا

ولقد اتفق المؤرخون على انه توفي سنة ٤٧١ هـ رحمه الله[١] .

كتاب اسرار البلاغة

اما كتابه أسرار البلاغة فقد أتم فيه علم البلاغة بطريقة خاصة به بحيث جعله فنا مرفوع القواعد مفتح الابواب . ولهذا الكتاب مقدمتان .

الاولى منهما لناشره ومعلق حواشيه الشيخ رشيد رضا الذى حقق فيها معنى البلاغة وبيّن مزية الكتاب على سائر الكتب البلاغية . كما أبان فى هذه المقدمة فضل اللغة العربية والعوامل التي جعلتها لغة الدين والشريعة وعلوم العقل والطبيعة . أما المقدمة الثانية فهي لمؤلف الكتاب نفسه التي يتحدث فيها عن المعاني المقصودة بكلام الناس . ومن هذا البحث يدخل مباشرة فى موضوعات بيانية هامة هي فى نهاية العمق والدقة والبراعة اذ يتحدث عن التجنيس وقسمته وتنويعه وتعريف الاستعارة وتقسيمها ثم الاستعارة المفيدة . ثم الفرق بين التشبيه والتمثيل ثم مواقع التمثيل وتأثيره . ثم ينتقل الى الكلام عن التشبيه المتعدد والفرق بينه وبين المركب . ثم الموازنة بين التشبيه والتمثيل والفرق بين الاستعارة والتمثيل . ثم يتحدث فى الاخذ والسرقة وما فى ذلك من التعليل وضروب الحقيقة والتخييل ثم نوع آخر فى التعليل . ثم تخييل بغير تعليل . ثم يفصل الفرق بين التشبيه والاستعارة . ثم الاتفاق فى الاخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة ثم يأتي بفصل يبين فيه حدي الحقيقة والمجاز وبعد ذلك يتكلم فى المجاز العقلي والمجاز اللغوي والفرق بينهما وفى آخر

---

(١) من ترجمته فى كتاب اسرار البلاغة . ومن كتاب تاريخ الآداب العربية لجرجي زيدان .

الكتاب يأتي ببحث مستقل يبدؤه بالبسملة ويتحدث فيه عن المجاز وبيان حقيقته ومعناه والمنقول والمشترك ثم المجاز المرسل وعلاقته • ثم يقسم المجاز الى لغوي وعقلي ويقسم اللغوي الى الاستعارة وغيرها •

ويختم الكتاب بفصل فى الحذف والزيادة وهل هما من المجاز ام لا •

ومن أجمل ما جاء فى هذه المقدمة قوله : اعلم ان الكلام هو الذى يعطي العلوم منازلها ويبين مراتبها ويكشف عن صورها ويجني صنوف ثمارها ويدل على سرائرها ويبرز مكنون ضمائرها وبه ابان الله تعالى الانسان من سائر الحيوان ونبه فيه على عظم الامتنان فقال عز من قائل (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان) فلولاه لتعطلت قوى الخواطر والافكار من معانيها ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها والمعاني مسجونة فى مواضعها ولصارت القرائح عن تصرفها معقولة والاذهان عن سلطانها معزولة ولما عرف كفر من ايمان واساءة من احسان ••• ثم ان الوصف الخاص به والمعنى المثبت لنسبه أنه يريك المعلومات بأوصافها التى وجدها العلم عليها ويقرر كيفياتها التي تتناولها المعرفة اذا سمت اليها • الى ان يقول :

فاذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا او يستجيد نثرا ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول حلو رشيق وحسن انيق وعذب سائغ وخلوب رائع فاعلم انه ليس ينبئك عن أحوال ترجع الى أجراس[٢] الحروف والى ظاهر الوضع اللغوي بل الى أمر يقع من المرء فى فؤاده وفضل يقتدحه العقل من زناده •

وأما رجوع الاستحسان الى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه وكونه من أسبابه ودواعيه فلا يكاد يعدو نمطا واحدا • وهو ان تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ويتداولونه فى زمانهم ولا يكون وحشيا غريبا او عاميا

---

(٢) جمع جرس بكسر الجيم وبفتحها وهو الصوت او الخفى من الصوت•

سخيفا .... الى ان يقول وههنا أقسام قد يتوهم فى بدء الفكرة وقبل اتمام العبرة ان الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس الى ما يناجي فيه العقل النفس . ولها اذا حقق النظر مرجع الى ذلك ومنصرف فيما هنالك . ومنها التجنيس والحشو . ثم يبدأ الكلام عن التجنيس الذى سأحدثك عنه بعد قليل .

عود على بدء
فى كتاب اسرار البلاغة

ان العناوين التي ذكرتها آنفا تدعونا الى تفصيل ما تضمنته من فنون القول وعمق الفكر وبالغ التعبير .

ولما كان هذا التفصيل يحتاج الى وقت طويل لا يتسع له المقام تحتم علينا ان نكتفي بمعرفة اسلوب الشيخ عبدالقاهر فى تناوله الابحاث البلاغية التى لها مساس بدراستنا النقدية .

يتحدث الشيخ فى بداية كتابه عن التجنيس ومدى أثره فى تحسين الكلام وهل له الافضلية فى هذا التحسين على المعنى أو المعنى له الفضل الاكبر فى حسن الكلام وجماله .

اننا نعلم عن طريق قواعد البلاغة ان التجنيس تشابه الكلمتين فى اللفظ مع اختلاف فى المعنى . غير ان الشيخ الجرجاني لم يبحثه كما بحثه البلاغيون وانما يتناوله تناولا أدبيا خاصا به فيقول :

اما [٣] التجنيس فانك لا تستحسن تجانس اللفظين الا اذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا . أتراك استضعفت تجنيس ابى تمام فى قوله :

---

(٣) كتاب اسرار البلاغة ص ٤

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أَمُذهَب أم مَذهب

واستحسنت تجنيس القائل :

ناظِراه فيما جنى ناظِراه أو دعاني أمت بما اودعاني

الامر يرجع الى اللفظ ؟ أم لانك رأيت الفائدة ضعفت عن الاول وقويت في الثاني ... ورأيتك لم يزدك بمُذهب ومَذهب على ان اسمعك حروفا مكررة تروم لها فائدة فلا تجدها الا مجهولة منكرة ... ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كانه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها . فبهذه السريرة صار التجنيس من حلى الشعر .

فقد تبين لك ان ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم الا بنصرة المعنى اذ لو كان اللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ولما وجد فيه الا معيب مستهجن . ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به .. وذلك ان المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس اليه .. اذ الالفاظ خدم المعاني . فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن ازال الشيء عن جهته واحاله عن طبيعته .. ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا أفضل العناية بالسجع ولزموا سجية الطبع أمكن في العقول وأبعد من القلق وأوضح للمراد وأفضل عند ذوي التحصيل وأسلم من التفاوت(٤) وأكشف عن الاغراض وأنصر للجهة التي تنحو نحو العقل وأبعد من التعمد(٥) الذى هو ضرب من الخداع بالتزويق والرضى بان تقع النقيصة في نفس الصورة . وذات الخلقة اذا كثر فيها من الوشم والنقش وأثقل صاحبها بالحلى والوشي يكون قياس الحلى عليها كقياس الحلى على السيف الددان وكالتوسع في الدعوى بغير برهان .

---

(٤) التفاوت التباعد والاختلاف .

(٥) التعمد التكلف والتصنع .

(اذا لم تشاهد غير حسن شياتها   وأعضائهـا فالحسن عنك مغيب)

واعلم ان العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على هذا الفن الا بعـد الثقة بسلامة المعنى وصحته .

فانظر الى خطب الجاحظ في أوائل كتبه . هذا والخطب من شأنها أن يعتمد فيها الاوزان والاسجاع فانها تروى وتتناقل كتناقل الاشعار ومحلهـا محل النسيب والتشبيب من الشعر الذى هو كانه لا يراد منه الا الاحتفال فى الصنعة والدلالة على مقدار شوط القريحة والاخبار عن فضل القـوة والاقتدار على التفنن فى الصنعة قال فى أول كتاب الحيوان .

(جنّبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين المعرفة سببا وبين الصدق نسبا وحبب اليك التثبت وزيّن فى عينك الانصاف وأذاقك حلاوة التقوى وأشعر قلبك عزّ الحق واودع صدرك برد اليقين وطرد عنك ذلّ اليأس وعرفك ما فى الباطل من الزلة وما فى الجهل من القلة) .

فقد ترك اولا ان يوفق بين الشبهة والحيرة فى الاعراب ولم ير ان يقرن الخلاف الى الانصاف ويشفع الحق بالصدق ولم يعن بان يطلب لليأس قرينة تصل جناحه وشيئا يكون رديفا له لانه رأى التوفيق بين المعاني أحق والموازنة فيها أحسن . ورأى العناية بهـا حتى تكون اخوة مـن أب وأم ويذرها على ذلك تتفق بالوداد على حسب اتفاقها بالميلاد اولى من أن يدعها لنصرة السجع وطلب الوزن اولاد علة ان لا يوجد بينها وفاق الا فى الظواهر فاما ان يتعدى ذلك الى الضمائر ويخلص الى العقائد والسرائر ففي الاقل النادر .

وعلى الجملة فأنك لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساقه نحوه وحتى تجده لا تبتغي به بـدلا ولا تجد عنه حولا .

ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم الى اجتلابه وتأهب لطلبه •••• وذلك كما يمثلون به من قول الشافعي رحمه الله تعالى وقد سئل عن النبيذ فقال : (اجمع أهل الحرمين على تحريمه) ومما تجده كذلك قول البحتري •

يعشى عن المجد الغبي ولن ترى   في سؤدد اربا لغير أريب

ومثال ما جاء من السجع هذا المجيء وجرى في لين مقادته وحل هذا المحل من القبول قول القائل : اللهم هب لي حمدا وهب لي مجدا فلا مجد الا بفعال ولا فعال الا بمال •••• ولست تجد هذا الضرب يكثر في شيء ويستمر كثرته واستمراره في كلام القدماء كقول خالد ما الانسان لولا اللسان الا صورة ممثلة وبهيمة مهملة ••• وان انت تتبعته في كلام النبي صلى الله عليه وسلم تثق كل الثقة بوجودك له على الصفة المتقدمة • وذلك كقول النبي عليه السلام (الظلم ظلمات يوم القيامة وكقوله : لا تزال امتي بخير ما لم تر الغنى مغنما والصدقة مغرما) فأنت لا تجد لفظا اجتلب من أجل السجع وترك له ما هو أحق بالمعنى منه وأبر به وأهدى الى مذهبه •

ثم يجمل الشيخ الجرجاني مذهبه هذا بقوله : ان غرضي في هذا الكلام الذى ابتدأته والاساس الذى وضعته أن أتوصل الى بيان أمر المعاني كيف تتفق وتختلف(٦) ومن أين تجتمع وتفترق وأفصل اجناسها وأنواعها أتتبع خاصها ومشاعها وأبين أحوالها في كرم منصبها من العقل وتمكنها في نصابه وقرب رحمها منه أو بعدها حين تنسب عنه وكونها كالحليف الجاري مجرى النسب أو الزنيم الملصق بالقوم لا يقبلونه ولا يمتعضون له ولا يذبون دونه • وان من الكلام ما هو كما هو شريف في جوهره كالذهب الابريز

---

(٦) لو اخر كلمة تتفق لجاءت السجعة مقفاة مع كلمة تفترق فيما بعدها، ولكنه راعى المعنى دون اللفظ على قاعدته •

الذى تختلف عليه الصور وتتعاقب عليه الصناعات وجل المعول فى شرفه على ذاته وان كان التصوير قد يزيد فى قيمته ويرفع فى قدره ٠

ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة فلها قيمة تغلو ومنزلة تعلو وللرغبة اليها انصباب وللنفوس بها اعجاب ما دامت الصورة محفوظة عليها لم تنتقص وأثر الصنعة باقيا معها لم يبطل ٠٠٠٠ حتى اذا خانت الايام فيها أصحابها وضاقت الحادثات أربابها وفجعتهم فيها بما يسلب حسنها المكتسب بالصنعة وجمالها المستفاد من طريق العرض فلم يبق الا المادة العارية من التصوير والطينة الخالية من التشكيل سقطت قيمتها وانحطت رتبتها وعادت الرغبات التى كانت فيها زهدا واوسعتها عيون كانت تطمح اليها إعراضا دونها وصدا ٠ وصارت كمن احظاه الجد(٧) بغير فضل كان يرجع اليه فى نفسه وقدمه البخت من غير معنى يقضي بتقدمه ثم أفاق فيه الدهر عن رقدته وتنبه لغلطته فأعاده الى دقة أصله وقلة فضله ٠

---

(٧) فى تاريخ العروس احظيت فلانا على فلان فضلته عليه ٠ والجد بفتح الجيم الحظ والبخت ٠

فصـــل

في بحث التشبيه والتمثيـل

ولاجل ان تدرك أساليب الشيخ الجرجاني فى أبحاثه تمام الادراك لزمنا ان نتعرف الى موضوع آخر من موضوعات كتاب أسـرار البـلاغة . وليكن بحث التشبيه والتمثيل مثلا .

أجل اخترت البحث فى هذين الموضوعين لمـا لهمـا من الاصالة فى الابحاث البيانية التي يحتاجها الطالب فى دروس البلاغة كما يحتاجها لاجراء الموازنة وتقييم النماذج الادبية التي كثيرا ما نتعرض لها فى دروس النقـد الادبي يقول الشيخ الجرجاني : ان الشيئين اذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين .

أحدهما : أن يكون من جهة امر بيّن لا يحتاج فيه الى تأويل .

والثاني : أن يكون محصلا بضرب من التأول .

فمثال الاول تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل مثل ان يشبه الشيء اذا استدار بالكرة فى وجه وبالحلقة فى وجه آخر . وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخدود بالورود والوجه بالنهار وسقط النار بعين الديك وما جرى فى هذا الطريق .. أو جمع الصورة واللون كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور والنرجس بمـداهن[8] در حشوهن عقيق وكذلك التشبيه من جهة الهيئة كتشبيه شيء مستو منتصب مديد مثل تشبيه القـامة بالرمح والقد اللطيف بالغصن ويدخل فى الهيئة حال الحركات فى اجسامها كتشبيه الذاهب على الاستقامة بالسهم السديد . وتشبيه من تأخذه الاريحية

---

(٨) المداهن جمع مدهن بتضمتين وهو ما يجعل فيه الدهن ووزنه شاذ والقياس الكسر لانه من اسماء الآلة .

فيهتز بالغصن تحت البارح[٩] • ونحو ذلك • وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس نحو تشبيهك صوت بعض الاشياء بصوت غيره كتشبيه اطيط الرحل باصوات الفراريج كما قال :

(كان أصوات من ايغالهن بنا   أواخر الميس أنقاض الفراريج[١٠])

تقدير البيت كان أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من ايغالهن بنا • ثم فصل بين المضاف والمضاف اليه بقوله من ايغالهن وكتشبيه صريف أنياب البعير بصياح البوازي كما قال :

(كان على انيابها كل سحرة
صياح البوازي من صريف اللوائك[١١])

وأشباه ذلك من الاصوات المشبهة له•وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر وتشبيه اللين الناعم بالخز • وتشبيه الخشن بالمسح[١٢] أو تشبيه رائحة بعض الرياحين برائحة الكافور وكذلك التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالاسد فى الشجاعة والذئب فى النكر • والاخلاق كلها تدخل فى الغريزة مثل السخاء والكرم واللؤم وكذلك تشبيه الرجل بالرجل فى الشدة والقوة وتشبيه المرأة بالمرأة فى الرقة والانوثة والحنان • وما يتصل بذلك •

---

(٩) الاريحية بسكون الراء حالة يرتاح معها الى البذل • والبارح ـ الريح الشديدة •

(١٠) الميس شجرة تتخذ منه الرحال للينه وقوته • ويطلق على الرحال نفسها وهو المراد هنا •

(١١) السحرة بالضم السحر الا على وهو ما قبل انصداع الفجر•والسحر الآخر عند انصداعه • واللوائك المواضغ جمع لائكة اسم فاعل مؤنث من اللكوك وهو المضغ او اهون منه كمضغ البعير •

(١٢) المِسح بالكسر البلاس وهو ثوب من الشعر غليظ وجمع المسح مسوح كحمل وحمول والبلاس بالفتح فارس معرب يتخذ بساطا وكساء •

فالشبه فى هذا كله بيّن لا يجري فيه التأول ولا يُفتقر اليه فى تحصيله • وأي تأول يجري فى مشابهة الخد للورد فى الحمرة وانت تراها ها هنا كما تراها هناك • وكذلك تعلم الشجاعة فى الاسد كما تعلمها فى الرجل •

ومثال الثاني وهو الشبه الذى يحصل بضرب من التأول كقولك هذه حجة كالشمس فى الظهور • وقد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها كما شبهت فيما مضى الشيء بالشيء من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرهما الا انك تعلم ان هذا التشبيه لا يتم لك الا بتأول • وذلك أن تقول حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الاجسام ان لا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها • ولذلك يظهر الشيء لك • ولا يظهر لك اذا كنت من وراء حجاب أو لم يكن بينك وبينه ذلك الحجاب •

ثم تقول ان الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول لانها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه كما يمنع الحجاب العين ان ترى ما هو من ورائه • ولذلك توصف الشبهة بانها اعترضت دون الذى يروم القلب ادراكه ويصرف فكره للوصول اليه من صحة حكم او فساده • فاذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذى هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم قيل هذا ظاهر كالشمس أي ليس ههنا مانع عن العلم ولا للتوقف والشك فيه مساغ • وان المنكر له اما مدخول فى عقله أو جاحد مباهت ومسرف فى العناد • كما ان الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصر ولا ينكرها الا من لا عذر له فى انكاره •

ثم ان ما طريقه التأول يتفاوت تفاوتا شديدا • فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول اليه ويعطي المقادة طوعا حتى انه يكاد يداخل الضرب الاول الذى ليس من التأول فى شيء • ومنه ما يحتاج فيه الى قدر من التأمل •

ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج فى استخراجه الى فضل روية ولطف فكرة •

فمما هو قريب المأخذ سهل المأتى قولهم فى صفة الكلام :

الفاظه كالماء فى السلاسة وكالنسيم فى الرقة وكالعسل فى الحلاوة يريدون ان اللفظ لا يستغلق ولا يشتبه معناه ولا يصعب الوقوف عليه وليس هو بغريب وحشي يستكره لكونه غير مألوف • أو ما ليس فى حروفه تكرير وتنافر يكد اللسان من اجلهما • فصار لذلك كالماء الذى يسوغ فى الحلق والنسيم الذى يسري فى البدن ويتخلل المسالك اللطيفة منه ويهدي الى القلب روحا ويوجد فى الصدر انشراحا ويفيد النفس نشاطا وكالعسل الذى يلذ طعمه وتهش النفس له ويميل الطبع اليه ويحب وروده اليه • فهذا كله تأول وردّ شيء الى شيء بضرب من التلطف • وهو ادخل قليلا فى حقيقة التأول وأقوى حالا فى الحاجة اليه من تشبيه الحجة بالشمس •

واما ما تقوى فيه الحاجة الى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع فنحو قول كعب الاشقرى وقد اوفده المهلب على الحجاج فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس • فسأله آخر القصة قال فكيف كان بنو المهلب فيهم قال : كانوا حماة السرح نهارا فاذا اليلوا ففرسان البيات • قال : فايهم كان انجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري اين طرفاها[١٣] • فهذا كما ترى ظاهر الامر فى فقره الى فضل الرفق والنظر • الا ترى انه لا يفهمه حق فهمه الا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة • وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس فانه

(١٣) هذا المثل من كلام فاطمة بنت الخرشب احدى المنجبات فى الجاهلية ام الكملة حين سالها ابو سفيان أى بنيك افضل فقالت الربيع لا بل عمارة لا بل انس الفوارس ثكلتهم ان كنت ادرى (هم كالحلقة المفرغة لا يدرى اين طرفاها) •

كالمشترك البيّن الاشتراك حتى يستوى في معرفته اللبيب اليقظ والمضعوف المغفل .

وهكذا تشبيه الالفاظ بما تقدم قد تجده فى كلام العامي . فاما ما كان مذهبه فى اللطف مذهب من قال (هم كالحلقة) فلا تراه الا في الآداب والحكم المأثورة عن الفضلا وذوي العقول الكاملة .

الفرق بين التشبيه والتمثيل

يقول الشيخ ان التشبيه عام والتمثيل اخص منه فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا فانت تقول فى قول قيس ابن الخطيم .

(وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى كعنقود ملاحية حين نورا(١٤)

انه تشبيه حسن ولا تقول هو تمثيل . وكذلك تقول : ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها لانك تعنى تشبيه المبصرات بعضها ببعض . وكذلك كل ما لا يوجد التشبيه فيه من طريق التأول كقوله :

(كان عيون النرجس الغض حولها مداهن درحشوهن عقيق)

وكقوله في وصف كلب صيد

لما تعرى افق الضياء مثل ابتسام الشفة اللمياء
وشمطت ذوائب الظلماء قدنا لعين الوحش والظباء
داهية محذورة اللقاء ويعرف الزجر من الدعاء
بأذُنٍ ساقطة الارجاء كوردة السوسنة الشهباء
ذا برثن كمثقب الحذاء ومقلة قليلة الاقذاء
صافية كقطرة من ماء

وما كان من هذا الجنس . وذلك ان احسانه في النوع الاول أكثر وهو

---

(١٤) الملاحي بضم الميم وتشديد اللام وتخفيفها عنب ابيض طويل . ونور الزرع ادرك ونور التمر خلق فيه النوى .

بـه اشهر • وكل ما لا يصح ان يسمى تمثيلا فلفظ المثل لا يستعمل فيـه ايضا فلا يقال ابن المعتز حسن الا مثال تريد به قوله :

اصبر عـلى مضض الحسـو   دفـان صبرك قاتلـه
فالنـار تأكـل نفسـها   انْ لم تجـد مـا تأكلـه

وانما يقال صالح بن عبدالقدوس كثير الامثال في شعره يريدون بـه قولـه :

وان من ادبتـه في الصبـا   كالعود يسقى الماء في غرسه
حتـى تراه مورقـا ناضـرا   بعد الذى ابصرت من يبسه

وما اشبه ذلك مما يكون الشبه فيه من قبيل ما يجرى فيه التأول • وان قلت في بيتي ابن المعتز انه تمثيل فصحيح لان تشبيه الحسود اذا صُبر عليه وسكت عنه وترك غيظه يتردد فيه بالنار التي لا تمد بالحطب حتى يأكـل بعضها بعضا مما حاجته الى التأول ظاهرة بينه •

وهكذا يجرى الشيخ عبدالقادر الجرجاني في بسط ارائه في جميع ابحاثه فهو يبدأها بيسر وسهولة ثم يظل يزاول فتح اكمامهـا ويكشف الحجب عما استتر من لآلئها بعباراته الانيقة وشواهده الرقيقة ويتعمق فيها شيئاً فشيئاً حتى يبلغ الغاية ويصل الى النهايـة • ولعل ما عرضته من كتاب اسرار البلاغة ما فيه الكفاية •

كتاب دلائل الاعجاز

واما كتابه دلائل الاعجاز فقد بدأه

بعد البسملة بالحمد لله رب العالمين ثم سأله يقينا ان يملأ الصدر ويعمر القلب ويستولى على النفس حتى يكفها اذا نزغت ويردها اذا تطلعت ثم قال فانا اذا تصفحنا الفضائل لنعرف منازلها في الشرف وجدنا العلم اولاها بذلك . اذ لا شرف الا وهو الدليل عليه وهو الوفي اذا خان كل صاحب ، والثقة اذا لم يوثق بناصح . الى ان يقول .... ثم انه لا ترى علما هو ارسخ اصلا وأحلى جنى وأكرم نتاجا من علم البيان اذ لولاه لم تر لسانا يحوك الوشى ويلفظ الدر وينفث السحر .

وبعد ان يسترسل في الثناء على علم البيان يشرع فيما دخل على الناس من الغلط في معناه وما سبق الى نفوسهم من اعتقادات فاسدة وظنون رديئة ... اذ ترى كثيرا منهم لا يرى له معنى اكثر مما يرى للاشارة بالرأس والعين وانه خبر واستخبار وامر ونهى ولكل من ذلك لفظ قد وضع له وجعل دليلا عليه فكل من عرف اوضاع لغة من اللغات عربية كانت او فارسية وعرف المغزى من كل لفظة ثم ساعده اللسان على النطق بها وعلى تأدية اجراسها وحروفها فهو بالغ من البيان المبلغ الذى لا مزيد عليه ومنته الى الغاية التي لا مذهب بعدها . يسمع الفصاحة والبلاغة والبراعة فلا يعرف لها معنى سوى الاطناب في القول وان المتكلم في ذلك جهير الصوت جارى اللسان ... وجملة الامر انه لا يرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك الا من جهة نقصه في علم اللغة ، ولم يعلم ان ها هنا دقائق واسرارا طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف مستقاها العقل وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا اليها ودلوا عليها وكشف لهم عنها ورفعت الحجب بينهم وبينها ... حتى ينتهي الامر الى الاعجاز والى ان يخرج من

طوق البشر ... ثم يأخذ الجرجاني باللائمة على الذين يخيل اليهم ان الامر ليس فيه كثير طائل وانه ليس الا ملحة او فكاهة او بكاء منزل او وصف طلل او نعت ناقة او جمل او اسراف قول في مدح او هجاء وانه ليس بشي تمس الحاجة اليه في صلاح دين او دنيا . ثم يقول :

واما النحو فظنوه ضربا من التكلف وشيئا لا يستند الى اصل ولا يعتمد على عقل وان ما زاد منه على معرفة الرفع والنصب وما يتصل بذلك فهو فضل لا يجدى نفعا ولا تحصل منه على فائدة وضربوا له المثل فقالوا النحو في الكلام كالملح في الطعام الى اشباه لهذه الظنون وآراء لو علموا مغبتها لتعوذوا بالله منها . ذاك لانهم بايثارهم الجهل على العلم في معنى الصاد عن سبيل الله ، والمبتغي اطفاء نور الله .

وذاك انا اذا كنا نعلم ان الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن هي ان كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر ومنتهيا الى غاية لا يطمع اليها بالفكر وكان محالا ان يعرف كونه كذلك الا من عرف الشعر الذى هو ديوان العرب وعنوان الادب .... ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل وزاد بعض الشعر على بعض كان الصاد عن ذلك صادا عن ان تعرف حجة الله تعالى ، وكان مثله مثل من يتصدى للناس فيمنعهم عن ان يحفظوا كتاب الله تعالى ... ويصنع في الجملة صنيعا يؤدى الى ان يقل حفاظه ... ذاك لانا لم نتعبد بتلاوته وحفظه والقيام باداء لفظه على النحو الذى انزل عليه وحراسته من ان يغير ويبدل الا لتكون الحجة به قائمة على وجه الدهر تعرف في كل زمان ويتوصل اليها في كل اوان . ويكون سبيلها سبيل سائر العلوم التي يرويها الخلف عن السلف .... فمن حال بيننا وبين ماله كان حفظنا اياه واجتهادنا في ان نؤديه ونرعاه كان كمن رام ان ينسيناه جملة ، ويذهبه من قلوبنا دفعة . ولا فرق بين من اعدمك الدواء الذى تستشفى به من دائك وتستبقى به حشاشة نفسك وبين من اعدمك

العلم بان فيه شفاء وان لك فيه استبقاءا .

ثم يفترض الشيخ عبدالقاهر ان قائلا يقول له : ان لنا طريقا اخر الى معرفة اعجاز القران غير ما ذكرت ذلك هو علمنا بعجز العرب عن ان يأتوا بمثله مع تكرار التحدى عليهم وطول التقريع لهم بالعجز عنه . فيقول ان التعويل على علم الغير وترديد اقواله لا تستبان به معجزة القرآن كما ارادها الله للناس .

لذلك يرى فرضا على المسلمين ان يعرفوا اسرار بلاغة الكتاب الحكيم معرفة حقيقية تناسب قيام البرهان على بقاء المعجزة خالدة على وجه الدهر بدليل علمى ومنطقي لا شك ولا شبهة فيه ثم قال : فانظر اى رجل تكون اذا زهدت انت في ان تعرف حجة الله تعالى وآثرت الجهل على العلم وعدم الاستبانة على وجودها وكان التقليد أحب اليك والتعويل على علم غيرك آثر لديك . الى ان يقول دع الهوى عنك وراجع عقلك واصدق نفسك يبن لك فحش الغلط فيما رأيت وقبح الخطأ في الذى توهمت .... وهل رأيت رأيا اعجز واختيارا اقبح ممن كره ان تعرف حجة الله تعالى من الجهة التي اذا عرفت منها كانت انور وابهر واقوى واقهر .... ثم هل رأيت رأيا اعجز واختيارا اقبح ممن آثر ان لا يقوى سلطان الحجة على الشرك كل القوة ولا تعلو على الكفر كل العلو .

ثم يشرع الجرجاني في تفصيل الكلام على من زهد في رواية الشعر وحفظه وذم الاشتغال بعلمه وتتبعه فيفند اقوالهم بقول النبى صلى الله عليه وسلم (ان من الشعر لحكمة . وان من البيان لسحرا) وبقوله لحسان بن ثابت (قل وروح القدس معك) (١٥) .... ويستشهد بعد ذلك باستحسان كبار الصحابة والتابعين للشعر .

ثم يتوجه الى الذين يزهدون في دراسة النحو فيرى ان صنيعهم هذا

---

(١٥) دلائل الاعجاز ص ١٢ .

اشنع من صنيع الذين زهدوا في الشعر ويعتبر قولهم اشبه بان يكون صدا عن كتاب الله وعن معرفة معانيه • ذلك لانهم لا يجدون بدا من ان يعترفوا بالحاجة اليه فيه اذكان قد علم انالالفاظ مغلقة علىمعانيها حتىيكونالاعراب هو الذى يفتحها وان الاغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ••• انه المعيار الذى لا يتبين نقصان الكلام ورجحانه حتى يعرض عليه والمقياس الذى لايعرفصحيحه منسقيمه حتىيرجع اليه • ولا ينكر ذلكالا منينكر حسه والا من غالط في الحقائق نفسه • واذا كان الامر كذلك فليت شعرى ما عذر من تهاون به وزهد فيه ولم ير ان يستسقيه من مصبه ويأخذه من معدنه ورضى لنفسه بالنقص ، والكمال لها معرض ، وآثر الغبينة وهو يجد الى الربح سبيلا •

ثم يتحدث عن اعجاز القرآن في الشؤن البلاغية فيتكلم على الفصاحة والبلاغة وعلى نظم الكلام بحسب المعاني والفرق بين نظم الكلام ونظم الحروف وعلاقتهما بالتركيب النحوى ، وعلى شبهة الذين حصروا الفصاحة في صفة اللفظ • ثم يتحدث عن الكناية والمجاز والاستعارة التمثيلية وترجيح المجاز على الحقيقة وهكذا يسترسل الشيخ عبدالقاهر في دلائل الاعجاز حتى يستوفى كل ما قيل عن موضوعات علم المعانى والبيان باسلوب العالم المحيط بدقائق اسرار البلاغة الواثق من صحة ارائه •

وختاما اقول ان هذه الدراسة الموجزة لكتابيه اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لا تغنى طلاب هذه الابحاث الجليلة عن مدارسة الكتابين دراسة مباشرة باتقان وتأمل وصدق نظر • ذلك لان نفعهما كبير والعلم الذى فيهما جد غزير •

الفصل السادس عشر

ابن الاثير وكتابه

المثل السائر

هو ابو الفتح ضياء الدين الشيباني المعروف بابن الاثير الجزري الموصلي المولود في العشرين من شعبان (٥٥٨) والمتوفي سنة **٦٣٧** هـ نشأ ابن الاثير بجزيرة ابن عمر • ثم انتقل مع والده الى الموصل وبها حفظ القرآن وكثيرا من الاحاديث النبوية وطرفا صالحا من العلوم فدرس النحو واللغة وعلم البيان وطائفة مختارة من الشعر قديمه وحديثه •

ولما كملت له الادوات قصد في سنة **٥٨٧** الملك الناصر صلاح الدين ابن الامير نجم‌الدين بن شادي بن مروان • فاستعان بالقاضي الفاضل عبدالرحيم بن على اللخمي فوصله القاضى بخدمة صلاح‌الدين • ولم تطل به الاقامة حتى ارسل الملك الافضل الى ابيه صلاح‌الدين يلتمسه ان يرسل اليه ابن الاثير ، فخيّره صلاح‌الدين بين ان يقيم في خدمته أو ان ينتقل الى خدمة ولده نورالدين الملك الافضل فاختار ان ينتقل الى خدمة نورالدين فمضى اليه وهو يومئذ شاب لم يكمل العقد الثالث من عمره فاستوزره نورالدين الملك الافضل وحسنت حالته عنده ولما خلص ملك دمشق للملك نورالدين بعد وفاة ابيه صلاح‌الدين استقل ابن الاثير بالوزارة وردت امور الناس اليه والى الحاجب المدعو محاسن العجمى وفي هذه الفترة ضجر الناس من سياسة ابن الاثير والحاجب واستنكر الجند ادارتهما وصمموا ترك دمشق والالتحاق بمصر ، ولما انفصل الجند عنها توجه الملك الافضل الى مصر وفوض امر الدولة الى وزيره ابن الاثير والى حاجبه بن العجمي ،

ولم يكن احدهما احسن سياسة من الآخر فافسدا احوال الحكم على الملك الافضل وكانا سببا في زوال دولته • ويقال ان اهل البلاد حين خرج الافضل هموا بقتل ابن الاثير غير انه تمكن من اخراج نفسه مستخفيا في صندوق مقفل حتى التحق بالملك وصحبه الى مصر • ويقال ايضا ان الملك الافضل حينما عاد الى البلاد الشرقية طلب الى ابن الاثير ان يخرج معه ويعود الى خدمته فاعتذر لانه خاف على نفسه من جماعة كانوا يقصدونه • وبعد مدة عاد فالتحق بالملك الافضل ولكنه لم يطل مقامه عنده • وما عتم ان فارقه واتصل بخدمة الملك الظاهر صاحب حلب اخي الملك الافضل • ولكنه لم يطل مقامه عنده ايضا فعاد الى الموصل ثم تركها وذهب الى اربيل ثم فارقها الى سنجار ثم عاد الى الموصل واتخذها دار اقامته وكتب الانشاء لصاحبها ناصرالدين بن الملك القاهر • ومؤرخو هذا العصر مجمعون على ان ابن الاثير كان فى وزارته سيء السيرة مع رجال الدولة وان احوال السلطنة كانت تسوء بسببه وكانوا يأخذون عليه امرين :

احدهما انه كان يحاول الايقاع بين الملك الافضل واخيه العزيز صاحب مصر • وكلما حاول الافضل وهم بالاتفاق مع اخيه اجتهد ضياءالدين في تنفيره وابقاء الجفاء بينهما مع ما كانت تتطلبه حال المسلمين فى ذلك من اتحاد الكلمة واجتماع الشمل ، اذ كان الصليبيون فى نزاع دائم ، وكانوا يهتبلون فرصة انقسامهم واختلافهم ليغيروا على البلاد وينتقصوها من اطرافها •

وثانيهما انه كان سببا في اغضاب القاضي الفاضل الذى قرّبه من الملوك وفتح له باب الاتصال بصلاح الدين •

ويقول المترجم له الاستاذ محي الدين : ولسنا ندري أكان ذلك راجعا الى المحيط الذى كان يعيش فيه ضياءالدين وهو محيط مضطرب كثير المنازعات والمشاكل ام كان يرجع الى خلق فيه ؟ ونحن نلمح فى كتابه آثار الكبرياء والصلف والاعتداد بالنفس وهذا خلق ينأى بصاحبه عن الحكمة والاتزان

والنظر الى الامور بعين الانصاف ووزنها بميزان الروية والعقل .

مؤلفات ابن الاثير

ذكر ابن خلكان[1] لابن الاثير عدة مؤلفات وقال : لضياء الدين تصانيف عدة دالة على غزارة فضله وتحقيق نبله اشهرها :

١ - كتاب المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر وهو فى جزئين . جمع فيه فأوعى ولم يترك شيئا يتعلق بالكتابة الا ذكره .

وستتحدث عن هذا الكتاب القيم بعد الانتهاء من ترجمة حال صاحبه .

٢ - كتاب الوشي المرقوم فى حل المنظوم وهو مع وجازته في غاية الحسن والافادة .

٣ - كتاب المعانى المخترعة فى صناعة الانشاء وهو ايضا نهاية في بابه .

٤ - ومن مؤلفاته مجموع اختار فيه شعر ابى تمام والبحترى وديك الجن والمتنبى وهو فى مجلد كبير وحفظه مفيد .

وقال ابو البركات ابن المستوفى في تاريخ اربل : نقلت من خطه في آخر كتابه المختار ما مثاله .

تمتع بـه علقا نفيـا فانه اختيـار بصير بالامـور حكيم
اطاعتـه انواع البلاغـة فاهتـدى الى الشعر من نهج اليـه قويم

٥ - كتاب الجامع الكبير فى صناعة المنظوم والمنثور . يقول فى مفتتحه « اما بعد فلما كان تأليف الكلام مما لا يوقف على غوره ولا يعرف كنه امره الا بالاطلاع على علم البيان الذى هو لهذه الصناعة بمنزلة الميزان احتجت حين شدوت نبذة من الكلام المنثور الى معرفة هذا العلم المذكور فشرعت عند ذلك فى تطلبه والبحث فى تصانيفه وكتبه فلم

---

(١) كتاب وفيات الاعيان ٢ - ٦٥ .

اترك في تحصيله سبيلا الا نهجته ولا غـادرت بابا الاولجتـه حتى اتضح عندي باديه وخافيه وانكشفت لي اقوال الائمة المشهورين فيه :

ولما كان كتاب المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر من الكتب التي لها علاقة قوية في الابحاث النقدية اقتضى ان نأخذ فكرة عن محتواه. وتتبيّن شيئا عن غرضه واتجاهه • فنقول :

انه كتاب جاء في جزئين •

الجزء الاول منهما مشتمل على مقدمة وعلى ترجمة المؤلف من قبـل محقق الكتاب وناشره الشيخ محمد محي‌الدين المدرس في قسم التخصص بكلية اللغة العربية بالجامعة الازهرية ، ذكر في مقدمته هذه الخلال التي حببت اليه تحقيق وطبع الكتاب • والعمل الشاق الذي لاقاه في اثناء عمله والفائدة العظمى المتوخاة من دراسة الكتاب على الصورة التي اخرجها بـه وتبيان العقل الجبار الذي اتصف به سلف امتنا العربية والخدمة الـكبرى التي قدموها للفكر وللانسانية بعامة ولاجيالهم المتعاقبة بخاصـة وكذلـك اشتمل هذا الجزء على خطبة المؤلف نفسه ابان فيها موضوع عـلم البيـان والاته وادواته والحكم على المعـاني في الترجيح بينها وبين الالفـاظ • ثم تحدث عن جوامع الكلم مبينا ان الحكمة ضالة المؤمن • ثم بعد ذلك يدخـل في صميم موضوعه فيتحدث عن الحقيقة والمجاز والفصاحة والبلاغة واركان الكتابة والطريق الى تعلمها • ثم ينشيء في هذا الجزء مقالتين •

المقالـة الاولى :

في الصناعة اللفظية ويقسمها الى قسمين •••• الاول في اللفظـة المفردة ••••• والثاني في الالفاظ المركبة •

ثم يتحدث عن صناعة تأليف الالفاظ فيقسمها الى ثمانية انواع :

١ ـ في السجع ••••   ٢ ـ في التجنيس •••

٣ ـ في الترصيع •••• ٤ ـ في لزوم ما لا يلزم ••••

٥ ـ في الموازنة •••• ٦ ـ في اختلاف صيغ الالفاظ واتفاقها

٧ ـ في المعاضلة اللفظية •••• ٨ ـ في المنافرة بين الالفاظ في السبك •

المقالة الثانية :

في الصناعة المعنوية • ويقسمها ايضا الى انواع •

١ ـ في الاستعارة ••••• ٢ ـ في التشبيه ••••

٣ ـ في التجريد •••• وبهذا ينتهي الجزء الاول •

الجزء الثاني :

اما الجزء الثاني فانه يستمر فيه باتمام الانواع التي بدأها في المقالة الثانية التي ذكرها في جزئه الاول • وهي :

٤ ـ في الالتفات • ٥ ـ في توكيد الضميرين • ٦ ـ في عطف المظهر على ضميره والافصاح به بعده • ٧ ـ في التفسير بعد الابهام • ٨ ـ في استعمال العام في النفي والخاص في الاثبات • ٩ ـ في التقديم والتأخير • ١٠ ـ في الحروف العاطفة والجارة • ١١ ـ في الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما • ١٢ ـ في قوة اللفظ لقوة المعنى • ١٣ ـ في عكس الظاهر • ١٤ ـ في الاستدراج • ١٥ ـ في الايجاز • ١٦ ـ في الاطناب • ١٧ ـ في التكرير • ١٨ ـ في الاعتراض • ١٩ ـ في الكناية والتعريض • ٢٠ ـ في المغالطات المعنوية • ٢١ ـ في الاحاجي • ٢٢ ـ في المبادى والافتتاحات • ٢٣ ـ في التخلص والاقتضاب • ٢٤ ـ في التناسب بين المعاني • ٢٥ ـ في الاقتصاد والتفريط والافراط • ٢٦ ـ في الاشتقاق • ٢٧ ـ في التضمين • ٢٨ ـ في الارصاد • ٢٩ ـ في التوشيع • ٣٠ ـ في السرقات الشعرية •

وبهذه الموضوعات ايضا انهى ابن الاثير جزءه الثاني من كتابه المثل السائر ٠

ولقد وصف ابن الاثير كتابه هذا وصفا مزج فيه الادعاء بالتواضع وذكر مباهاته بشيء من اللطف والرفق ٠ قال :

ولا ادعي فيما الفته من ذلك فضيلة الاحسان ولا السلامة من سلق[١] اللسان فان الفاضل من تعد سقطاته وتحصى غلطاته ٠٠٠٠ واذا تركت الهوى قلت : ان[٢] هذا الكتاب بديع في اغرابه وليس له صاحب في الكتب فيقال انه من اخدانه او من اترابه ، مفرد بين اصحابه ٠ ومع هذا فاني اتيت بظاهر هذا العلم دون خافيه وحمت حول حماه ولم اقع فيه ٠ اذ الغرض انما هو الحصول على تعليم الكلمة التى بها تنظم العقود وترصع ، وتخلب العقول فتخدع ، وذلك شيء تحيل عليه الخواطر ، ولا تنطق به الدفاتر ٠

واعلم ايها الناظر في كتابي ان مدار علم البيان على حاكم الذوق الذي هو انفع من ذوق التعليم ٠ وهذا الكتاب وان كان فيما يلقيه اليك استاذا ، فان الدربة والادمان اجدى عليك نفعا واهدى بصرا وسمعا وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول امكانا ، وكل جارحة منك قلبا ولسانا ٠ فخذ من هذا الكتاب ما اعطاك واستنبط بادمانك ما اخطاك وما مثلي فيما مهدته لك من هذا الطريق الا كمن طبع سيفا ووضعه في يمينك لتقاتل به ، وليس عليه ان يخلق لك قلبا فان حمل النصال غير مباشرة القتال[٣] ٠

وانما يبلغ الانسان غايته   ما كل ماشية بالرحل شملال

---

(٢) مقدمة الكتاب ج ١ ص ٥ ٠

(١) سلق اللسان حدته ٠

(٣) كتاب المثل السائر ج ١ ص ٦ ٠

وبعد اهدائه هذه النصيحة يبدأ كتابه بالفصل الاول ويضع تحت هذا الفصل موضوع علم البيان . ولكنه يمهد له بالحديث عن موضوع كل علم فيذكر موضوع علم الفقه والطب والحساب والنحو . حتى اذا استخرج ضوابط العلوم قال : ان موضوع(٤) علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن احوالهما اللفظية والمعنوية . ثم يقول : البياني والنحوي يشتركان في تلك الاحوال ولكن النحوي ينظر في دلالة الالفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي وتلك دلالة عامة . واما صاحب علم البيان فانه ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة . والمراد بها ان يكون الكلام على هيئة مخصوصة من الحسن . وذلك امر وراء النحو والاعراب .

الا ترى ان النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع اعرابه ، ومع ذلك فانه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة . ومن هنا غلط مفسرو الاشعار في اقتصارهم على شرح المعنى وما فيها من الكلمات اللغوية وتبين مواضع الاعراب منها دون شرح ما تضمنته من اسرار الفصاحة والبلاغة .

ثم يأتي الى الفصل الثاني فيتحدث فيه عن الات علم البيان وادواته فيقول :

اعلم ان صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر الى الات كثيرة وقد قيل : ينبغي للكاتب ان يتعلق بكل علم . حتى قيل : كل ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه اليه فيقول : فلان النحوي وفلان الفقيه وفلان المتكلم ولا يسوغ له ان ينسب نفسه الى الكتابة فيقول فلان الكاتب ، وذلك لما يفتقر اليه من الخوض في كل فن .

وملاك(٥) هذا كله الطبع فانه اذا لم يكن ثم طبع فانه لا تغنى تلك

---

(٤) كتاب المثل السائر جـ ١ ص ٦ .

(٥) ملاك الشي بكسر الميم بزنة كتاب وبفتح الميم بزنة سحاب هو ما يقوم بـه الشي . ومن هذا قولهم القلب ملاك الجسد .

الآلات شيئا ومثال ذلك كمثال النار الكامنة في الزناد والحديد التي يقدح بها ، الا ترى انه اذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئا ؟

وكثيرا ما رأينا وسمعنا من غرائب الطباع في تعلم العلوم حتى ان البعض يكون له نفاذ في تعلم علم مشكل المسلك صعب المأخذ فاذا كلف تعلم ما هو دونه من سهل العلوم نكص على عقبيه ولم يكن له فيه نفاذ •

واغرب من ذلك ان صاحب الطبع في المنظوم يجيد في المديح دون الهجاء او في الهجاء دون المديح او يجيد في المراثى دون التهانى او فى التهانى دون المراثى • وكذلك صاحب الطبع فى المنثور • هذا ابن الحريرى صاحب المقامات قد كان على ما ظهر عنه من تنسيق المقامات واحدا في فنه فلما حضر بغداد ووقف الناس على مقاماته قيل هذا يصلح لكتابة الانشاء في ديوان الخلافة ويحسن اثره فيه فاحضر وكلف كتابة كتاب فافحم ولم يجر لسانه في طويلة ولا قصيرة فقال فيه بعضهم •

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس
انطقه الله بالمشان وقد الجمه في بغداد بالخرس

والآن وبعد هذا الاجمال يهمنا أن نتعرف الى بعض موضوعات كتاب المثل السائر والى اسلوب ابن الاثير وكيف كان يزاول ابحاثه ويقربها الى اذهان طلابه •

ولما كان غرضنا من هذه الدراسات اعطاء فكرة عامة عن الكتب المقررة في منهاج دراستنا النقدية وهي كثيرة لذلك لزمنا ان نأخذ من كل كتاب بطرف حتى نكون فى مأمن من الانزلاق والانغمار في متاهات ابحاث تلك الكتب •

ولهذا السبب سنتناول ما هو اجدر بالمعرفة واحرى بتحقيق الغرض المطلوب • وليكن موضوع الحقيقة والمجاز • لان ابن الاثير يعتبره من اهم موضوعات علم البيان بل يجزم فيقول انموضوع الحقيقة والمجاز هو علم البيان

بأجمعه[٦] وان في تصريف العبارات على الاسلوب المجازى فوائد كثيرة لا تحصى • فيقول فاما الحقيقة فهي اللفظ الدال على موضوعه الاصلي •

وما المجاز فهو ما اريد به غير المعنى الموضوع له في اصل اللغة ، وهو مأخوذ من جاز من هذا الموضع الى هذا الموضع اذا تخطاه اليه فالمجاز اذا هو اسم للمكان الذى يجاز فيه كالمعاج والمزار وأشباههما •• وحقيقته هي الانتقال من مكان الى مكان فجعل ذلك لنقل الالفاظ من محل الى محل كقولنا زيد اسد فان زيدا انسان والاسد هو هذا الحيوان المعروف • وقد جزنا من الانسانية الى الاسدية ثم يقول : وقد ذهب قوم الى ان الكلام كله حقيقة لا مجاز فيه • وذهب اخرون الى انه كله مجاز لا حقيقة فيه • وكلا هذين المذهبين فاسد عندى ••• الى ان يقول : الحقيقة اللغوية هي حقيقة الالفاظ في دلالتها على المعاني وليست بالحقيقة التي هي ذات الشيء اى نفسه وعينه • فالحقيقة اللفظية اذا هي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في اصل اللغة والمجاز هو نقل المعنى عن اللفظ الموضوع له الى لفظ اخر وذلك ان المخلوقات كلها تفتقر الى اسماء يستدل بها عليها ، ليعرف كل منها باسمه • من اجل التفاهم بين الناس • وهذا يقع ضرورة لا بد منها • فالاسم الموضوع بازاء المسمى هو حقيقة له فاذا نقل الى غيره صار مجازا • ومثال ذلك انا اذا قلنا شمس اردنا به هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء ، وهذا الاسم له حقيقة لانه وضع بازائه ، وكذلك اذا قلنا بحر اردنا به هذا الماء العظيم المجتمع الذى طعمه ملح وهذا الاسم له حقيقة لانه وضع بازائه • فاذا نقلنا الشمس الى الوجه المليح استعارة كان ذلك له مجازا لا حقيقة • وكذلك اذا نقلنا البحر الى الرجل الجواد استعارة كان ذلك له مجازا لا حقيقة • فان قيل ان الوجه المليح يقال له شمس وهو حقيقة فيه وكذلك البحر يقال للرجل الجواد وهو حقيقة فيه •

---

(٦) كتاب المثل السائر ج ١ ص ٥٧ •

فالجواب عن ذلك من وجهين احدهما نظرى والاخر وضعي ، اما النظرى فهو ان الالفاظ انما جعلت ادلة على افهام المعاني ولو كان ما ذهبت اليه صحيحا لكان البحر يطلق على هذا الماء العظيم الملح وعلى الرجل الجواد بالاشتراك • وكذلك الشمس ايضا فانها كانت تطلق على هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء وعلى الوجه المليح بالاشتراك ، وحينئذ فاذا ورد احد هذين اللفظين مطلقا بغير قرينة تخصصه فلا يفهم المراد به ما هو من احد المعنيين المشتركين المندرجين تحته • ونحن نرى الامر بخلاف ذلك فانا اذا قلنا شمس او بحر واطلقنا القول لا يفهم من ذلك وجه مليح ولا رجل جواد وانما يفهم منه ذلك الكوكب المعلوم وذلك الماء المعلوم • لا غير فبطل اذن ما ذهبت اليه بما بيناه واوضحناه •

فان قلت ان العرف يخالف ما ذهبت اليه فان من الالفاظ ما اذا اطلق لم يذهب الفهم منه الا الى المجاز دون الحقيقة ، كقولهم الغائط ، فان العرف خصص ذلك بقضاء الحاجة دون غيره من المطمئن من الارض •

قلت في الجواب هذا شيء ذهب اليه الفقهاء وليس الامر كما ذهبوا اليه لانه ان كان اطلاق اللفظ فيه بين عامة الناس من اسكاف وحداد ونجار وخباز ومن جرى مجراهم فهؤلاء لا يفهمون من الغائط الا قضاء الحاجة لانهم لم يعلموا اصل وضع هذه الكلمة وانها مطمئن من الارض • واما خاصة الناس الذين يعلمون اصل الوضع فانهم لا يفهمون عند اطلاق اللفظ الا الحقيقة لا غير • الا ترى ان هذه اللفظة لما وردت في القرآن الكريم واريد بها قضاء الحاجة قرنت بالفاظ تدل على ذلك كقوله تعالى (او جاء احد منكم من الغائط) فان قوله او جاء احد منكم من الغائط دليل على انه اراد قضاء الحاجة دون المطمئن من الارض • فالكلام في هذا وامثاله انما هو مع علم

اصل الوضع حقيقة • والنقل عنه مجازا واما الجهال فلا اعتبار بهم ولا اعتداد باقـوالهم •

واما الوجه الوضعي فهو ان المرجع في هذا وما يجـرى مجـراه الى اصل اللغة التي هي وضع الاسماء على المسميات ولم يوجد فيها ان الوجـه يسمى شمسا ولا ان الرجل الجواد يسمى بحرا • وانما اهل الخطابـة والشعر توسعوا في الاساليب المعنوية فنقلوا الحقيقة الى المجاز ولم يكن ذلك من واضع اللغة في اصل الوضع • ولهذا اختص كل منهم بشيء اخترعـه من التوسعات المجازية •

هذا امرؤ القيس قد اخترع شيئا لم يكن قبله • فمن ذلك انه اول من عبر عن الفرس بقوله (قيد الا وابد) • ولم يسمع ذلك لأحد من قبله •

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يوم حنين الان حمى الوطيس واراد بذلك شدة الحرب فان الوطيس في اصل الوضع هو التنور فنقل الى الحرب استعارة • ولم يسمع هذا اللفظ على هذا الوجه من غير النبي صلى الله عليه وسلم وواضع اللغة ما ذكر شيئا من ذلك فعلمنا حينئذ ان من اللغة حقيقة بوضعه ومجازا بتوسعات اهل الخطابة والشعر •

هذا موضوع واحد من موضوعات المثل السائر التي ذكرت مجملها في مقدمة هذا البحث • آمل أن يكون قد أعطانا فكرة صحيحة عن اسلوب الكتاب وعن اتجاه مؤلفه في تبيان علمه وفضله وتصوير خواطره •

ومن اجمل ما قيل في كتاب المثل السائر ما قاله الاستاذ محمد خلف الله عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية في مقدمته لكتاب(اثر القرآن في تطور النقد العربي) تأليف محمد زغلول سلام :

حقا انه كتاب جامع لمسائل العلم حافل بالطريف من التحليل الفنـي للنماذج الادبية • وفيه كثير من النظرات الاصيلة والملاحظـات المبتكرة • كتاب ممتع في الدراسات القرآنية واتى على ابواب من البيـان لم يتعرض لها السابقون • وهداه الله الى اشياء جديدة بلغ بها مرتبة الاجتهاد •

الفصل السابع عشر

الكتب النقدية الحديثة

ان تاريخ النقد عند العرب مرتبط بتاريخ ادبهم أشد الارتباط • من هنا صح أن نقول : ان النقد وجد عندهم يوم وجد ادبهم ذلك لان الاديب عندما يريد ان يظهر للناس ادبه لا معدى له من التفكير فيما هو مقدم عليه من نسج شعر أو تدبيج رسالة أو خطبة أو وصية أو موعظة وما يجرى هذا المجرى •

فهذا النوع من التفكير الذي يدعو الاديب الى التمحيص والتبديل والتغيير في كلامه هو النقد بعينه • ولهذه العلة نفسها كان بعض الشعراء الجاهليين يحبسون اشعارهم حولا كاملا ثم يعرضونها على الحذاق ينقدونها ويهذبونها ويغيرون بعض ابياتها ويتخيرون لها أجود الكلام وأحسنه • وبعد هذا التهذيب والتنقيح يطلعون بها على الناس ••• غير ان صحة النقد وفساده يعود الى مبلغ ثقافة الناقد وتبصره في الامور •

ولما كانت البيئة الطبيعية عند العرب بيئة بسيطة تفتقر الى التعليل والتحليل ولا يهمها التعمق في البحث • ولما كانت حياتهم الفكرية والاجتماعية غير معقدة كان من الطبيعي ان يكون نقدهم سمحا مبنيا على السليقة والفطرة لا يهتم كثيرا بذكر الاسباب والمسببات ••• على هذا السنن الفطرى جرى نقدهم الادبي في عصرهم الجاهلي ولا سيما في الشعر الذى هو فى حقيقة امره احساس وعاطفة وخيال اكثر مما هو عقل وتبصر وتدقيق •

مضى العصر الجاهلي وطفق العرب يجتازون حياة البداوة وطراز انظمتها القبلية • وجاءهم الاسلام حاملا لهم عز الدنيا والآخرة • بعد ان كانوا حائرين يمارسون عقائد متعددة انحدرت اليهم ممن جاورهم من

الاقوام الزردشتية والوثنية وغيرها • وبينما هم في هذه المتاهة جاءتهم ملائكة الرحمة تقول لمنقذهم الاعظم ونبيهم الاكرم (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) ••• وبهذا التنزيل الحكيم من رب العالمين علم العرب بانهم خير امة اخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر • فحينئذ انتقلوا من طورهم البدائي الى طور حضارى عظيم شمل الكون والحياة • فاتسعت بذلك آفاقهم الفكرية وارتفعت حياتهم الاجتماعية وتبع هذا الرقي رقيّ اسلوبهم في الادب والنقد •••

لقد اكدت ابحاث النقد الادبي على ضرورة الاطلاع على بعض المصادر النقدية الحديثة منها :ـ

١ ـ كتاب تاريخ النقد الادبى عند العرب

هو كتاب الفه الاستاذ طه ابراهيم لطلبة كلية الآداب في جامعة القاهرة مبتدئا بالعصر الجاهلي ومنتهيا بالقرن الرابع الهجرى • غير ان مؤلفه رحمه الله توفى قبل ان يتم طبعه • وقد عزّ على اخوانه الاساتذة في الجامعة ان يضيع جهده فانبرى من بينهم الاستاذ احمد الشايب فطبعه وقدم له بمقدمة جديرة بالمطالعة •

ولقد لاحظ الاستاذ الشايب في تلك المقدمة على نقاد هذا العصر انهم مشوا في اتجاهين مختلفين تبعا لما اتيح لكل فريق منهم من الثقافة ولما تيسر له من الاطلاع •

فالذين درسوا الآداب الغربية حاولوا ان يفرضوا قواعدها على الآداب العربية حتى اذا تنكر لهم الأدب العربي وابى عرفان الاراء المنقولة والمذاهب المستحدثة وصموه بانه ادب متأخر فقير لا يمت الى الحضارة بشي •

واما الذين لم يظفروا بهذه الدراسات الاجنبية فوقفوا في مباحثه النقدية عندما كتبه الاقدمون من نقاد الادب العربي ، ممن غلبت على مذاهبهم

الافكار الجزئية والمباحث الموجزة الضيقة والنظرات السريعة ... اذ قلما تجاوزوا في نقدهم الكلمة المفردة والصورة الفذة والمعنى المستقل . وهكذا يرى ان النقد الادبي بقي محصورا في دائرة شكلية هي جسم الادب لا روحه دون عناية بوحدة القصيدة ووحدة الديوان وبغير التفات الى شخصية الشاعر وبيئته وعصره .

ويقول الاستاذ الشايب في تلك المقدمة ايضا : ان الفريق الاول قد اخطأ خطأين اساسيين .

احدهما ان الادب العربي الذى يطالبونه بهذه المذاهب الفنية التي فاضت بها الآداب الاجنبية ، كان ولا يزال ادبا قديما نشأ منذ عهد بعيد وفي بيئات طبيعية وعقلية واجتماعية تخالف هذه البيئات التي انشأت الآدب الحديث . فليس من المعقول ان يتساوى النوعان وليس من الانصاف وصدق الموازنة ان نلتمس في ادبنا خواص قد لا يؤاتيه بها عصره الماضي ولا بواعثه الغابرة .

ثانيهما ان قوانين النقد الادبي واصوله لا تفرض على الآدب فرضا ولا تلقى عليه القاء . وانما يجب ان تستنبط من نصوصه الممتازة على انها خواص وجدت فيها فاكسبتها القوة والجمال وجعلتها قادرة على التأثر والخلود .

ولقد وزعت تلك المحاضرات على ابواب . وجعلوا الباب الاول في نقد العصر الجاهلي والباب الثاني فى نقد صدر الاسلام . اما الباب الثالث فقد تحدثوا فيه عن اثر المتقدمين من اصحاب النحو واللغة في النقد الادبي . والباب الرابع قد قصروه على محمد بن سلام الجمحي وكتابه طبقات الشعراء . وخصصوا الباب الخامس للخصومة بين القدماء والمحدثين والباب السادس جعلوه للنقد في القرن الثالث . واما الباب السابع وهو الاخير فاجملوا فيه النقد في القرن الرابع .

٣٠ ـ هو كتاب الفه الاديب احمد الشايب الاستاذ بكلية الآداب في الاسكندرية . دعا فيه الى معرفة طبيعة الآدب وعناصره وبعض مقاييسه النقدية . كما دعا الباحثين لتناول النقد الادبي الفني بالدرس والتمحيص بجانب النقد التاريخي والفردى . ولقد تناول فيه ابحاثا قيمة في معاني الادب وموازين النقد ثم تكلم عن العاطفة والفكرة والاسلوب والخيال وتاريخ الادب وثقافة الاديب وبين الفرق بين العلم والفن ووظيفة الادب في الحياة . والعوامل المؤثرة في حياة الاديب كالمكان والزمان والجنس والدين والسياسة والاتصال بين الشعوب . ثم تحدث عن النقد الادبي فاعطى خلاصة تاريخية للنقد اليوناني والنقد العربي وتكلم عن الذوق الادبي والعوامل المؤثرة فيه والمكونه له .

ثم تكلم عن وظيفة النقد الادبي ومقاييسه الموضوعية والذاتية وعاد فتكلم باسهاب عن العاطفة الادبية ومعناها والخيال وتعريفه الحقيقة ومنزلتها والصورة الادبية وجمالها ، والوحدة ومستلزماتها والاسلوب وصفاته . ثم تحدث عن اساس السرقات وامثلتها والموازنة وقيمتها . وبعد هذه الابحاث المستفيضة خصص الباب السادس في الشعر وعناصره ثم تقسيمه عند الغربيين وعند العرب كما تحدث عن موسيقى الشعر واوزانه وفنونه وقوافيه .

اما الباب السابع وهو الاخير فقد خصص فصله الاول للنثر واقسامه عند الفرنجة وعند العرب . واما الفصل الثاني منه فقد جعله للقصة وعناصرها وانواعها وعاطفة الحب فيها . ثم مقاييسها النقدية من حيث المادة والطريقة . واخيرا انهى الكتاب بخاتمة قال فيها

ان المقاييس التي اشتمل عليها الكتاب مقاييس عامة تقوم على اصلين من علمي النفس والجمال • وهي بذلك اليق بالنقد الذى لا يمكن ان يكون علما مطلقا ما دام الذوق حكمه الاخير •••• ثم يقول : ان هناك نقدا وصفيا او ايضا حيا يُعنى ببيان خواص النص الادبي دون عناية بالحكم عليه •••• وهو نقد يخضع لمثل الموازنة بين البحترى وابي تمام •

وهناك نقد ترجيحي او قيمى • ومهمته الحكم على النص الادبى بالجودة او الرداءة ووضعه في درجة فنية خاصة بالنسبة لغيره فيعده بذلك فاضلا او مفضولا • ولعل هذا الاخير هو الغالب على النقد العربي القديم [١] •

هذا الى انه غلب عليه ايضا ذلك النوع الجزئي او الموضعي الذى يتناول كل شاهد وحده بالنقد والتقدير مع الاعتماد على الذوق المدرب ، وان كان الذوق لا يلزم الاخرين الا اذا كان معللا ، على ان التعليل ليس ممكنا في كل حالة لان من الاشياء اشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة •

وهناك ظاهر تحسه النواظر وباطن تحصله الصدور وأكثر ما تكون تلك الدقائق في مواطن الحسن والجمال • فتلك قد تحسها واما تعليلها فعسير الا بالفاظ عامة لا تحدد معنى • ولذلك شاعت في النقد هذه الالفاظ التي ينكرها المحدثون كالجزالة والرقة والانسجام وحلاوة اللفظ وكثرة الماء والرونق والاغراب والابداع والطرب والصبوة [٢] مما يمكن ردها الى اصل نفسي هو قوة الانفعال وجماله واصل فني هو خلوّ الشعر من الصنعة والتكلف •

---

(١) راجع الوساطة ص ٣٨ صبيح •

(٢) الوساطة ص ٣٢ صبيح •

ومهما يكن فيمكن رد كثير من المقاييس النقدية القديمة الى الانواع الاتية :

١ ـ مقاييس شعرية تقليدية كما نقد الامدى ابا تمام بانه لم يصف المرأة بما درج عليه الشعراء السابقون من ضمور الخصر وري الارداف وكما يذكر الجرجاني طرق وصف السلاح عند الشعراء الماضين وتبيان غرضهم من ذلك .

٢ ـ مقاييس لغوية ويراد بها عدم الدقة في استعمال اللغة او الخروج عن نهج الماضين في صوغ العبارات كما عابوا على ابي اتمام قوله (لا انت انت ولا الديار ديار) .

بحجة ان هذا من اقوال العوام :

٣ ـ مقاييس بيانية تتصل بالاستعارات والتشبيهات التي تكوّن الصور وتبني الخيال . ومقاييس الجودة فيها القرب وعدم الاغراب وصدق الدلالة لذلك عابوا على ابي تمام قوله :

لا تسقني مـاء المـلام فانني صب قـد استعذبت مـاء بكائي

لجعله للملام ماء . وعابوا على المتنبي .

(بليت بلى الاطلال ان لم اقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه)

بأنه أراد المبالغة في طول الوقوف فبالغ في تقصيره .

٤ ـ مقاييس انسانية وهي التي ينتزعها النقـاد من طبـائع النفوس فيقبلون من اقوال الشعراء ما يلائمها ويرفضون ما ينافيها لذلك عابوا على ابى تمام قوله .

دعا شوقه يا ناصر الشوق دعوة فلباه طل الدمـع يجرى ووابله

وعابوا على البحتري قوله :

نصرت لها الشوق اللجوج بادمع تلاحقن في اعقاب وصل تصرما

اذ الدمع لا يقوى الشوق بل يشفى منه •

٥ ـ مقاييس عقلية ومردها الثقافة العامة والتجارب اليومية فلما قال ابو تمام •

تعجب ان رأت جسمي نحيفا ... كأن المجد يدرك بالصراع

عابوه بان الصراع ليس من النحافة والجسامة في شيء ، ولو قال : كان المجد يدرك بالجسامة لأصاب •

هذه هي المقاييس النقدية الموضعية القديمة اوجزناها لتكون دليلا لقراء النقد الادبي القديم •

* * *

٣ ـ أسس النقد الادبي عند العرب

ذلك كتاب الفه الدكتور احمد بدوى استاذ النقد الادبي بكلية دار العلوم في جامعة القاهره وطبعه سنة **١٩٥٨** وقدم له بمقدمة ذكر فيها ان للعرب تراثا ضخما وذخائر قيمة في الادب والنقد غير انها منثورة لم يجمعها عقد ولم توضع تحت عنوان الاصطلاحات المعروفة عندنا اليوم •

ثم قال ما معناه : اذا كانت العرب لم تستعمل النقد الادبي بهذا المصطلح الحديث فانها قد عرفته عملا •• وقال ان النقد في نشأته ابان العصر الجاهلي كان يعتمد على السليقة والفطرة ، وكان يستمد احكامه ويصدرها عن الذوق في كل ما كان يديه من الاراء • ولذا لم يكن نقادهم يبينون علل واسباب الجمال والقبح اذ لم تكن ثمة علوم قد دونت •

ويرى ايضا ان النقد الادبي قد تابع تقدمه في صدر الاسلام فروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال لبعض الوفود « انشدوني لاشعر شعرائكم قيل له ومن هو ؟ قال زهير لانه لا يعاظل بين القول ولا يتبع حوشي الكلام ولا يمدح الرجل الا بما فيه » •

ويرى ان النقد قد ارتقى رقيا ملحوظا في اواخر القرن الاول • وصار الشعراء والادباء يكثرون من الحديث في النقد • وظهر بعد هذا القرن نقاد بنوا نقدهم على اساس من الذوق العلمي وتمثل ذلك في فريق من النحويين واللغويين • ولم يقف نقدهم عند الصياغة والشكل وتحديد معاني الالفاظ بل مضوا يتفهمون الشعر ويتذوقونه ويدركون ما يمتاز به شاعر عن شاعر ويوازنون بينهم ويضعونهم في طبقات • ثم الفت بعد ذلك كتب كثيرة تناولت النص من نواحيه المختلفة فبينوا تأثيره في النفس ومخالطته للقلب ووصفوا اسلوبه من حيث وضوحه او غموضه ، جماله او قبحه • حتى اذا جاء عبدالقاهر الجرجاني بكتابه اسرار البلاغة وجاء بعده السكاكي ملخصا ما شرحه عبدالقاهر مقسما علوم البلاغة الى معان وبيان وبديع فحينئذ اتجهت جهود العلماء الى علوم البلاغة متناولين بعض مسائل النقد الادبي ••• ويرى الدكتور بدوى ان علوم البلاغة ليست بشيء منفصل عن النقد الادبي بل هي جزء اساسي من علومه •••• ويقول في مقدمته ايضا ان في هذ الكتاب الذى اقدمه عرضا موجزا لما وصل اليه العرب في النقد الادبي من نظرات • ولما كان هذا التراث قد ساهم فى تكوينه رجال كثيرون ونهض باعبائه اجيال متتابعة فان الشخصية لا تعنيني بقدر ما تعنيني الفكرة •

ولقد جرى الدكتور بدوى في تأليف كتابه هذا على النمط الذى جرى عليه سلفه من النقاد • فتناول دراسة الادب شعرا ونثرا والمواد التي كانوا يعدونها ضرورية للاديب المنتج والناقدين والدارسين لهما • وجعل كل ذلك في الباب الاول من الكتاب •

اما الباب الثانى فقد تحدث فيه عن النقد والنواحي التي تناولها نقاد العرب ثم الناقد وما يجب ان يتصف به من صفات عقلية وخلقية وثقافية • ثم الذوق ومدى اعتماد النقاد عليه ثم مظاهر الجمال والقبح في انتاج الشعراء والكتاب والفوائد التي ادركوها من نقدهم •

واما الباب الرابع فقد خصصه لنقد الشعر وتعريفه والمؤثرات فيه وفنونه كالغزل والمدح والفخر والرثاء والهجاء والعتاب والاعتذار والوصف والحماسة والحكمة واغراض اخرى •

ثم تحدث فيه عن تحقيق النص الشعرى وبناء القصيدة ومطلعها وحسن التخلص وحسن المقطع ووحدة البيت ووحدة القصيدة والوزن والقافية • واختلاف العلماء في ترجيح اللفظ على المعنى والعكس • ثم مقاييس نقد المعنى ونقد الاسلوب • ثم العاطفة ومقاييس نقدها والخيال ومقاييس نقده والشعر وعموده ثم دراسة نقدية مستقلة •

وتحدث في الباب الرابع عن النثر وانواعه ثم النثر المثالي عند نقاد العرب وتحدث عن القرآن الكريم واعجازه • وذكر نماذج من نقد العرب للنثر • ووصف الخطيب المثالي عندهم وختمه بملحق شرح فيه بعض العبارات النقدية عند العرب • وبخلاصة استعرض فيها اصول الاراء الدائرة حول النقد • واخيرا اتمنى ان يرجع الطلاب اليها للعلم الموجود فيها •

٤ ــ النقد المنهجى عند العرب

هذا اسم كتاب الفه الدكتور محمد مندور في النقد الادبي • وطبعه سنة ١٩٤٨ وجعله في جزئين خصص الجزء الاول بتاريخ النقد عند ابن سلام المولود في النصف الاول من القرن الثاني الهجرى الى ابن الاثير المولود سنة ٥٥٨ هـ والمتوفي سنة ٦٣٧ هـ والذى يجب معرفته مبدئيا عن محتوى هذا الكتاب هو ان مؤلفه اخذ بالمنهج التاريخي باعتباره المنهج الذى استقر الباحثون الغربيون على جدواه منذ اوائل القرن التاسع عشر الى يومنا هذا • والذى بفضله جددت الانسانية من معرفتها بتراثنا الروحي وزادته خصبا •• ويرى الدكتور ان النقد الادبي نشأ عربيا وظل عربيا صرفا •••• وعنده ان اساس كل نقد هو الذوق الشخصي تدعمه ملكة تحصل في النفس بطول ممارسة الاثار الادبية وعلى هذا فالنقد عنده ليس علما ولا يمكن ان يكون

علما وان وجب ان نأخذ فيه بروح العلم .... ثم يقول لو فرضنا جدلا امكان وضع علم له لوجب ان يقوم ذلك العلم بذاته . اذ من المعروف ان العلوم المختلفة لا تنمو ولا تثمر الا بفضل استقلال مناهجها ومبادئها التي التي تُستقى من موضوع دراستها .

ثم اخذ المرحوم مندور في تأليف كتابه باتباع المبادى الثلاثة التي اتبعها ابن سلام[٣] . وهي الزمان والمكان وفن النقد .

فجعل من الشعراء مجموعتين جاهليين واسلاميين . ثم جعل بعضهم شعراء لعامة العرب وبعضهم شعراء اقلميين . ثم عاد فقال : ان من الشعراء من انفرد بفن بذاته دون ان يقصد الى ذلك الفن بل سيق اليه بدافع من حياته . ومن اولئك اصحاب المرائي مثل متمم بن نويرة والخنساء واعشى باهلة وكعب بن سعيد الغنوى .

ثم تحدث الكتاب عن فطنة ابن سلام والشروط التى اوجب توفرها في النقد والناقد ... فذكر منها .

(١) الدربة والممارسة فى الآثار الادبية لأن كثرة الدراسة تعدى على العلم .

(٢) تحقيق النصوص وهذه اولى عمليات النقد واساسه المتين .

(٣) تفسير الظواهر الادبية التي تظهر على الادباء فتنشئهم نشأة خاصة . كطابع الرقة والسلاسة على شعر عدى بن زيد بسبب سكناه الحيرة . وكظهور كثرة الشعر أبان اشتعال نار الحرب ، وكظهور الشعر العذرى للصراع المعنوى بين الحب والعفة والدين والغريزة .

(٤) اسس المفاضلة مثل كثرة شعر الشاعر وتعدد اغراضه ودقة معانيه وجمال تعبيره .

---

(٣) كتاب النقد المنهجى ج ١ ـ ص ٤ .

ثم تكلم عن ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » الذى اخبر فيه عن ازمان الشعراء واحوالهم فى شعرهم وقبائلهم وطباقتهم • وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها • وعن الروح العلمية الصائبة فـى دعوتها الى تحكيم النظر الشخصى والاستقلال بالرأى ورفضه تفضيـــل القديم لقدمه ••• ولا يرى الدكتور تناقضا بين قول ابن قتيبة المذكور وبين حرصه على ان يظل النظر فى مسائل اللغة والادب خاضعا للتقاليد العربية الصحيحة • ومع هذا التقدير له فانه يراه دون ابن سلام في ذوقه ومنهج تأليفه ودون الآمدى في عـدم نقده النصوص نقـدا موضوعيا وتحليليا •• ويرى الدكتور ان كل ما عمله ابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء » هو ايراده اخبارا وقصصا عن الشـعراء المختلفين ثم بعضـا من اشعارهم دون مناقشة ولا حكم الا ان يكون حكما تقليديا يرويه عن الغير ولا فضل لـه فيــه •

وقال الدكتور ان نقد ابن قتيبة الشعر في الفاظه ومعانيه نقد سابق مقرر • وان قوله الالفاظ خدم للمعاني يدل على انه يقصد بالمعنى احـد امرين ١ ـ الفكرة • ٢ ـ المعنى الاخلاقي فاما الفكرة فبدليل انـه ينقد الابيات الآتية لخلوها من كل معنى •

ولما قضينا من منى كل حاجة   ومسّح بالاركان من هو ماسح

الى الخ ••• اذ ان من الواضح ان هذه الابيات الجميلة التي نثرها ابن قتيبة لا تحمل فى نظره أية فكرة وانما هي تصوير فني رائع استطاع عبدالقاهر الجرجاني ان يدرك جماله فيما بعد •

اما تطلبه لمعنى اخلاقي فواضح من اعجابه بمثل قول ابي ذؤيب

والنفس راغبة اذا رغبتهـــا   واذا تردّ الى قليـل تقنـــع

ويرى الدكتور ان نظرة ابن قتيبة نظرة ضيقة • لان مـادة الشعر

عنده ليست المعاني الاخلاقية كما انها ليست الافكار وان من اجوده ما يمكن ان يكون مجرد تصوير فني • كقول ذى الرمة الشاعر الرقيق الحس وقد حط رحاله بمنزل الحبيبة وتفقدها فلم يجدها •

عشية مالي حيلة غير انني بلقط الحصى والخط فى الترب مولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيده بكفي والغربان في الدار وقع

وبعد كلام طويل يقول : ان ابن قتيبة ليس ناقدا وانما الناقد الذى يتناول النصوص ، يدرسها ويميز بين اساليبها كما فعل الامدى الذى اصبح النقد بفضله نقدا منهجيا ولم يعد مجرد خواطر كما كان من قبل ولا احكاما تستقى من جزئية ثم تعمم •

وعلى هذا النمط من النقد يمارس مذهب البديع ونشأة النقد المنهجي عند ابن المعتز وقدامة • ثم الخصومة بين القدماء والمحدثين ، ثم يتكلم عن الآمدى والموازنة بين الطائيين وبيان منهجه وذوقه الادبي • ثم الخصومة حول المتنبي • ثم كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني ثم بيان منهجه فى النقد وذوقه الادبي • ثم اجرائه موازنة سريعة بين الجرجاني والامدى وبين الجرجاني والبديع ثم مناقشة الجرجاني لما عابه النقاد على المتنبي • ثم يتحدث عن يتيمة الدهر للثعالبي وبيان ما فيها من محاسن ومساوىء المتنبي • ثم يختم الجزء الاول من كتابه النقد المنهجي عند العرب بفصل يبين فيه كيف تحول النقد الى بلاغة ويسرد في هذا الفصل سردا سريعا جميع ما تقدم من ابحاثه النقدية •

اما الجزء الثاني فانه لا يتجاوز الخمسين صفحة تحدث فيها عن موضوعات النقد ومقاييسه فى ثلاثة فصول • تكلم في الفصل الاول عن الموازنة بين الشعراء والمنهج العام • وتكلم فى الفصل الثاني عن نشأة دراسة السرقات ومشكلة الاصالة • وبيان رأى عبدالعزيز الجرجاني وعبدالقاهر الجرجاني فى العام المشترك والخاص • ثم تقسيم السرقات الى

انواع عند ابن رشيق وابن الاثير •
فقد تكلم فيه عن نشأة علوم البلاغة • وعن النقد القيمي والنقد الوصفي ومقاييس النقد الموضعي وكتاب ثعلب وكتاب الباقلاني ـ اعجاز القرآن ـ ومقاييس الجمال عند الامدي وعبدالعزيز الجرجاني • اساس فني واساس نفسي • ثم مقاييس النقد الاخرى ـ مقاييس شعرية تقليدية ومقاييس لغوية ومقاييس بيانية ومقاييس انسانية ومقاييس عقلية واخيرا الاساس اللغوى الفقهي عند عبدالعزيز الجرجاني •

٥ ـ كتاب النقد الادبي
لأحمد امين

كان من الممكن ان نقدم بحث هذا الكتاب على غيره من هذه الكتب النقدية الحديثة التى اوجزنا وصفها • ولكنا وضعناه في الخاتمة لانه كتاب جامع لاشتات الابحاث النقدية في مختلف العصور الادبية ، ليكون بمثابة خلاصة لما جاء فى هذه الدراسات التى بين ايدينا • وعذرى فى ذلك كعذر صاحب يتيمة الدهر حيث يقول ان العرب قد تبدأ بذكر الشى والمقدم غيره • وبعد :

فانه كتاب واحد جعله مؤلفه رحمه الله في جزئين الجزء الاول خاصا باصول النقد ومبادئه والجزء الثاني خاصا فى تاريخ النقد عند الافرنج وعند العرب •

ومما هو جدير بالملاحظة ان المرحوم احمد أمين يرى في الجزء الاول من كتابه المذكور ان قواعد النقد الادبي عند الافرنج تنطبق على الادب العربي • لذلك جعل لكل قاعدة من قواعد النقد عند الافرنج أمثلة عربية لأنها أدنى الى ذوق القارىء العربي ••• ويرى ان الغرض من دراسة النقد هو معرفة القواعد النقدية التي يستطيع الناقد بالاطلاع عليها أن يحكم على

القطعة الادبية بالجودة أو الرداءة ثم درجتها من الحسن أو القبح ... ثم تحدث عن قيمة الدراسة التاريخية فى فهم الادب كما تحدث عن العاطفة والمعنى والاسلوب والخيال ونظم الكلام شعرا ونثرا ، والعناصر الاساسية للاسلوب ، والفرق بين القصة والرواية والمسرحية ، ثم عاد فأعطى نظرة عامة فى النقد ونواحيه التاريخية . ثم مبدأ العالمية فى الادب . وختم الجزء الاول بشواهد متفرقة لكل ما سبق فى ثنايا هذا الجزء كتوضيح وتعليق على أغلبيتها بما يناسبها .

اما الجزء الثاني فقد تناول فيه تاريخ النقد عند الافرنج والعرب . وقصر البحث فى تاريخ النقد الاوربي على العصور الوسطى والعصور الحديثة لانها اكثر اتصالا بأدبنا وأمس بحياتنا . ثم تحدث فيه عن عوامل انحلال الكلاسيكية الحديثة وعن السابقين الاولين من النقاد الانجليز مثل جراي ، وديدرو ، ثم تحدث عن جان جاك روسو ومدرسة الجماليين ونشأتها فى فرنسا وايطاليا وانجلترا . وعن الخلاف بين الكلاسيكية والرومانتيكية . وعن نهضة النقد ورجاله مثل : وردسورث . وكولردج ، ودانتي وهازلت ولامب وسنت بيف وجوته وشيلر ، وخلاصة عن الثورة الرومانتيكية . ثم تحدث عن خلفاء سنت بيف وعن النقد الانجليزى ، وعن ماكولي ، وكار لايل ، وآرنولد ، ثم تكلم عن تاريخ النقد فى القرن العشرين ، وعن عصر الرمزية وما قبل الحرب العالمية الاولى وما بعدها فى فرنسا ، وبلاد الانجليز ، فتناول مارسيل ، واندريه جيد ، وبول فاليري ومذاهب جديدة ، ثم ويلز ، وجورج برناردشو ، وختم الجزء الثاني بلمحة مختصرة مفيدة عن تاريخ النقد عند العرب فى الجاهلية وفى العصر الاموى فى العراق والشام . ثم النقد فى العصر العباسي .

وها أنا اقتطف بايجاز ايضا من تلك اللمحة المختصرة ما يتصل بدراستنا هذه باعتباره هو المطلوب اولا وبالذات .

النقد الادبي في الحجاز

يقول المرحوم احمد امين : كانت الحجاز في العصر الاموى وخاصة المدينة ومكة زاخرة بالحياة غنية بأنواع الترف مملوءة بأعيان العرب ... وكانت الاموال تصب فيها صبا من البلاد المفتوحة ومن اشتراك رجالها فى الفتح والغنائم وكثرة الموالي من عبيد وجوار من كل امة من الفرس والرومان وغيرهم فكان السيد يملك منهم ومنهن العدد الكثير .

ويقول : كان الحجاز اكبر مركز لظاهرتين متناقضتين أو كالمتناقضتين فهو أكبر مركز للحركة الدينية من درس للقرآن الكريم والحديث الشريف والفقه . يهرع اليه الناس من جميع الاقطار يأخذون عن رجاله علمهم بالكتاب والسنّة ، واستنباطهم الاحكام الشرعية ... وهو فى الوقت نفسه اكبر مركز لحياة اللهو والعبث ، ففيه أعظم المغنين والمغنيات .

ففي مكة ابن سريج شيخ المغنين والذى قال فيه جرير :

« لله دركم يا أهل مكة ماذا أعطيتم . والله لو ان نازعا نزع اليكم ليقيم بين أظهركم فيسمع هذا صباح مساء لكان أعظم الناس حظا ونصيبا ، فكيف ومع هذا بيت الله الحرام ووجوهكم الحسان . ورقة ألسنتكم وحسن اشارتكم وكثرة فوائدكم » .

وكان فى مكة منافس لأبن سريج وهو الغريض الذى قال فيه الحارث بن خالد المخزومي ياغريض لو لم يكن لي فى ولايتي مكة حظ الا أنت لكان حظا كافيا وافيا ، ياغريض انما الدنيا زينة فأزين الزينة ما فرّح النفس ، ولقد فهم الدنيا من فهم قدر الغناء(١) .

وكان فى المدينة من المغنين المشهورين والمغنيات امثال سائب خاثر ونشيط وعزة المَيلاء وجميلة وطُوَيس ومعبد وبرد الفؤاد ونومة الضحى .

---

(١) كتاب النقد الادبي ج ٢ ص (٤٢٠) للمرحوم احمد امين .

ومن مظاهر هذا الظرف وأقوالهم المأثورة تسامح رجال الدين وسعة نظرهم الى الحياة خصوصا اذا قورنوا برجال الدين في العراق اذ ذاك .

ففقهاء الحجاز كما روى ابن عبد ربه يجيزون الغناء وفقهاء المدينة يستحسنونه ويستسيغونه ، بل منهم من كان يسمع ويغشى أماكن الغناء ويضرب فيها بسهم كأبن أبي عتيق وعبدالله بن جعفر . وكان عبدالله بن جعفر بن أبي طالب يشتري الجواري الحسان ويأتي بمعلمين يدربونهن على الغناء[1] .

وفى هذه البيئة نشأ أدب رقيق ينفق وروح العصر . فيه دعابة وفيه وصف للنساء صريح . وفيه قصص لاحداث الشعراء مع النساء وكان يحمل لواءه عمر بن ابي ربيعة اولا والاحوص ونصيب ثانيا ، كما كان هناك محافظون يسيرون على النمط القديم في المعاني ولا يجددون الا بمقدار ما يضطر اليه الزمان ككثير عزة فانه بطبيعة بداوته كان محافظا .

هذا الادب الجديد في هذه البيئة الظريفة اللاهية استتبع كذلك رقيا في النقد يدل على رقي في الذوق ... وكان الاحتكاك بين الاحرار والمحافظين مثارا لنقد ظريف حقا كالذى روى لنا بين عمر بن ابي ربيعة وكثيّر عزة . فكثير يسمع عمر بن أبي ربيعة يقول :

قالت تصدَّى له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تشتد فى اثرى

فيقول كثير : أتراك لو وصفت بهذا حرة أهلك ألم تكن قد قبحتَ وأسأت وقلت الهجر ، وانما توصف الحرة بالحياء والالتواء والخجل والامتناع .

---

(١) كتاب النقد الادبى لاحمد امين ص (٤٣٠) .

ويسمع عمر بن ابي ربيعة كثيرا يقول :

الا ليتنا يا عز كنا لـذى غنـى بعيرين نرعى في الخـلاء ونعزب
كلانا بـه عـر فمن يرنا يقـل على حسنها جرباء تعدى وأجرب
اذا ما وردنا منهلا صاح اهلـه علينا فما ننفك نُرمى ونضرب
وددت وبيت الله انـك بكـرة هجان واني مصعب ثم نهـرب
نكون بعيرى ذى غنى فيضيعنا فـلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

فيقول له عمر : تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمي والطـرد والمسخ ، فأى مكروه لم تتمن لها ولنفسك • لقد اصابها منك قول القائل :
(معـاداة عـاقل خير من مودة أحمق) •

وهكذا كان النقد بين الاحرار والمحافظين •

أمـا النقـاد أنفسهـم فخـير من يمثلهـم في الحجـاز في ذلك العصر ابن ابي عتيق يمثل نزعة أهل الحجاز وظرفهم فكلاهما لـه منزلة دينية عالية ومع هذا يعنى بالادب والنقد •

وابن ابي عتيق من اعـلى الناس حسبا فهـو عبـدالله بن محمـد بن عبدالرحمن ابن ابي بكـر الصديق انـه من نسـاك قريش وظرفائهم وقـد غلبت عليه الدعابة وكان من الرواة الموثوق بهم •

وقد ملأ الحجاز نقدا ظريفا لكثير من الشعراء • وكان يفضل عمر بن ربيعة على معاصريه ، ويقول لشعر عمر نوطة بالقلب وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر غيره وما عُصِيَ الله عز وجل بشعر أكثر ممـا عصى بشعر عمـر •

وسمع كثيرا يقول :

ولست براض من خليل بنائل قليـل ولا أرضى لـه بقـليل

فقال له : هذا كلام مكافيء وليس بكلام عاشق وعمر أصدق منـــك واقنع اذ يقــول :

ليت حظي كلحظة العين منهـا وكثيرٌ منهـا القليــل المهنــا

ومرّ به ابن قيس الرقيات فسلّم عليه فقال : عليك السلام يا فـارس العمياء ، فقال له : ما هذا الاسم الحادث ؟ قال ابن أبي عتيق : أنت سميت نفسك حيث تقول : (سواء عليها ليلها ونهارها) فما يستوى الليل والنهـار الا على عمياء قال : انما عنيت التعب • قال : فبيتك هذا يحتاج الى ترجمان •

وعلى الجملة فقد ساير النقد الادب • تجدد الادب فتجدد النقــد ورقى الذوق فرقى النقــد •

النقـــد فى الشـــام

ولئن كان الادب في الحجاز أكبر مظهر له الغزل والنقد يتبعه ، فالشام اكبر مظهر لادبه هو المديح والنقد يتبعه ايضا • وكان هذا طبيعيا ، فدمشق عاصمة الخلافة الاموية والشعراء يفدون على الخلفاء بمدائحهم التي انفقوا فيها عمرهم • والخلفاء يعطون عليها فيجزلون العطاء •

اما سياسة منهم حتى يتألفوا الشعراء ويأمنوا شر السنتهم ويستجلبوا منهم الثناء عليهم فيشيع ذلك في الناس ، واما تقديرا للشعر نفسه واعجابـا به • ثم خلفاء بني امية كانوا عربا في نسبهم وعربا في ذوقهم فلاعجب أن يعجبوا بالشعر ويطربوا له ويكافئوا عليه واما للسببين معا •

فمن عهد معاوية الى عهد مروان بن محمد والشعراء تفد على دمشق بمدائحها في ملوكها ••• وكانت قصور الخلفاء الامويين في تقاليدها كثير من طباع العرب سهولة حجاب وكثرة وفود وزوار وامـداد سمـاط لمن حضر • وكثرة تردد على الخليفة للامور الجليلة والحقيرة •

لهذا كله كان في القصر معنى المنتدى ايضا • فالشاعر اذا قال قصيدة قالها في جمع كبير ، واذا نقدت نقدت في جمع كبير • وكان القصر مركزا للادب كما هو مركز للسياسة •

والادب الذي يناسب القصور هو ادب المديح ـ لهذا لَوَّنَ الادب الشامي بلون المديح ولَوَّنَ النقدُ بلون الادب •

وكان موقف خلفاء بني امية يحملهم على تشجيع الشعراء على مديحهم والاغداق عليهم ، فهم منذ بدء خلافتهم كانوا هدفا لمهاجمة اعدائهم ثم ظهور الدعوة العباسية آخر الامر • وهم يعلمون ان الشعراء ألسنة الناس وانهم يفعلون فيهم ما تفعل جرائد الاحزاب في هذه الايام •

لهذا قربوا الشعراء اليهم بكل وسيلة وشجعوهم على القول في المديح والعطاء عليه •

ولوأحصينا أشهرشعراء الشام في ذلك العصر ونوع شعرهم لوجدناهم شعراء سياسة وشعرهم يخدم السياسة بالمديح ، واشهرهم في ذلك الاخطل• فقد ظل أكثر حياته يمدح الامويين ويعلي من شأنهم ويناصر من ناصرهم ويهجو من ناوأهم •

واضطرهم الاكثار من المديح ان يُقَلِّبوا معانيَه على وجوهها وان يذهبوا فيه كلَّ مذهب ويغوصوا على معانيه كلَّ غوص • وتَبِعَ الاكثار من المديح الاكثارُ من نقد المديح •

ولعل خير من روى لنا عنه في نقد المديح هو عبدالملك بن مروان فقد كان الى جنب انه خليفة عظيم ذا ذوق ادبي راق يقصده الشعراء بمدحهم فيقو مه تقويما حسنا ويدقق في معانيه وينقده بذوقه الظريف ••• كان يكره من الشعراء أن يطيلوا في مدح انفسهم أو نوقهم ويرى ان يكون المدح خالصا للممدوح • فينشده السلولي قصيدة خلطها مدحا بفخر

فيقول له : (والله ما مدحت الا نفسك) وينشده ذو الرمة قصيدة يطيل فيها مدح ناقته فيقول له : ما مدحت الا ناقتك فخذ الثواب والجائزة منها • وكان يرسم للشعراء طريق المدح فيقول :

تشبهونني مرة بالاسد ومرة بالبازي ومرة بالصقر • الا قلتم كما قال الشنفرى :

ملـوك ينـزلون بكـل ثغـر   اذا ما الهام يوم الروع طـارا
رزان في الامور تـرى عليهم   من الشيخ الشمائل والنجارا
نجوم يهتـدى بهـم اذا مـا   اخو الظلماء في الغمرات حارا

ويسمع قول ابن قيس الرقيات في مدحه :

ان الاغر الذى ابوه ابـو العا   صى عليـه الوقـار والحجب
يعتدل التـاج فـوق مفرقـه   عـلى جـبين كأنـه الـذهب

فيوازن بينه وبين ما قاله الشاعر نفسه في مدحه مصعب :

انما مصعب شـهاب مـن الله تجلت عـن وجهـه الظلمـاء
ملكـه مـلك عـزة ليس فيه   جـبروت منـه ولا كبريـاء

فيقول له : يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم وتمدح مصعبا بأنه شهاب من الله •••

وأمثال هذا كثير فى كتب الادب تدل على علو مقام عبدالملك فى النقد • وانه قام فى نقد المديح بالشام مقام ابن عتيق فى الغزل بالحجاز •

تروى لنا كتب الادب ان مجالس الخلفاء كعبدالملك وهشـام مملوءة بالسؤال عن الشعراء ، أيهم اشعر وأى المعاني أجود ونحو ذلك مما جعـل القصور مدارس ادب ونقد ، ولا سيما في المديح •

هذه خلاصة موجزة للنقد في الشام • فكله كان يدور حول تفضيل شاعر على شاعر ، وميزة الشعراء بعضهم على بعض • وضعف المعاني التى يأتي بها الشعراء وتفضيل بعضها على بعض وتخير الالفاظ وحسن الصياغة

أو قبحها • وكل ذلك مبني على الذوق الفطرى الذى تهذبه البيئة وترقيه الحضارة ، وشأن النقد شأن الادب •

لقد كان الادب فطريا يصدر عن سليقة وطبع فكان النقد كذلك فطريا يصدر عن ذوق وسليقة وطبع •

وفى آخر العصر الاموى ظهر النحو وجدّ بعض علمائه فى وضع قواعده • والمهم هنا ان علماءه بدأوا ينقدون الشعر على نمطهم واسلوبهم • بدأوا نوعا جديدا من النقد هو ان الشاعر اخطأ نحويا ولم يجر في شعره على منحى العرب في الاعراب فنقدوا النابغة الذبياني اذ يقول :

فبت كـأني ســاورتني ضئيلـة   من الرقش في انيابهـا السم ناقع

فقالوا : ان الصواب ان يقول ناقعا بالنصب على الحال •

ونقد عبدالله بن اسـحق الحضرمي الفرزدق اذ يقول :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع   من المـال الا مسـحتا ومجلف

فقالوا : كان الواجب ان يقول مجلفا بالنصب لأنـه معطوف على منصوب • وهجاه الفرزدق لما عابه بهذا فقال :

ولو كان عبدالله مولىً هجوتـه   ولـكن عبـدالله مـولى مواليـا

فعابوه ايضا في ذلك • وقالوا : كان الواجب ان يقول مولى موال لا مولى مواليـا •

وعلى الجملة فقد ظهر هذا النوع من النقد العلمى النحوى في آخر العصر الاموى • فلما جاء العصر العباسي وأسست العلوم في جميع الفروع تأثر النقد الادبي بالعلم وتحول الذوق الفطرى الى قواعد وقوانين •

علمنا الحجاز واختصاصه بفن الغزل ، وعلمنا ان النقد كـان يعتمـد على الذوق الظريف المرهف •كما علمنـا ان النقـد فى الشـام كان يتبع ما اختصت بـه عاصمة الخلافة الاموية في ادب المديح ودواعيه وفنونه •

اما في العراق فانا نجد طعما آخر للادب والنقد ، كما يقول المرحوم احمــد امين •

انا نجد الشعر العراقي في اكثر احواله يشابه الشعر الجاهـلى فى موضوعه وفحولته واسلوبه • حيث فيه العصبية القبلية على اشدها واعنفهـا وكان اغلب موضوعاته ما يتصل بهذه العصبية من فخر وهجاء ، فخر الشاعر بقبيلته ومن يعتز به ، أما الغزل ونحوه فكان على هامش الشعر لا فى صميمه عـلى عكس الحـال فى بيئـة الحجاز كعمر بن أبى ربيعـة وأضرابه • يفخر الفرزدق ببيئته من تميم ويهجن غيره • ويفخر جرير كذلك ويهجـو خصومـــه •

ويشاء الله أن يكون أشهر مكان للسباق بين الشعراء فى العراق يشبه أخاه الذى فى الجاهلية وهو مربد البصرة فى الاسلام الشبيه بسوق عكاظ فى الجاهلية •

كان المربد ضاحية من ضواحى البصرة وعلى بعد ثلاثة اميال منهـا • وكان اصله سوقا للابل • ثم كان مجتمع العـرب يتناشـدون فيه الاشـعار ويبيعون ويشترون • وكان العرب يعيشون فيه عيشة تشبه عيشة الجاهليـة من مفاخرة فى الانساب وتعاظم بالكرم والشجاعة وذكر ما كان بين القبائل من احن •

كان هذا المربد يزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون ، ويعلي كـل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسي ويضع من شأن غـيره من الشـعراء ومذاهبهم السياسية ، فيجتمع فيه جرير والفرزدق ويتنافران ويتهاجيـان ويحضرهما العجاج والاخطل وكعب بن جعيل وغيرهم •••• وكان لكـل

شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره وحوله الناس يسمعون منه • ولكل شاعر حزب ينتصر له ويتعصب له • وما زال جرير والفرزدق يتهاجيان حتى ضج والى البصرة فهدم منازلهما بالمربد ••• وقد خلف لنا هذا المربد وما كان فيه من صراع مجموعات كبيرة من الشعر ، أهمها شيئان • مجموعة كبيرة من النقائض بين جرير والفردق • فكان احدهما يقول قصيدة في هجاء صاحبه على وزن خاص وقافية خاصة فينقضها الآخر ويحولها الى هجاء خصمه على نفس الوزن والقافية • والثاني مجموعة من الاراجيز الفخمة كأرجوزة العجاج •

قد جبر الدين الاله فجبر

وارجوزة ابي النجم

تذكر القلب وجهلا ما ذكر

وارجوزة رؤبة

وقاتم الاعماق خاوى المخترق

الى غير ذلك •

والناظر فى هاتين المجموعتين النقائض والاراجيز يرى فيهما صدق ما نقول من الفروق الواسعة بين الشعر الحجازى والشعر العراقى ••• فهذا الشعر العراقى متميز باسلوبه الفخم الذى يشبه الاسلوب الجاهلى • ومعانيه البدوية التى لم تمسها الحضارة الا مساً رفيقا والتي يشيع فيها الفخر القبلى والهجاء القبلى ، والتعبير بانه قين وابن قين •

فلا عجب ان نجد النقد يتبع الادب ويكون من جنسه • فلا نجد فى العراق ابن ابي عتيق وامثاله الذين كانوا ينقدون المعاني بعرضها على الذوق الحضرى المهذب وينقدون الغزل بعرض ما هو الىق وأنسب ••• انما نجد في العراق انواعا اخرى من النقد تناسب تلك البيئة التى وصفنا ونوع الشعر الذى اوضحنا •

كان النقد متجها اكثر الاتجاه فى العراق الى التفضيل بين الشعراء فأى الثلاثة اشعر جرير أو الفرزق أو الاخطل ؟ ونحو ذلك وسموا هذا قضاء ، وسموا الذى يحكم قاضيا ، وسموا هذا العمل حكومة ، فقال الاخطل :

وانى لقاض بين جعدة عامر ‏ ‏ ‏ ‏ وسعد قضاء بيّن الحق فيصلا

وقال كعب بن جعيل :

اني لقاض قضاء سوف يتبعه ‏ ‏ ‏ ‏ مَن أمَّ قصدا ولم يعدل الى أود
فصلا من القول تأتم القضاة به ‏ ‏ ‏ ‏ ولا أجور ولا أبغي على أحد

وقال جرير في الاخطل لما فضل الفرزدق عليه :

فدعوا الحكومة لستم من اهلها ‏ ‏ ‏ ‏ ان الحكومة فى بني شيبان

وكانت لهم احكام نقدية كذلك فى ميزة الشاعر ووجوه ضعفه ووجوه قوته ، واحكام فى الموازنة بين الشعراء ، نذكر منها بعض الامثلة كحكم الفرزدق على النابغة الجعدى بأنه (صاحب خلقان عنده مطرف بالاف وخمار بواف ، يريد انه يعلو ويسفل ، ويقول البيت يساوى الاف الدراهم والبيت لا يساوى الا درهما . وكحكمه على ذى الرمة بجودة شعره لولا وقوفه عند البكاء على الدمن ووصف القطا وابوال الابل ... وكحكم جرير على على الاخطل بانه يجيد مدح الملوك .... وكموازنة الاخطل بين جرير والفرزدق بأن جريرا يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر وساد هذا الضرب من النقد فى العراق وزاده كثرة حركة العنف فى الهجاء بين جرير والفرزدق، وجرير والاخطل، فانقسم الناس الى معسكرات ثلاثة، كل يتعصب لشاعر ويفضله على غيره ويتلمس محاسن شعره ويشيعها ومعايب غيره فيشهّر بها ، فكان هذا وأمثاله من الخصومات بين الشعراء سببا فى غلبة هذا الاتجاه على النقد الادبي فى العراق وزاد هذا الاتجاه حتى جعلوا من لم يسر على طريقتهم فى المدح والهجاء متخلفا ، رووا أن ذا الرمة قال للفرزدق : مالي لا الحق بكم

معشر الفحول ، فقال له : لتجافيك عن المدح والهجاء واقتصارك على الرسوم والديـــار •

وكان فى العراق حركة ادبية تغاير هذه الحركة كل المغايرة ، ولئن كانت الحركة السابقة متأثرة بالشعر الجاهلى والعصبية الجاهلية والعـــادات والتقاليد الجاهلية فهذه الحركة الجديدة متأثرة بالاسلام وتعاليمه ، وأعني بها حركة الخوارج ، فقد كان لهم أدب قوى ولهم شعر رائع ولكنهم لا يقصدون فيه الى مديح وهجاء كما يفعل جرير والفرزدق والاخطل وامثالهم •• انمــا يقصدون فيه الى ارضاء عواطفهم بالاستهانة بالموت فى سبيل الله ، والحث على الشجاعة والاقدام وبيع النفس لارضاء الله • وسموا انفسهم الشــراة أخذا من قوله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة » • ولهم شعر بليغ بثوا فيه قوة ايمانهم وشدة شجاعتهم أمثال قطعة قطرى بن الفُجاءة •

اقــول لهــا وقـد طارت شعاعا — من الابطـال ويحـك لا تراعي

فانـك لو سـألت بقــاء يــوم — على الأجل الذى لك لم تطاعي

فصبرا فــي مجـال الموت صبرا — فمـا نيـل الخلود بمسـتطاع

فكان هذا اللون من الشعر مخالفا للون الشعر الذى يقوله جــرير والفرزدق والاخطل • وتبع نزعتهم فى الادب نزعتهم فى النقد فكانوا يهزؤون بهؤلاء الشعراء الذين يتمسحون بالملوك والامراء يمدحونهم بما ليس فيهم ويستجدون المال الذى ليس من حقهم ، ويرون ان الشاعر من صدق فـى قوله واتقى الله فى شعره ، فيروون ان عمران بن حطان مر على الفرزدق وهو ينشد والناس حوله ، فوقف عليهم ثم قال :

أيهــا المـادح العباد ليُعطى — ان لله مـــا بأيــدى العبــاد

فــاسـأل الله ما طلبت اليهـم — وارج فضـل المقسّم العــو اد

لا تقل فى الجـواد ما ليس فيه — وتسم البخيـل باسـم الجـواد

وكان بعض الخوارج يسمي عاصم بن الحدثان أحد شعراء الخوارج شاعر المؤمنين والفرزدق شاعر الكافرين •

فهؤلاء الخوارج يزنون الشعر بميزان الدين والاخلاق ، واولئك يزنونه بالميزان الفنى البحث ويجعلون امامهم الشعر الجاهلى والنزعات الجاهلية • ولكن قد ضاعت حركة الخوارج الادبية بضياعهم سياسيا وتغلبت نزعة امثال جرير والفرزدق والاخطل ونقادهم ، وكانت هى اكبر مظهر فى العراق •

النقد فى العصر العباسى

اذا وصلنا الى النقد فى العصر العباسى رأينا امعانا فى الحضارة وامعانا فى الترف ، ورأينا الشعر والادب يتحولان الى فن وصناعة بعد ان كانا يصدران عن طبع وسليقة حتى لنرى كثيرا من الكتاب والشعراء من الموالى الذين عدوا عربا بالمربى ، ورأينا الثقافة تعظم وتتسع وتشمل فروع المعرفة كلها ولا تقتصر على الثقافة الدينية والادبية ورأينا الثقافات الاجنبية تتدفق على المملكة الاسلامية من فارسية وهندية ويونانية ، ورأينا كل مجموعة من المعارف تتحول الى علم حتى اللغة والادب والنحو والصرف • فكان طبيعيا ان يتحول الذوق الفطرى الى ذوق مثقف ثقافة علمية واسعة ، وأن يتأثر النقد الادبي بهذه الثروة العلمية والادبية الواسعة •

لقد كان مما عمله العلماء ان جمعوا ما استطاعوا من اشعار الجاهليين والاسلاميين ، فكانت المادة الادبية التى ينقدونها اغزر وأوفر ، وجمعوا مادة اللغة واطلعوا على اقوال النقاد السابقين كما نقلت اليهم اقوال الفرس والهند واليونان فى معنى البلاغة وشروطها •

ولو تتبعنا ما روى لنا من النقد فى هذا العصر لرأيناه متجها اتجاهين أوسائراعلى نمطين: نمط منه هوامتداد النقد الجاهلي والاسلامى مع ما اقتضته البيئة من تحول ، من ذلك ان العلماء باللغة والادب من العباسين امثال

الخليل والكسائي والاصمي وابى عمرو بن العلاء ، والنظر بن شميل وابن الاعرابي ، كانوا يستعرضون الشعراء السابقين من جاهليين واسلاميين ويتذوقون شعرهم ويبدون فيه رأيهم .

فيقولون : ان شعر النابغة قوى الصياغة شديد الاسر ، وشعر امرىء القيس غزير بالمعاني التى لم يسبق اليها ، وشعر جرير اسهل وأرق وشعر الفرزدق أقسى وأصلب الى غير ذلك .

ويقول ابو عمرو بن العلاء في ذى الرمة : ان شعره نقط عروس تضمحل عما قليل ، أو ابعار ظباء لها شم فى اول شمها . ثم تعود الى ارواح الابعار . يريد ان يقول ان لشعره حلاوة ، ولكن لا تبقى . وكان هؤلاء العلماء يتنازعون فى افضلية الشعراء فكان المفضل الضبي يقدم الفرزدق على جرير وابو عمرو بن العلاء يقدم الاخطل ثم جرير ثم الفرزدق . وكان علماء الكوفة مثلا يقدمون الاعشى على من فى طبقته ، وعلماء البصرة يقدمون امرأ القيس وأهل الحجاز يقدمون النابغة وزهيرا . وكان لهذا الاختلاف فى التفضيل أسباب ، من ذلك ان بعض العلماء كانوا يحبون الغريب من الالفاظ فيقدمون من الشعراء من يستعمل الغريب ومنهم من كان يحب الغزل فيقدم اكثرهم غزلا ومنهم من يحب النحو فيقدم الفرزدق لاكثاره من تقديم وتأخير ونحو ذلك .

ووازنوا بين الشعراء فقال ابو عمرو بن العلاء فى أوس بن حجر انه كان فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فاخملاه . وقال : ان عدى بن زيد فى الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم يعارضها ولا يجرى معها .

واستعرضوا الشعراء وأبانوا موضع نبوغهم وموضع ضعفهم ، فقالوا طفيل الغنوى اعلم العرب بالخيل وأوصفهم لها وامرؤ القيس يحسن وصف المطر ، وعنترة يحسن وصف الحروب وامية بن ابى الصلت يحسن ذكر الآخرة وعمر بن ابى ربيعة يحسن ذكر الشباب . وشبهوا جريرا بالاعشى والفرزدق بزهير والاخطل بالنابغة .

واستعرضوا الشعراء الذين تواردوا فى شعرهم على معنى واحد ففضلوا قولا على قول . ففضلوا فى الصبر على النوائب قول دريد بن الصمة :

يُغار علينا واترين فيُشتفى — بنا إن أُصبنا أو نغير على وتر
بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة — فما ينقضي الا ونحن على شطر

وقالوا أجود بيت فى المديح قول جرير :

الستم خير من ركب المطايا — واندى العالمين بطون راح

وهذا نمط يشبه النمط الذى رأيناه فى العصر الاموى ولكنه اوسع وأعمق لان المادة عندهم اصبحت اغزر وعلمهم بالشعر اوفر . ثم هم اذا نقدوا عللوا ولم يكن قولهم مجرد حكم كما كان من قبل . فيونس يفضل الفرزدق ويعلل ذلك بانه اكثرهم عدد قصائد طوال جياد ولم نجد للاخطل عشرا بهذه الصفة . ووجدنا لجرير ثلاثا بهذه الصفة .

اما النمط الآخر الذى كان جديدا لم يسبق اليه هو النمط العلمى فى النقد نمط التأليف ووضع الكتب التى لا تتعرض الا للنقد وما يتصل به ، ولعل اسبق البلدان فى ذلك هو البصرة . فقد كانت الحركة العلمية فيها على أتم ما يكون من نشاط . وكان فيها أول حركة للاعتزال . والمعتزلة هم واضعوا اصول البلاغة اذ كانوا هم المحتاجين اليها فى الدعوة واقامة الحجج فوضع منهم بشر بن المعتمر الصحيفة الخالدة فى البلاغة وجاء بعده الجاحظ وهو ما هو فى البلاغة وفنونها .

لقد كان فى البصرة علماء من النمط الاول كابى عمرو بن العلاء ، ويونس ، وخلف الاحمر ، والاصمعى ، وابى عبيدة . فجاءت الطبقة التى بعدهم وفلسفت النقد وفلسفت الكلام من قبل وجعلته علما ، والفت فيه كتبا .

ولعل اقدم ما وصل الينا من كتب النقد .

* ـ كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ، ولكن كتابه على فضله ينقصه الترتيب المحكم ، والنظام الدقيق .

* ـ كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة . وكان الفضل الاول فيه عدم رضاه على من يفضل القديم لقدمه .

* ـ كتاب البديع لابن المعتز الذى اثبت فيه ان البديع كان موجودا في الجاهلية وصدر الاسلام ، ولكنه كان يأتي عفو الخاطر فجاء بشار وابو تمام ، ومن بعدهما فاكثروا فيه ، وقصدوا اليه .

* ـ كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، وهو الى البلاغة اقرب ، وهو المسؤول الاول عن جمود المصطلحات البلاغية وتحجرها ، اذ أنه لم يزد في النقد شيأ ، وقد تأثر به علماء البلاغة الذين جاءوا بعده امثال السكاكى صاحب مفتاح العلوم وسعدالدين التفتازانى فى شرح التلخيص . وعبدالحكيم السيلكوتى فى المطول ، ونحو ذلك حتى وصلنا فى تلخيص المفتاح الى ضرب من الكلام أبعد ما يكون عن البلاغة .

* ـ ووجدت من أثر خصومة الادباء مدرستان عنيفتان احداهما تفضّل ابا تمام لغزارة معانيه وطائفة تفضّل البحترى لاتصاله بعمود الشعر فجاء على اثر ذلك مؤلفان جليلان هما الصولي والآمدى ، وكان ضلع الصولي مع ابى تمام وضلع الآمدى مع البحترى . فألف الصولى اخبار ابى تمام وألف الآمدى كتابه الموازنة[1] .

وقد سارا فى نقدهما على الموازنة بين الشاعرين فى ذكر كل منهما مزايا صاحبه وعيوبه ، وسلك الآمدى مسلكا فى الموازنة باختياره قصيدتين

---

(١) تجد ذلك مفصلا فى موضعه من هذا الكتاب .

في موضوع واحد ورويّ واحد . ثم النص على أيهما أجود وأيهما ارذل . وهي موازنة بدائية .

والموازنة الصحيحة هي ان يعرف الناقد عناصر الادب من عاطفة وخيال ومعنى واسلوب ثم يعرض عليها شعر كل منهما . فمن كان حظه منها اكثر كان اشعر . واذا زاد احدهما على صاحبه في عنصر منها كأنْ يزيد أبو تمام في المعنى ويزيد البحتري في الاسلوب أمكنه ان يعرف هل زاد الآخر في العناصر الاخرى زيادة تفوقهما اولا . وهكذا .

وخبت نار الخصومة بين ابي تمام والبحتري ، ثم ما لبثت أن اشتعلت بمجيء أبي الطيب المتنبي ، فقد كان في شعره نوع من التجديد ، فاختلف الناس فيه فرقتين : فرقة تحط من شأنه ويغيظها تقريب سيف الدولة له واغداقه عليه ... وفرقة ترى انه جدير بذلك وأن شعره في المقام الاول ... وما زالت هذه الخصومة تتناحر حتى ظهر عليّ بن عبدالعزيز الجرجاني فألف كتابه المشهور :

* ـ « الوساطة بين المتنبي وخصومه » .ووقف موقف القاضي العادل فقال ماله وما عليه وكان من مزايا كتاب الوساطة التفاته الى تأثير البيئة في الادب .

* ـ وأتى بعد ذلك الثعالبي صاحب اليتيمة ، وهو وان كان كتاب تراجم بعبارة مسجوعة ثقيلة فانه لا يخلو من نظرات نقدية لطيفة تتناول محاسن المتنبي ومساوئه وما يُرتضى من مذهبه في الشعر وما يستهجن والاشارة الى غروره وغُررِه ... ولقد لاحظ على المتنبي ملاحظات لطيفة كتكريره لبعض المعاني مما يدل على انها ملأت نفسه وعمقت في صدره كقوله :

عش عـزيزا أومت وأنت كريم　　بين طعـن القنـا وخفق البنود

وكملاحظته أن المتنبي يخاطب ممدوحه بمثل مخاطبة المحبوب :

ما لي اكتّم حبا قد برى جسدى　　وتدعي حب سيف الدولة الامم

وجاء بعد ذلك ابو الفرج الاصفهاني صاحب الاغانى • وله نتف قليلة ، فى بعض الاحيان • ينقد بها الشاعر ، أو يبين مزاياه ، تـدل على نظر بصير • وذوق دقيق •

* ـ ثم جاء بعد ذلك أبوهلال مؤلف كتاب الصناعتين، وكان كتابه هذا مؤسساً على كتاب قدامة بن جعفر وزاد عليه تطبيقـات كثيرة صبغته صبغـة جديدة وخففت هذه الامثلة من جفاف كتـاب قدامـة وانتفع برأى السابقين ونقدهم •

واذا قلنا ان العسكرى حو ل النقد الى بلاغة وكان هو نفسـه نقطة التحول • وجرى الناس بعده على اثره لم نبعد عن الصواب • ولذلك نرى من بعده أمثال عبدالقاهر الجرجانى ممن يبحثون فى البلاغة أكثر مما يبحثون فى النقد •

* ـ وقد ألف الجرجانى كتابيه اللطيفين (دلائـل الاعجـاز واسـرار البلاغة) ، وهمـا كتابان لطيفـان دقيقان يمتـازان بحسـن التعبير ، واكتشاف ابواب من البلاغة وماله من فلسفة لغوية عميقة ، وسـلامة فى الذوق • فقد استنكر اغراق المعانى والالفاظ بالمحسنات البديعية ، وذكر ان المثل الاعلى ليس اصحاب السجع بل المثل الاعلى ما كتبـه الجاحظ فى صدور كتبه • فلا امعـان فى التجنيس ولا امعـان فى السجع • وكان من انصار المعانى ، فعنده ان الالفاظ خـدم للمعانى واستطاع ان يدرك ان هناك الفاظا تحسن فى النثر ولا تحسن فـى الشعر كلفظ ايضا •

ومن مميزاته ان ربط النحو بالمعاني فنفث في النحو روحا لم تكن معروفة من قبل ، ولا جرى الناس عليه فيما بعد . وعنده ان لتركيب الكلام (أو كما نسميه نحن اليوم الاسلوب) شأنا كبيرا في تقريب المعاني أو ابعاده . وحسن الوقع أو استهجانه .

* — وهناك تيار آخر ، وهو يعد امتدادا لحركة النقد . ومن اصحاب هذا التيار ابو العلاء المعرى ، فقد كان في رسالة الغفران ناقدا ، وان كان نقده خياليا ، وله كذلك رسائل نقدية كرسالة نقد امرىء القيس والنابغة ، ونقده لابي تمام في رسالته (ذكرى حبيب) وللبحترى في رسالته (عبث الوليد) ، وللمتنبي معجز احمد ونحو ذلك . فهو فيها كلها ناقد فلسفي ديني ادبي .

* — وجرى هذا المجرى نفسه ابن شُهَيد الاندلسي في رسالته : (التوابع والزوابع) وفيها ينطق الجن بنقد الشعراء والادباء بملاقات ابن شهيد بشياطين الشعراء والكتاب .

* — كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لمؤلفه ابن رشيق القيرواني . وقد تعرض فيه لعناصر الشعر وفضله ودواعيه وان لم يتكلم عن العواطف التي تبعث الشعر . وان لم يسمها عواطف ، وذكر المشاهير من الشعراء والمقلين والمولدين . والاوزان والقوافي وآداب الشاعر ، واراجيف الشعراء والرواة وذكر كل نوع من الشعر كالنسيب والهجاء والوصف وذكر شروط جودته الخ ..

* — كتاب اسرار الفصاحة لابن سنان الخفاجي فتكلم عن السجع ونفى ان السجع عيب . وذكر كثيراً من النماذج الادبية ، ووازن بينها .

* — ومن أهم الكتب النقدية كتاب (المثل السائر) لابن الاثير وهو كتاب قيّم مملوء بالالتفاتات الادبية الرائعة التي تدل على ذوق بارع لو لا ان صاحبه كثير الفخر بنفسه والاعتداد بها ...

وقد يقع على آراء قيمة ينسبها الى نفسه وهو مسبوق اليها • وذكر القصص فى القرآن وابان بلاغتها ، وكان خيرا من ذلك ان يتعرض لغير بلاغة القرآن حتى يكون حرا فى النقد •

* ـ وهناك كتب ليست كلها نقدا ولكن فيها نتف نقدية ادبية ككتاب زهر الآداب ، وكتاب المستطرف من كل فن مستظرف للابشيهي وغير ذلك •

وجرى الادباء على هذا المنحى من غير تجديد كبير وظلت حياة النقد خامدة في العصور الاخيرة حتى حدث الاحتكاك فى العصور الحديثة بين الشرق والغرب فحيي النقد من جديد • وكان لنا نقدان : نقد مؤسس على ما لنا من تراث قديم فى امهات مصادرنا العربية ونقد مؤسس على نقد الافرنج • وكلا النقدين تقليد لا ابتكار فيه • واختلاف هذا النقد تابع لاختلاف منهج الادب • فهناك أدب يحتذى القديم فى اسلوبه وموضوعاته وله مدرسة قائمة بذاتها تستنكر الادب الغربي ولا تتذوقه • وهناك أدب يستوحي الادب الغربي ويقلده ولا يؤمن بالادب العربي وله مدرسته الاخرى ••• وقد يكون هناك قوم من اهل الاعراف اخذوا من الغرب معانيه وموضوعاته ، واخذوا من الشرق جزالة اسلوبه وجميل تعبيراته ، ولكل وجهة هو موليها •

* ـ فلما جاء العصر الحديث ظهر بعض النقاد • ومنهم الشيخ حسين المرصفي فى كتابه (الوسيلة الادبية) وكان يتعصب للبارودى الذى عارض بعض الشعراء كالشريف الرضي وابى نؤاس • فوازن بين قصائدهم التى هى من باب واحد ووزن واحد واشار الى محاسن كل منها •

* ـ ثم جاء بعد ذلك المازني والعقاد وألفا كتابهما (الديوان) فى نقد

شعر شوقي فوضعا شوقيا فى الميزان وهاجماه مهاجمة عنيفة فنقداه مثلا فى قصيدته فى رثاء محمد فريد من مثل قوله :

كل حي على المنية غادى — تتوالى الركاب والموت حادى
ذهب الاولون قرنا فقرنا — لم يدم حاضر ولم يبق بادى
هل ترى منهم وتسمع عنهم — غير باقي مآثر وايادى

فيقولان له ان هذه من الاقوال العديدة المألوفة حتى لتسمعها من المكدين والشحاذين كقولهم دنيا غرور والذى عند الله باق وما اكثر ما داست الدنيا على الجبابرة ووضعتهم تحت التراب • وفى قوله :

وعلى نائم وسهران منه — قدر لا ينام بالمرصاد

يقولون عنه انه سرق هذا المعنى من قصيدة ابي العلاء التى عارضها بهذه القصيدة ، وهى :

غير مجد فى ملة واعتقادى — نوح باك ولا ترنم شاد

واستمرا على هذا المنوال فى نقد شوقي والمنفلوطي • وقد نظرا فى نقدهما بعين الغرب ومقاييس نقده • وان كان يؤخذ عليهما شيء من شدة النقد وقسوته والمبالغة فيه •

* — وجاء بعدهما الاستاذ عبداللطيف السحرتي فألف كتابه الذى سماه (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) • فتتبع بعض الشعراء بالنقد على النمط الاوربي الحديث • وأوضح المذاهب المختلفة فى النقد من مذهب فنى ومذهب واقعى ، وتكلم فى مقاييس النقد الادبي والانفعالات الشعرية والفكر فى الشعر والموسيقى الشعرية ، والشعر الرمزى • ثم نقد الشعر فى مصر واستعرض بعض النقاد كالمازني والعقاد فى الديوان وكتاب على السفود للرافعي وحديث الاربعاء للدكتور طه ، وكتاب فى الميزان للدكتور مندور • وهكذا •••• فكان حلقة جديدة فى النقد المعاصر •

المصـادر المدونـة

في النقـد والادب

من بداية القرن الثاني للهجرة

تمهيـد

تطلق المصادر ويراد بها الآثار الماثلة في تلك الاحقاب البعيد من نقوش واخبار وكتابات •

اما النقوش والكتابات الموثوق بها لا تزال شحيحة مطمورة في مختلف بقاع بلاد العرب فالباحث يجد عناءاً في تحقيقها والتثبت منها لانها غير متوفرة بحال تعين على الاحاطة التامة ولا تشـجـع المحققـين على اعطـاء الاحكـام اليقينية فيهـا •

وأما الاخبار التي يتناقلها الرواة فانها أيضا لا يعتمد عليها تمـام الاعتماد لانها لا تغني الباحثين ولا تمدهم بما يجعل ابحاثهم مترابطة متصلة الحلقات اللهم الا ما كان متعلقا بعامة عقائدهم واصول اجتماعهم ونوع الحكم الذي كانوا يحيون بظله ، مما توارثته اجيالهم ، ودرجت عليه اعقـابهم ، وعاشته قبائلهم •

وهذا لا يعني انهم قوم بدائيون ليس لهم سابق حضارة من قبل فلـو أمعنا النظر في البقية الباقية من تراثهم الادبي لوجدناهم امة ذات حضارة ومدنية عريقتين • اذ لا يصح في العقل ان امة من الامم تشيع فيها السجايا الحميدة والافكار القيمة كالعدل والصدق والامانة والحرية وحفظ الجوار وانجـاز الوعد وايواء الغريب ونصرة الضعيف دون ان يكون لها تاريخ مديد تخطى مراحل البداوة من ادهار طويلة المدى واحقاب بعيدة الغور •

ونحن لا نحب أن نغلو كما يغلو بعض الباحثين ونسرف على أنفسنـا؛

كما يسرفون فنجفو الحقيقة ونقول ان عرب الجاهلية كانوا من الحضارة بمنزلة لا سبيل الى تجاوزها ولا مزيد عليها لمستزيد . لا . لا نقول ذلك ولكنا نود ان نشير الى ان حضارتهم كانت نتيجة حضارات ذات حلقات بدأت منذ شاء الله لها أن تبدأ وانتهت قبل الاسلام بما لا يتجاوز مئة وخمسين سنة . فكان من تلك الحضارات الحضارة المعينية والسبئية والعادية والثمودية والنبطية التى اشتهرت وازدهرت فى شمال الحجاز وجنوب الشام اربعة قرون ثم زال سلطانها السياسى فى القرن الثانى بعد الميلاد . ثم الحضارة الحميرية التى امتدت حتى اشرفت على اوائل القرن السادس للميلاد .

فلم يكن اذا ما ذكرناه من أمر هذه الحضارات أمرا جمح به الخيال ونسجه الوهم . بل انها حقيقة ثابتة لا يمكن نكرانها ولا يستطيع اى باحث منصف ان يقول خلاف ذلك . وما ينبغي لمتثبت ان يغفل عن الفروق الكثير بين قوم لم يكن لهم فى حياتهم الاجتماعية سابقة من علوم وحضارات وبين قوم كان لهم ما كان من حضارات قيمة ثم تقلص ظلها وتسرب الوهن اليها فى فترة من الزمن .

نعم ان تاريخ العرب القديم قد ضاع اكثره وعفت آثاره ولكن تاريخهم القريب من قبل عهد الرسالة بقرنين قد أولاه الرواة عناية حفظت شيئا منه وما زال حيا فى صدور الرواة يتناقله الابناء عن الآباء . ولولا هؤلاء الرواة لضاع هذا الذى بين ايدينا ايضا كما ضاعت معالمهم الاولى فى عصورهم البائدة . وسبب هذه العناية هو ان العرب كسائر الشعوب الحية ينتابها ما ينتاب غيرها من ادوار اليقظة وادوار الركود . فهى تنام نومة تطول وتقصر ثم تحيا حياة تطول وتقصر ايضا بحسب الطاقة الكامنة فى اصلها ، وبحسب العوامل المؤثرة فيها . فتجدها تنبسط تارة حتى لا تكاد الارض تسعها ثم تتقلص اخرى حتى يكاد النسيان يضفى رداءه عليها . ولما

اختارها الله لرسالته هيأ لها اسباب اليقظة والنهوض فأخذت تلم شعثها وتوحد شعوبها وتندفع الى تحقيق ما كتب الله لها من سمو وهداية .

المصادر الاولية للادب العربى

١ ـ مجموعة حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ هـ وقد اقتصرها على المعلقات ، وهي عنده سبع :

امرؤ القيس ، وزهير ، وطرفة ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة اليشكرى ، وعنترة العبسى . وعُنِي بشرحها كثير من مؤرخي الادب قديما وحديثاً . منهم ابو بكر محمد بن القاسم الانبارى المولود ٢٧١ والمتوفى سنة ٣٢٧ هـ ، وابو جعفر احمد بن محمد النحاس المتوفى فى سنة ٣٣٨ هـ ، وابو عبدالله الحسين بن احمد الزوزنى المتوفى سنة ٤٨٦ ، وابو زكريا يحيى بن علي التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ وغيرهم .

وهكذا توالت عليها الشروح حتى زماننا هذا ، وآخر من حققها وعلق على شرح الانبارى الاستاذ عبدالسلام محمد هارون فجزاه الله تعالى احسن الجزاء .

٢ ـ المفضليات نسبة الى جامعها المفضل بن محمد الضبي راوي الكوفة ، وعلامتها المتوفى على أرجح الاقوال سنة ١٧٨ هجرية . انه اختارها حين عهد اليه أبو جعفر المنصور بتثقيف ابنه المهدى . قيل انها كانت فى الاصل ثمانين قصيدة وزاد فيها الاصمعى اربعين قصيدة ثم زاد فيها بعض تلاميذه حتى بلغ تعدادها مائة وثماني وعشرين قصيدة . طبع الجزء الاول منها المستشرق نوربكه فى لبزج سنة ١٨٨٥ ميلادية . ثم طبعت كاملة فى مصر بجزئين وصححها وعلق عليها تعليقا بسيطا ابو بكر الداغستاني المدني سنة ١٣٢٤ هجرية ثم طبع المستشرق ليال

شرح الانبارى كاملا سنة ١٩٢٠ على نفقة كلية اكسفورد • ثم تولى الاستاذ الاديب حسن السندوبي طبع المفضليات مع شرح موجز لها فى سنة ١٣٤٥ هجرية بمصر •

ثم طبع الجزءان الاول والثانى بتحقيق وشرح الاستاذين احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون سنة ١٣٦١ •

٣ ـ الاصمعيات نسبة الى اصمع وهو الجد الخامس لابي سعيد بن عبدالملك بن قريب المولود سنة ١٢٣ والمتوفى سنة ٢١٦ • امام أهل البصرة فى اللغة والغرائب والملح وراوى الاصمعيات التى بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين قصيدة • وهي موزعة على واحد وسبعين شاعرا منهم أربعون شاعرا جاهليا على رأسهم امرؤ القيس • والحارث ابن عباد ودريد بن الصمة وابو داود الايادى وذو الاصبع العدواني وسلامة بن جندل وطرفة بن العبد وعروة بن الورد وقيس بن الحطيم ، واعاد نشرها الاستاذان عبدالسلام هارون واحمد شاكر عن نسخة للشنقيطي •

٤ ـ جمهرة اشعار العرب وهي مجموعة لابي زيد محمد بن ابى الخطاب القرشي المتوفى سنة ١٧٠ هجرية (ج٣ ص ٣٦٤ آداب العرب للرافعي) بينما الدكتور ناصر الدين الاسد يرى انه من رجال القرن الرابع الهجرى ، وهى تضم ٤٩ قصيدة طويلة موزعة على سبعة اقسام لكل قسم منها سبع قصائد • والقسم الاول خاص بالمعلقات ويلي هذا القسم المجمهرات ثم المنتقيات ثم المذهبات ، وجميعها لشعراء من الانصار جاهليين ومخضرمين ثم عيون المراثي • ثم المشوبات وهي لشعراء مخضرمين شابهم الكفر والاسلام • ثم الملحمات وجميعها لشعراء اسلاميين وهي مجموعة غنية بالقصائد الطويلة •

٥ ـ هي مجموعة ديوان الحماسة لابن تمام الطائي المتوفى سنة ٢٣٢ هـ الذي قالوا عنه انه في اختياره اشعر منه في شعره . وهي مقطوعات لجاهليين واسلاميين وعباسيين وقد رتبه في عشرة أبواب في جزئين . من أكبر الابواب باب الحماسة . وبه سماها . ثم باب المراثي . والبابان في الجزء الاول واما الجزء الثاني فباب الادب ثم باب النسيب ثم باب الهجاء ثم باب الاضياف والمديح ثم باب الصفات ثم باب السير والنعاس ثم باب الملح ثم باب مذمة النساء . وقد قام بنشره وعلق على شروحه الاستاذ محمد عبدالقادر سعيد الرافعي صاحب المكتبة الازهرية سنة ١٣٤٦ هجرية ١٩٢٧ ميلادية .

٦ ـ مجموعة حماسة البحتري المتوفى سنة ٢٨٤ هجرية .

٧ ـ حماسة الخالديين أو الاشباه والنضائر للاخوين سعيد الخالدي المتوفى سنة ٣٥٠ ومحمد الخالدي المتوفى سنة ٣٨٠ هجرية .

٨ ـ دواوين الشعراء كديوان امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة وقد نشرها (الوارد) الا انه لم يكتف برواية الاصمعي التي احتفظ بها شرح الشنتمري المتوفى سنة ٤٧٦ هجرية.

٩ ـ مجموعة ابن الشجري المتوفى ٥٤٢ هجرية وهي مختارات من الشعر الجاهلي والاسلامي . موزعة على ثلاثة اقسام واهم من في القسم الاول الشنفرى وطرفة ولقيط الايادي والمتلمس . اما القسم الثاني فمختارات من دواوين زهير وبشر بن أبي حازم وعبيد بن الابرص. واما القسم الثالث فمختارات من ديوان الحطيئة . وطبعت هذه المجموعة بالقاهرة . وله ديوان حماسة طبع في حيدرآباد ، واغلب منتخباته من الشعر الجاهلي .

١٠ـ الحماسة البصرية التي الفها علي بن ابي فرج البصري المتوفى في القرن السابع الهجري برسم الملك الناصر صلاح الدين وفي المكتبة الخديوية الجزء الاول منها .

المراجـــع

طبقات فحول الشعراء — لمحمد بن سلام الجمحي .
الشعر والشعراء — لعبدالله بن قتيبة
البيان والتبيين — لعمرو بن بحر الجاحظ .
الكامل — لمحمد بن يزيد المبرد
يتيمة الدهر — لعبدالملك الثعالبي
الاغاني — لابي فرج الاصبهاني .
زهر الآداب — لابي اسحاق الحصرى .
نهج البلاغة — للامام علي بن أبي طالب (رض)
الصناعتين — لابي هلال العسكرى .
البديع — لعبد الله بن المعتز .
اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز — لعبدالقاهر الجرجاني .
الوساطة بين المتنبي وخصومه — لعلي بن عبدالعزيز الجرجاني .
الموازنة بين الطائيين — لابي بشر الآمدي .
الامالي — لابي علي القالى .
ادب الكاتب ، وعيون الاخبار — لعبد الله بن قتيبة .
العمدة — للحسن بن رشيق القيرواني .
انباه الرواة على انباه النحاة — لعلي بن يوسف القفطي .
معجم الادباء ومعجم البلدان — لياقوت الحموي .
معجم الشعراء — لمحمد بن عمران المرزباني .
الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء — للمرزبانى أيضا .
العقد الفريد — لشهاب الدين بن عبد ربه الاندلسي

مجمع الامثال	لاحمد بن محمد الميدانى
الفهرست	لمحمد بن اسحاق النديم •
ديوان ابي الطيب شرح البرقوقى	لاحمد بن الحسين الشهير بالمتنبي
الصبح المنبي في حيثية المتنبي	ليوسف البديعي
لزوم ما لا يلزم	لاحمد بن عبدالله المعري •
البديع فى نقد الشعر	لاسامة بن منقذ
نقد الشعر	لابى فرج قدامة بن جعفر
سحر البلاغة وسر البراعة	لعبدالملك الثعالبي •
عيار الشعر	لمحمد بن طباطبا العلوي •
المفضليات	للمفضل الضبي •
الاصمعيات	لعبدالملك بن قُريب الاصمعى
اساس البلاغة	لمحمود بن عمر الزمخشري •
امالي المرتضى	لعلي الموسوي العلوي •
الانصاف فى مسائل الخلاف	لكمال الدين الانبارى •
عبث الوليد	لابى العلاء المعرى •
سقط الزند	للمعرى •
مقامات البديع الهمذانى	لاحمد بن الحسين •
مقامات الحريري	للقاسم بن علي الحريرى •
جمهرة اشعار العرب	لمحمد القرشي •
ديوان الحماسة	لابى تمام حبيب بن اوس الطائى •
قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب	لابن رشيق القيروانى •
الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة	لعلي بن بسام الشنترينى •
نفح الطيب من الغصن الاندلسى الرطيب	لاحمد المقّرى التلمسانى •
مقدمة بن خلدون	لعبدالرحمن الشهير بابن خلدون •

رسالة بن القارح لعلى بن منصور الحلبى .
رسالة الغفران للمعري الى ابن القارح .
سر الفصاحة لعبدالله بن سنان الخفاجي .
المثل السائر لضياءالدين بن الاثير .
رغبة الامل من كتاب الكامل لسيد بن علي المرصفي .
عصر المأمون لاحمد فريد الرفاعي
النثر الفني لزكي مبارك .
المواهب الفتحية لحمزة فتحالله .
النقد المنهجي لمحمد مندور .
النقد الادبي لاحمد أمين .
اسس النقد الادبي عند العرب لاحمد أحمد بدوي
المعارك الادبية لانور الجندي .
المدخل الى النقد الادبي الحديث لمحمد غُنيمي هلال .
تاريخ الادب العربي لمصطفى صادق الرافعي .
تاريخ الادب العربي لجرجي زيدان .
بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب للآلوسى لمحمود شكري الآلوسي . لشارحه وضابطه محمد بهجت الاثرى.
الموازنة بين الشعراء لزكي مبارك .
الياذة هوميروس لسليمان البستاني .
جمهورية افلاطون لمترجمها عن الانكليزية حنا خباز .
جمهرة خطب ورسائل العرب لاحمد زكي .
من شعر ابي حيان الاندلسي جمع وتحقيق مطلوب والحديثي .
الحب العذري وكتاب الشعر فى بغداد لاحمد عبدالستار الجواري .
الكشف عن مساوىء شعر المتنبى للشيخ محمد حسن آل ياسين

الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث	لمصطفى السحرتي •
الفن ومذاهبه فى الشعر العربي	لشوقي ضيف •
الادب ومذاهب النقد فيه	لمؤلف هذا الكتاب رشيد العبيدي •
المرأة فى الشعر العربي	لعلي الهاشمي •
شعر المخضرمين	ليحيى الجبوري •
نقائض جرير والفرزدق	لمحمود غناوي •
البلاغة الفنية	لعلي الجندي •
قضايا الشعر المعاصر	لنازك الملائكة •
فى الادب العربي الحديث	ليوسف عزالدين •
أبو حيان التوحيدي	لعبدالرزاق محي‌الدين •
التمام فى تفسير أشعار هذيل	لاحمد ناجي وخديجة وأحمد مطلوب
الشعر العراقي	ليوسف عزالدين •
تاريخ الادب العربي	لبروكلمان •
فى الميزان الجديد	لمحمد مندور •
الادب وقيم الحياة المعاصرة	لمحمد زكي العشماوي •
آراء فى العربية	لعامر رشيد السامرائي •
نقد وتعريف	لعبدالله الجبوري •
النقد الادبي اصوله ومناهجه	لسيد قطب •
دفاع عن البلاغة	لاحمد حسن الزيات •
تاريخ الادب العربي	لاحمد الاسكندري •
اصول النقد الادبي	لاحمد الشايب •
تراث الانسانية	عباس محمود العقاد وصحبه •
الغربال	لمخائيل نعيمة •
قواعد النقد الادبي	للاسل آبر كرُمبي ترجمة محمد عوض محمد •
فنون الادب	لتشارلتن ترجمة زكي نجيب •

الفهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

كتب مطبوعة للمؤلف

١ ـ الادب ومذاهب النقد فيه .

٢ ـ دراسات في النقد الادبي في جزئين .

٣ ـ تحقيق ديوان العرجي بالاشتراك مع زميل .

٤ ـ دليل النحو الواضح بالاشتراك مع زميل .

٥ ـ شرح واعراب شواهد نحوية .

٦ ـ سلسلة كتب في القراءة للامين بالاشتراك مع لجنة .

تحت الطبع

٧ ـ معالم الطريق الى حياة أفضل .

٨ ـ المذاهب الادبية الحديثة .

٩ ـ قالت لي نفسي وقلت لها .

١٠ ـ رسالة في فلسفة الجمال .

١١ ـ رسالة في الامثال العربية .

١٢ ـ المقارنات الادبية في القديم والحديث

١٣ ـ رسالة في فلسفة التشريع .

١٤ ـ رسالة في الخطابة العربية .

٨٧/١٠٠٠/١٩٦٩